كتاب اليوم

# جذور

تلخيص القصة

عبد الحميد فهمي الجمال

قصة الزنوج في أمريكا

بقلم

عبد الحميد الكاتب




• قصة الزنوج فى أمريكا




# كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة:
**موسى صبري**

رئيس التحرير:
**أمين محمد عدلي**

نائب رئيس التحرير:
**عبد العزيز عبد العليم**

مدير التحرير:
**حسين فريد**

شوال ١٣٩٩

العدد ١٥٧ سبتمبر ١٩٧٩ – أيلول



الإدارة: أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢


## الاشتراكات

جمهورية مصر العربية: قيمة الاشتراك السنوي ٢,٥٠٠ جنيه مصري

**البريد الجوي**

| | | |
|---|---|---|
| دول اتحاد البريد العربي والأفريقي | ٤,٠٠٠ | جنيه مصري |
| | ٩,٠٠٠ | دولار أمريكي أو ما يعادله |
| باقي دول العالم (أوروبا والأمريكتين وآسيا واستراليا) | ٩,٠٠٠ | جنيه مصري |
| | ١٥,٠٠٠ | دولار أمريكي أو ما يعادله |

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى: الاشتراكات ٢٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)




للكاتب الأمريكى

# أليكس هيلى

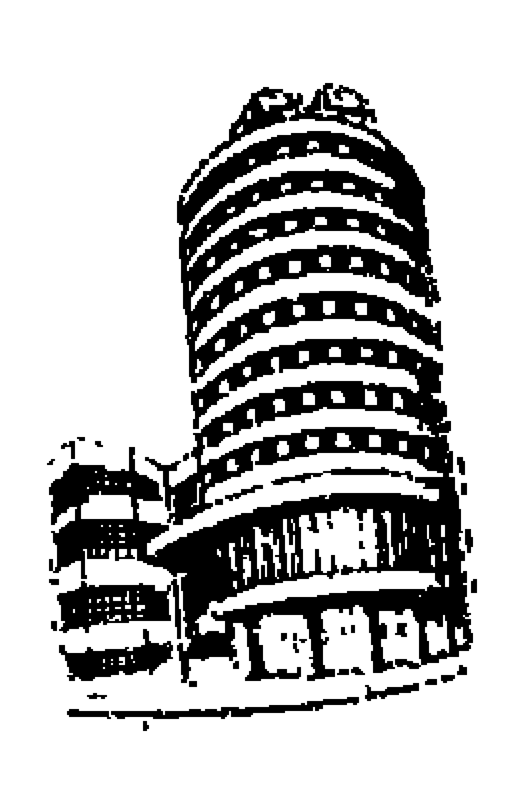
قصة الزنوج فى أمريكا

بقلم

## عبدالحميد الكاتب

تلخيص قصة "جذور"

## عبدالحميد فهمى الجمال



الغلاف

بريشة الفنان

الاستاذ حسين بيكار

# تقديم

## • عبد الحميد الكاتب •

عندما صدرت قصة « جذور » وبدأت الصحف والمجلات تكتب عنها مقالات اضـــافية ، وتثير حولها جدلا طويلا ، سارعت الى قراءتها ، فأخذني موضوع القصة وما فيه من مأساة انسانية هائلة عاشها ملايين البشر .

ثم شاهدت القصة بعد أن قرأتها معروضـــة على التليفزيون الامريكي في ثمانية أيام متتالية ، ساعة ونصف ساعة كل مساء ، فكانت اثنتي عشرة ساعة أمضيتها، مثلما أمضاها ملايين الناس أمام أجهزة التليفزيون يشاهدون قصة تهز المشاعر وتحرك الضمير .

ثم قرأت أشياء عن مؤلف القصة ، الكاتب الامريكي اليكس هيلي، وكيف تطورت حياته وأفكاره فاعتنق الاســـلام ، وانضوى تحت راية الزعيم الزنجي المسلم مالكوم اكس ، وكتب كتابا عن مبادئه ودعوته .. فلما قتل اعتكف وانزوى ، وكرس نفسه لكتابة هذه القصة .. فراح يبحث ، ويقرأ ، ويسافر الى افريقيا ويجوس خلال أدغالها ، ثم يعود الى أمريكا ليكتب القصة التي استغرقت منه اثنتي عشرة سنة متواصلة !

وراعني كل هذا .. فقد وجدت نفسي أمام مأساة من أكبر المآسي الانسانية .. ورأيت فيها أيضا أن التاريخ الذي نقرؤه وندرسه في الكتب قد يكون « كذبا » فاضـــحا .. يناقض الحقيقة تمام المناقضة .. وقد يعيش العالم مصدقا هذا الكذب دهرا طويلا ، حتى يأتي يوم ، اذا جاء هذا اليوم ، فيتصدى له رجل مثل اليكس هيلي، فيخرج الحقيقة من تحت ركام مؤلفـات « المؤرخين » الثقات .. فيعرف العالم من هم تجار الرقيق في العصر الحديث ، وما هي مأساة الرقيق في أكثر المجتمعات تحضرا وتقدما .

ورحت من يومها أقرأ عن قصة الرق وتجارة الرقيق ، وعن قصة الزنوج فى أمريكا ، لاعرف تاريخ هذه المشكلة التى كنت أجدها فى أثناء اقامتي الطويلة في أمريكا ، ماثلة أمام عيني فيما أراه ،وفيما أقرؤه ، وفيما اسمعه كل يوم٠٠ دون أن أدرك جيدا الاسباب العميقة والدقيقة التي تحرك مشاعر الزنوج في أمريكا ، والتى كانت سببا في اثارة الحرب الاهلية التى اجتاحت أمريكا عدة سنوات منذ أكثر من قرن مضى ٠

وأسفرت الحرب الاهلية عن الغاء الرق وتجارة الرقيق ٠٠ الغتهما بالقانون ٠٠ ولكن ، ورغم القانون فقد ظل الرق قائما بعد هذا عشرات من السنين ، وان كان قد أخذ صورا أخرى لا تخرج في واقع الامر عن الرق واستعباد الانسان لاخية الانسان ٠

ثم تطورت الامور ٠٠ وتحرك السود من جانب ، وتحرك البيض من جانب ٠٠ فأخذت المشكلة صورة جديدة هى صورة الانفصال الخطير بين هؤلاء وهؤلاء ، وقد ظل هذا الانفصال قائما بصورة واضحة ، ومعترف بها ، الى عهد قريب ٠٠ فقد شاهدته بنفسي منذ ربع قرن أو أكثر قليلا في مقاعد الاتوبيس فى واشنطون ، وفى عربات السكة الحديدية فى ولايات الجنوب ، وحتى فى المراحيض العامة ، فهذه للبيض وهذه للسود ! ٠٠ فضلا عن وجود هذا الانفصال ، أو التمييز العنصري ، فى المطاعم ، وفى المدارس ، وفى المناطق السكنية ٠٠ والواقع أن هذا الانفصال ظل قائما بصورة مخزية فى المدارس الى عهد قريب جدا ، وكان الغاؤه ــ وما يزال ــ مثار مشاكل كثيرة فى عدة أرجاء من أمريكا !

وتمثل هذا الانفصال العنصرى فى اضطهاد شائن عاني منه السود دهرا طويلا ٠٠ وتمثل أيضا فى حركات عنيفة ملأت تاريخ أمريكا منذ بدايته ومازالت له أثاره حتى الآن ٠٠ وخرج فى خضم هذه الحركات زعماء زنوج ، عديدون ومختلفون ٠٠ فمنهم من يدعو الى اقامة دولة للسود داخل أمريكا ومستقلة عن أمريكا ٠٠ ومنهم من يدعو الى أن ينزح السود عن أمريكا ويعودوا الى موطنهم الاصلى فى أفريقيا ٠٠ ومنهم من يدعو الزنوج الى أن ينهضوا بأنفسهم حتي يكونوا على مستوى البيض فيندمجوا فيهم ٠٠ ومنهم من عمل وكافح وضحى حتى صدرت القوانين التى تسوى بين السود والبيض ، ومازال يعمل ويكافح حتى تتاح للسود فرص في العمل والاجر والمناصب القيادية تتكافأ مع الفرص المتاحة للمواطنين البيض ٠

والى جانب هؤلاء نفر كثير من البيض دعوا ويدعون للمساواة بين المواطنين الامريكيين جميعا ، على اختلاف لون البشرة ، أو

اختلاف العرق أو العنصر الجنسي .. ومن هؤلاء البيض رجال دين ، وأصحاب فكر ، ودعاة اصلاح ، ورؤساء أمريكيون ، تبرز أسماء ثلاثة منهم هم : ابراهام لنكولن ، وجون كنيدي ، وجيمي كارتر .

أقول قرأت كثيرا في هـذا .. فراعني ، وأثار اهتمامي .. فرأيت من واجبي أن أشرك القارىء فيما قرأت ، وما عرفت ، بقدر ما يتسع له جهدي .

وكان التليفزيون المصري قد عرض علينا ، خلال شهر رمضان من هذا العام ، قصة « جذور » .. كما عرضها التليفزيون في عدد من البلاد العربية . قبل هذا .. وأقبل الناس ، آلاف وآلاف من الناس ، على متابعة القصة بشغف عظيم .. فرأيت أن هذه فرصة مهيأة لكي أقدم للقارىء صورة عامة للموضوع الذي تدور حوله قصة « جذور » .

وتتألف هذه الصورة العامة من ثلاثة أجزاء :

**أولها** : المقالات الثلاث التي نشرتها في « أخبـار اليوم » منذ ثلاث سنوات عن القصة ، ومؤلفها ، ومسيرته في وضع هذه القصة الفذة .

**وثانيا** : خلاصة لقصة « جذور » قام بها الاستاذ عبد الحميد فهمي الجمال ، وقد تشاورنا فيما ينبغي أن يقدمه ، فالقصة طويلة تتجاوز سبعمائة صفحة ، وهي مليئة بتفاصيل كثيرة ومتشعبة ، يمكن تجاوزها والتركيز على مجرى أحداث القصة . وهذا ما قام به المترجم ، متوقفا عند المرحلة التي انتقل فيها الرقيق من أفريقيا الى أمريكا ، ثم خلال المرحلة التي عاني فيهـا الزنوج في أمريكا صنوفا من العذاب والاذلال واهدار كرامة الانسان ..

**وثالثها** : عرض تاريخي عن قصة انتقال الزنوج في أمريكا من العبودية الى الحرية .. وما يحفل به هذا التاريخ من حرب ، ومن معارك ، ومن عنف ، ومن زعماء ، سود وبيض على السواء ، حتى تنتهي الى الوضع الحالي الذي يعيش فيه خمسة وعشرون أو ستة وعشرون مليونا من الزنوج في المجتمع الامريكي .

ولعل ما قام به الاستاذ عبد الحميد فهمي الجمال من جهد في تلخيص القصة الكبيرة ، وما قمت به من تقديم وتعقيب ، ما يعطي القارىء صورة كاملة عن موضوع له جوانبه الانسانية والتاريخية والاجتماعية .

● سبتمبر ١٩٧٩

عبد الحميد الكاتب



ليكس هيلي
مؤلف كتاب « جذور »

# قصة الكتاب .. وقصة المؤلف

● جلس عشرات اللالايين من الامريكان قدرهم بماته وثلاثين مليونا أمام أجهزة التليفزيون وأمضوا اثنتى عشرة ساعة على مدى ثمانية ايام متواصلة ليشاهدوا كتابا اسمه « جذور » .

كانت الامهات يدفعن أولادهن وبناتهن للنوم مبكرين ليستطيعوا أن يستيقظوا فى الساعة الحادية عشرة مساء ليروا ويتابعوا هذا الكتاب حين يذاع على أجهزة التليفزيون فى أمريكا من أولها الى آخرها .. من البيت الابيض الى أصغر بيت فى أقصى الجنوب أو أقصى الشمال .

أما القارىء الامريكى فقد دفع حتى الآن عشرات الملايين من الدولارات فى شراء ملايين النسخ من كتاب « جذور » .. وقد بيع هذا العدد الهائل بخلاف الطبعات الشعبية التى وزع منها ملايين وملايين النسخ فى أمريكا وحدها .

واما خارج أمريكا فان كثيرا من دور النشر فى العالم قد تعاقدت لترجمة هذا الكتاب الضخم ولنشره بكثير من لغات البشر فى شتى أنحاء العالم .

ويقبل الناس من جميع الاعمار وجميع المستويات على شراء كاسيتات سجلت عليها قصة تأليف هذا الكتاب .. قصة اثنتى

عشرة سنة أمضاها المؤلف بين امريكا وأواسط افريقيا٠٠ والسجلات القديمة في لندن ٠٠ ليضع هذه القصة أو هذا الكتاب ٠٠

ودار الجدل طويلا على مستوى كبار المؤرخين وكبار الكتاب : هل « جذور » كتاب أو قصة ؟ هل هو كتاب لاشك ولا تحريف في أحداثه وشخصياته ٠ أو هي قصة يمتزج فيها قليل من التاريخ بكثير من الخيال ؟

ان عنوان الكتاب بالكامل :

**« جذور ـ قصة عائلة أمريكية » ٠**

⊙❖⊙

فما هي هذه العائلة وما قصتها ؟ وما أهمية هذه القصة في امريكا دع عنك خارج أمريكا ٠

أما العائلة فهي عائلة مؤلف الكتاب مستر اليكس هيلي ٠٠ وهو زنجي امريكي ٠٠ كان يعمل في خفر السواحل حيث أمضى عشرين سنة ٠٠ ثم استقال من وظيفته ، واعتنق الاسلام ، وانضم الى الزعيم الزنجي المسلم: مالكولم اكس الذي اغتاله بالرصاص خصومه من الزنوج المسلمين منذ بضع سنوات ٠٠ وهزه مصرع زعيمه مالكولم اكس فكتب عنه كتابا عاديا ٠٠ كان هو أول وآخر تجربة له في عالم الكتابة ٠٠ ثم اختفى بعد هذا سنوات طويلة حتى ظهر بكتابه « جذور » ومنذ ذلك الوقت صار اسمه على كل لسان ، بل صارت قصة كتابه تتصدر الصفحات الاولى ، وتملأ المساحات الواسعة ، في الجرائد اليومية الكبرى فضلا عن انه صار موضوعا للمقالات والتعليقات في المجلات الاسبوعية والشهرية ٠٠ في أمريكا وفي انجلترا وغيرهما من أقطار العالم ٠ وقد نال اليكس هيلي جائزة بوليتزر للأدب لعام ١٩٧٧ وهي الجائزة التي تعادل في أمريكا جائزة نوبل العالمية ٠٠ وربما يحصل يوما ما على جائزة نوبل في الادب عن قصته جذور أما الكسب المادي من وراء هذا الكتاب فقد أصبح اليكس هيلي ـ مثل الزنجي المسلم محمد على كلاي ـ من أصحاب الملايين في امريكا ٠

⊙❖⊙

والآن ما موضوع كتاب «جذور » بعد هذه المقدمة الطويلة التي لم أكتبها « تشويقا » للقارىء ٠٠ انما كتبتها لأشير الى مدى اهتمام الناس ، على جميع المستويات ، بالكتب الجيدة في البلاد التي يرتفع فيها مستوى الثقافة ويتسع نطاقها ٠٠ ولأشير الى مدى هذا الاهتمام الواسع العميق اذا ما كان الكتاب متصلا اتصالا عميقا بصميم

المشاكل الاجتماعية والقضايا القومية التى يعيشها الناس .. ولأذكر أيضا كيف ان الكتاب يبذلون احيانا جهودا مضنية لتأليف كتبهم .. فقد أمضى اليكس هيلى اثنتى عشرة سنة متوالية متفرغا الى تأليف هذا الكتاب الواحد .. ولكى أشير أخيرا الى كيف تفتش أجهزة التثقيف العام - فيما هو متاح لها من شتى الوسائل من تليفزيون وسينما واسطوانات وتسجيلات - لتخرج مثل هذه الاعمال الثقافية القومية فى صور مؤثرة وأخاذة لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم وتفاوت أعمارهم او اجيالهم .

ولندخل الى موضوع الكتاب وهو زنوج امريكا ، من أين جاءوا .. وكيف جاءوا .. وماذا جرى بعد أن جاءوا ؟

⊛❖⊛

الامة الامريكية كلها أمة مؤلفة من مهاجرين ، فيما عدا تلك القلة من النـــاس التى عـــرفت باسم « الهنود الحمـــر » ، فهكذا سماهم كرستوفر كولمبوس عندما جاء الى امريكا متوهما انه وصل الى الهند فوجد فيها نوعا غريبا من الهنود لا يتكلمون اللغة الهنــدية التى يعرفها مترجمه العربى الذى جاء معه من الاندلس ، ورأى أن بشرتهم أقرب الى النحاس الاحمر . فسماهم الهنود الحمر . فيما عدا هذه القلة القليلة فكل الامريكان قد هاجروا أو هاجر آباؤهم وأجدادهم من بلاد بعيدة عبر البحـــار . وكلهم قد هاجـــروا الى امريكا بمحض رغبتهم وارادتهم .. اما فرارا من اضطهاد دينى عرفته أوربا فى مراحل النزاع العنيف الدامى الذى جرى بين الكاثوليك والبروتستانت أو بين المسيحيين واليهود .. واما فرارا من الاضطهاد السياسى الذى عاشت فيه أوربا وغير أوربا مراحل طويلة كانت فيها غيابة السجون تبتلع خصوم الحكام الطغاة .. واما - وهو الغالب قديما وحديثا - سعيا وراء رزق أوسع وأوفر فى بلاد لا حدود لغناها ، تفتح أبوابها لمن يريد ان يأتى ليعمل وليثرى ، وليكون مواطنا أمريكيا ..

الا فئة واحدة جاءت الى أمريكا قسرا وغصبا .. أولئك هم الزنوج .. كان يجلبهم تجار الرقيق .. ويختطفونهم من امهاتهم وآبائهم وهم أطفال وصبيان ويقذفون بهم كقطعان الاغنام فى سفن رهيبة تتقاذفها أمواج المحيط .. بينما صرخاتهم تتعالى كما تتعالى فوق أجسادهم أصوات السياط ، يلهبهم بها تجار الرقيق من البحارة الانجليز .. حتى اذا وصلوا الى شاطىء امريكا عرضوا فى سوق الرقيق فيشتريهم أصحاب المزارع التى تنتج القطن والطباق فيعملون فيها رقيقا مسخرا يعانى أكثر مما عانى الرقيق فى عهود الجاهلية فى امبراطوريات

الفراعنة أو القياصرة ، أو في جزيرة العرب أو في اوربا في العصور الوسطى او في شتى بلاد العالم قديما وحديثا ..

وصار هؤلاء الرقيق السود مواطنين امريكيين .. ولكن شتان ما بينهم وبين الامريكيين بيض الوجوه ! شتان ما بين هؤلاء وأولئك لا في الحريات الاساسية وحقوق الانسان وحدها، بل في نظرة الرجل الابيض الى ذلك الرجل الاسود .. فهذا الابيض الذي جاء من انجلترا أو اسكتلندا أو المانيا أو هولندا يرى ويحس أن وجه الشبه بينه وبين هذا العبد الذي جلبه من افريقيا هو أنه يسير مثله على اثنتين ، ويعمل باثنتين ، ويأكل ويشرب ، وله عينان وأذنان .. أما فيما عدا هذا فهمامختلفان في كل شيء .. في درجة الذكاء وفي القدرة على التفكير وفي الكفاءة في العمل .. وحتى في مستوى الاخلاق .. وحتى في رائحة البدن ! بل ان هناك فرقا أساسيا بينهما يراه الرجل الابيض ويحس به احساسا عميقا ، فهذا الرجل الابيض له آباء وأجداد تركهم وراءه في أوربا في بلاد لها تاريخ ومجد وحضارة ، أما هذا الرجل الزنجي فما هو الا « مخلوق » كان آباؤه وأجداده يتسلقون الاشجار في غابات افريقيا كما يتسلقها القردة والغوريلا ، ثم أدركته العناية الالهية ، فانتشلته من افريقيا وغاباتها ومر بمرحلة التطهير فكان عبدا رقيقا فترة من الزمن .. ثم جاء ابراهام لينكولن فحرره .. وصار الآن مواطنا امريكيا وان كان لم يبلغ بعد درجة المساواة التامة مع المواطن الامريكي الابيض !- الم يقل ريتشارد نيكسون حين واجه نيكيتا خرتشوف في لقاء المطبخ في المعرض الامريكي في موسكو : صحيح أن الزنوج في امريكا ما زالوا محرومين من بعض الحقوق .. ولكن لا ننسى أن عدد السيارات التي يملكها زنوج أمريكا أكثر من كل السيارات الموجودة في الاتحاد السوفيتي !

◎❖◎

وما زال الرجل الابيض في امريكا بوجه عام يرى .. ويتوهم .. ان الامريكي الزنجي ليس له أصل حضاري .. انساني .. بالمعنى الذي يفهمه هذا الابيض الذي جاء من إنجلترا أو آيرلندا ، أو من اسبانيا او ايطاليا ، أو من الصين أو البلقان او القوقاز ؟ .. إنه يتساءل في دخيلة نفسه وقرارة شعوره : من هو هذا الزنجي الامريكي ؟ .. ما أصله ؟ .. وأين كان قبل ان يجيء الى امريكا ؟ .. وكيف كان آباؤه واجداده هناك في غابات افريقيا وآجامها ..

وماذا كانوا يعرفون ويتكلمون وكيف كانوا يعبرون ؟ .. ان هـذه الاسئلة تراوده دائما كلما نظر الى هذا الزنجي الامريكي حتى لو صار رالف بانش الذى نال جائزة نوبل للسلام .. حتى لو صار مارتن لوثر كينج أحد الزعماء المشهورين فى العصر الحديث .. حتى لو صار أندروكينج رئيس الوفد الامريكى فى الامم المتحدة والصديق المقرب الى الرئيس كارتر . دع عنك محمد على كلاى وسيدنى بواتييه وغيرهما من النجوم اللامعـة .. حتى لو كان اسـتاذا كبيرا أو عالما مشهورا أو كاتبا مثل اليكس هيلى مؤلف كتاب « جذور » .

فليذهب اليكس هالى وليمض اثنتيعشرة سنة يبحث عن «جذور» هذا الزنجيالامريكي ممثلا فيقصة عائلته كما كان يسمعها منجدته فى ولاية تنيسى في الجنوب حيث تتجسم أمامه فى كل لحظة وفى كل حركة تلك الاسئلة المهينة التى يكاد ينطق بها الرجل الابيض كلما رأى هذا الامريكى الاسود الذى جاء من غابات افريقيا .

كان الصبى اليكس هيلى يسمع من جدته فى احدى قرى الزنوج فى جنوب امريكا قصصا عن رجل قديم اسمه « الافريقى » .. هى قصص ترويها الجدة عن جدتها العجوز التى كانت تقول لها أن قصـة هذا الافريقى بدأت عندما كان يبحث فى الغابة المحيطة بقريته عن جذع شجرة ملائم ليصنع منه طبلة له .. وكان يقول ان اسم قريته « جوفيور » القريبـة من نهر « كامبى بولونجو » .. وهنـاك انقض عليه أربعة رجال وضربوه وقيدوه بالحبال وحملوه الى حيث القوا به في سـفينة تحمل الـرقيق .. وعبرت السـفينة بحرا هائجا أياما وأسابيع طويلة حتى القت به وبغيره من الصبيان والشبان المخطوفين فى هذه الارض الجديدة . وظلت هذه القصص عالقة بذاكرة اليكس هيلى ، راسخة فيها . فلما شب وانضم الى الزعيم الزنجى الثائر مالكولم اكس فكر فى أن يبحث عما وراء هذه القصص التى سمعها من جدته العجوز ..

وبدأ بحثه فى امريكا مبتدئا باقاربه من العجائز والشيوخ لتقصى تاريخ عائلتـه منذ هبط ذلك « الافريقى » أراضى امـريكا ، ثم أخذ ينقب فى أوراق ووثائق قديمة فيالمتحفالوطنى في واشنطون وفي مكتبة الكونجرس التى تضم كل وثيقة وكل صحيفة وكل كتاب طبع فى امريكا .. ثم ظن أن الافريقيين الذين جاءوا الى الامم المتحدة أخيرا يستطيعون ان يساعدوه فى بحثه ، فكان يذهب اليهم ويسألهم عن تلك القرية فى افريقيا .. فيسـتمعون اليه تأدبا ويهـزون اكتافهم وينصرفون عنه مندهشين من هـذا الامـريكى الذى يبحث عن تلك

القرية المجهولة وسط غابات افريقيا . واخيرا التقى باستاذ فى جامعة هارفارد متخصص فى التاريخ الافريقى القديم ، فقال له انه يرجح ان تكون هذه القرية فى « جامبيا » فهناك نهر بذلك الاسم .

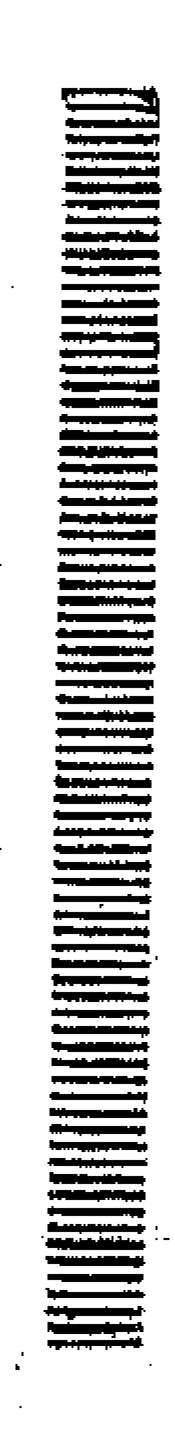
وبعد ثلاثة أيام كان اليكس هيلى يركب الطائرة فى طريقه الى جامبيا في غرب افريقيا .. وفى مدينة « بنجول » عاصمة جامبيا قالوا له أن هناك افرادا من الناس وظيفتهم هى أن يحفظوا تاريخ القبائل والعائلات ويورثوا أولادهم هذا التاريخ . انهم أرشيف حى يحتفظ بتاريخ كل اسرة هناك وانهم يعيشون فى القرى النائية ، فنظم « سفارى » .. أى قافلة .. من ستة عشر رجلا ذهب يبحث عن واحد من هؤلاء الذين يحفظون التاريخ !

وجد المؤرخ العجوز الذى راح يروى قصة العائلة وكأنه يقرأ فى كتاب مسطور .. انها عائلة مسلمة مثل كثير من العائلات فى تلك المنطقة .. عائلة لها تقاليد اجتماعية ودينية تنبع من هذا الدين الذى نؤمن به . ووصل المؤرخ فى قصته الى سنة ١٧٧٦ حين وقعت مأساة فى العائلة ، فقد ذهب ابنها يلعب على شاطىء النهر ، فاختفى . ولم يظهر له أثر بعد هذا : هل غرق فى النهر وجرفته المياه ؟ .. هل اختطفه تجار الرقيق ؟

وذهب اليكس هيلى الى لندن وهناك تحتفظ الحكومة فى مكتب السجلات العامة بوثائق عن السفن الانجليزية . ونقب فى تلك السجلات حتى اهتدى الى السفينة التى حملت ذلك الصبى الافريقى .. « اسمها لورد لونجييه » . وقد أبحرت من نهر جامبيا حتى وصلت الى ميناء « أنابوليس » فى أمريكا يوم ٢٩ سبتمبر ١٧٧٦ .

واستأنف الكاتب البحث فى أمريكا فوجد فى جريدة ميريلاند جازيت فى عدد شهر أكتوبر ١٧٧٦ إعلانا عن وصول السفينة لورد لونجييه قادمة من نهر جامبيا فى افريقيا وعليها حمولة من ثلاثين شابا وصبيا من أجود وأصح الاصناف ..

وعاد اليكس هيلى ليكتب القصة .. قصة الافريقى الذى اختطفوه من قبيلته المسلمة منذ مائتى عام .. والذى عاد حفيده ، بعد سبعة اجيال ، فاعتنق الاسلام .. وراح يكتب قصة جذوره منذ البداية ، ويكتب خلالها صفحات انسانية رائعة قرأها وسمعها ورآها ملايين من الناس .





اليكس هيلى مع وثائق الاسرة

# هذا الزنجى له جذور عميقة فى التاريخ

شاهدت القرية الصغيرة « جوفيور » المختبئة وسط أدغال افريقيا جمعا من مصورى السينما والتليفزيون والصحف جاوز عددهم خمسين رجلا وامرأة جاءوا من أمريكا ليلتقطوا صورا وأفلاما للضيف الكبير حين جاء يزور القرية ·

كان الضيف هو الكاتب الامريكى اليكس هيلى مؤلف كتاب « جذور » الذى كانت تقرؤه وتسمعه وتراه امريكا كلها · وكتب مراسل جريدة نيويورك تايمز مقالا عن هذه الزيارة قال فيه : ان أهل القرية الصغيرة للغاية لم يدهشهم مجىء هذا العدد الكبير من المصورين والصحفيين فانهم يعرفون ان اسم قريتهم قد صار على ألسنة الملايين من الناس فى أقاصى الارض ، وان الفضل فى هذا يرجع الى « ابنهم » البار الذى جاء جده السابع من تلك القرية ·

وخرج اهل القرية رجالا ونساء واطفالا ، وخرج أهل القرى المتناثرة على ضفاف نهر جامبيا ، يرقصون على دقات الطبول والدفوف ابتهاجا بقدوم اليكس هيلى ومعه أخواه ، أحدهما مهندس معمارى والآخر يعمل بالمحاماة · واستقل الجميع القوارب الصغيرة فجرت بهم فى النهر عشرين ميلا فهذه هى الطريقة الوحيدة للوصول الى القرية المحظوظة ·· لقد وافاها الحظ من حيث لا تحتسب ، وبدأت تصير مركزا من مراكز السياحة ، وسوف يذهب اليها آلاف من السائحين الامريكيين فى مواسم الصيف وأعدت لهم حكومة جامبيا استراحات

على ضفاف النهر .. وتفكر أيضا فى ان تعد برنامجا من « الصوت والضوء » وان تقيم متحفا يرويان القصـــة التـاريخية التى رواها كتاب « جذور » .

وسوف تتعاقب أفواج أخرى من السائحين يريدون أن يروا بأعينهم من أين جاء هؤلاء «الامريكيون الافريقيون» وهو الاسم الجديد الذى صار يطلق على من كانوا يسمونهم فى امريكا الى عهد قريب : الزنوج .. أو السود أو الملونين .

وفي الاجتمـاع الكبير الذى عقـدته القـرية وقف اليكس هيلى وشقيقاه وحوله اقاربه وعددهم ثمانية وثلاثون شخصا وقام عبد الله كينتا أحد شـبان الاسرة والقى كلمة تحيـة للرجل الذى جمع بين طرفى اسرة كينتا .. الطرف الاول الذى يعيش فى افريقيا والطرف الذى ذهب الى امريكا ، بعد أن اكتشف احدهما الآخر بعد فراق دام مائتى سنة .

وعندما سأل اليكس هيلى احدى الفتيات عن اسمها فقالت له كينتا .. رقص طربا .. وقفز فى الهواء وهو يصيح : اسم جدى .. اسم جدى السابع ! والتفت الى من حوله وقال : لقد وصلتنى عشرات من الرسائل من القراء فى امريكا يقولون انهم اطلقوا على مواليدهم أولادا وبنات اسم كينتا .

كينتا .. هذا هو بطل كتاب « جذور » الذى يروى فيه اليكس هيلى قصته منذ ولد فى قرية جوفيور فى جامبيا الى أن مات فى تنيسى فى أمريكا ويرويها فى مئات من الصفحات هى جولات شـائقة فى تاريخ افريقيا ولمحات سريعة عن العرب والاسلام .. وصور بشعة عن الاستعمار الاوربى .. ثم قصة طويلة مؤثرة عن تاريخ امريكا .. ويروى من خلال هذا كله قصة الحرية الانسانية التى مرت عبر التاريخ بكل المآسى وكل الآلام .

⊙❖⊙

أبوه اسمه عمر .. وينطقونه هناك أمورو .. ويقولون أن هذا هو اسم ثانى الخلفاء الراشدين ، وكينتا امام المسجد فى القرية أو هو امام القرية وزعيمها .وكان رجلا صالحا ورعا جاء ماشيا على قدميه عبر الصـحارى قادما من بلاده موريتانيا ، تلك البـلاد التى أخـرجت الشنقيطى صاحب كتاب الوسيط وغيره من علماء الاسلام .. واستقر به المقام فى هذه المنطقة التى انقطع عنها المطر خمس سنوات متتالية وحتى هلك الحرث والنسل فأخذ الرجل الصـــالح يصلى صلاة

استسقاء خمسة أيام وليال متتالية أمضـــاها راكعا ساجدا ٠٠ واستجاب الله الى دعائه فانهمر المطر ورويت الارض فاهتزت وربت وأنبتت العشب ، تأكله الماشية والدوب فيأكل الناس ويشربون ٠

وانجب عمر ولدا فهمس في أذنه قائلا : سيكون اسمك مثل اسم جدك بينتا ٠٠ وكان من عقائدهم أن الطفل يجب أن يعرف اسمه قبل ان تعرفه امه أو احد من اهله لأن الاسم يوحى اليه بالصفات التى سيتميز بها طول حياته ٠٠ ولكل مسمى من اسمه نصيب ٠

وفى سن الخامسة دخل المدرسة أو الكتاب فحفظ سورا وأجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب ٠٠ ثم أخذ يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة ٠٠ وراح يعرف أشياء كثيرة من هؤلاء (الرواة) الذين كانوا يفدون الى القـرية من حين لآخـر ٠٠ فيلتف حولهم أهل القرية ويستمعون الى قصصهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحتى يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ، فينصرفون الى المسجد لصلاة الفجر ٠

وكان الرواه يقولون فى قصصـــهم الشـــائقة الاخاذة انه قبل ان يأتى البيض الى افريقيا كانت هناك مملكة قديمة اسمها غانا ٠٠ وكانت فيها مدينة لا يسكنها أحد سوى الملك ، ومعه نساء الملك ، والذين يخدمون الملك ويخدمون نساءه وكان اشهر ملك هناك هو « الملك كابنساى » الذى كان عنده الف حصان مطهمة بسروج والجمة من الذهب ٠٠ وفى كل مساء كان الملك يخرج من قصره فتوقد النار فى ألف مشعل ينبعث منها الضوء الباهر فيغمر الدنيا من السماء الى الارض ٠٠ وكان الملك يجلس على أريكة عالية ، ويجلس قريبا منه أولاده وشعورهم تلمع فيها قطع من الذهب ٠٠ ويحيط به حراسه ، ثلاثة آلاف من الرجال الاشداء ، على صدورهم دروع من الذهب وفى أيديهم سـيوف من الذهب وهناك كلاب كبيرة اطواقهـا من الذهب تقف على الابواب متربصة مثل الحراس الامناء ٠٠

وكانت هذه السيوف والدروع والاطواق مصنوعة فى تلك البلاد التى اشتهر بعض الناس فيها بحرف الصناعة والسباكة ٠ بينما اشتهرت نساؤها بنسيج الاقمشة وصنع الملابس الموشاة بسلوك الذهب والفضة ٠

ويمضى هؤلاء ( الـرواة ) الذين يعـرفون كل شىء من التـاريخ القديم الذى مضت عليه مئات من فصول المطر ٠٠ أى مئات من السـنين ٠٠ فيقـولون ان مملكة غانا هذه لم تكن أهم الممالك فى

افريقيا • كان هناك ما هو أغنى وأقدم منها وهى « امبراطورية مالى » •• وكانت فيها مدن عظيمة اشهرها مدينة « تمبكتو » التى كانت هى مركز العلم والتعليم فى افريقيا• فقد كان يقيم فيها مئات من العلماء وكانت تأتى اليهـا من شـتى الارجاء أفواج من العلماء والحكماء ، يلتمسـون مزيدا من المعرفة ومن العلوم •• ولم تكن هنـاك قرية صغيرة فى أفريقيا الا وفيها امام أو مدرس قد ذهب الى تمبكتو وتعلم فيها••وكان فى المدينة تجار كبار أثرياء بعضهم لا تجارة له الا بيع الكتب المسطورة على الجلود والاوراق ، ويأتى الناس اليهم من شتى بقاع الارض ليشتروا هذه الكتب والذخائر •

⊙❖⊙

عندما نقرأ هذه الصفحات المسهبة فى كتاب « جذور » فلابد أن نتصور أن اليكس هالى قد قرأ بعناية كتاب ابن بطوطة وغيره من الرحالة المسلمين •• فقد ذهب الرحالة العربى فى سنة ١٣٥٢ الى مملكة مالى ووصفها بأن طولها أربعة شهور وعرضها أربعة شهور وقال فى كتابه أن الزنوج هم أكثر الناس اقامة للعدل وكرها للظلم وانه لا يعرف اناسا يفضلون الزنوج فى هذا المضمار فان حكامهم لا يرحمون أحدا قام بشىء فيه خروج عن العدل • ولهذا فان الامن مستقر فى بلادهم ولا يشعر المسافر او المقيم بأى خوف من السرقة أو الاعتداء ••

واظن أن اليكس هيلى قد قرأ واقتبس من كتاب « ليو الافريقى » •• وهو رغم اسمه ، رحالة عربى اختطفه القراصنة وباعوه فى سوق الرقيق فى روما ثم اعتقه من اشتراه ليتفرغ لتعلم اللغات وتأليف الكتب ، فوضع فى سنة ١٥٥٠ كتابه « وصف افريقيا » الذى قال فيه : فى مدينة تمبكتو عـدد كبير من القضـاة والاطباء والكتبة وقد عينهم الملك فى وظائف عالية وهو لا يكرم أحدا مثلما يكرم رجال العلم وتجارة الكتب فى المدينة أروج وأربح من سائر أعمال التجارة الاخرى •

ولاشك فى أن كتاب « جـذور » بكل ما لقى من ذيوع وشـهرة سوف يرغب كثيرا من الناس فى ان يعرفوا تاريخ افريقيا القديم •• تاريخ تلك القارة التى وصفها الاوربيون وهى فى أزهى عصورها بالقارة المظلمة مع انها كانت قارة مضيئة بالعلم والتجارة والرخاء عندما كانت أوربا هى القارة المظلمة • وليس الاوربيون والامريكيون وحدهم هم الذين يجهلون تاريخ أفريقيا القديم بل أن معلوماتنا نحن العرب عن هذا التاريخ ضئيلة للغاية فقد نعرف شيئا عن لفنجستون

وستانلى اللذين اكتشفا منابع النيل ، وعن سيسيل رودس الذى سميت باسمه روديسيا ، ولكننا لا نعرف شيئا عن: اسكياس محمد الاول الاكبر الذى بلغت امبراطورية مالى فى عهده (١٤٩٣ـ١٥٢٨) اوج مجدها ٠٠ فقامت فيها الجامعات العلمية ٠٠ بل عرفت المصارف التى تقرض التجار لتذهب سفنهم محملة بمنتجات افريقيا ومصنوعاتها الى شتى أرجاء المعمورة حينذاك ٠

ماذا حدث لهؤلاء الناس الذين كانوا على قدر كبير من الحضارة فى افريقيا ، فصاروا عبيدا رقيقا فى امريكا ؟

ان أكثر من أربعة ملايين منهم قد حدث لهم ما حدث للشاب كينتا الذى تدور حوله قصة جذور ٠٠

⊙❖⊙

لقد تلقى كينتا تدريبا قويا على المصارعة والقنص والقتال وكان قوى البنية فارع القوام وسافر وهو صبى صغير مع والده الى قرية عمه على مسيرة أربعة أيام فى أرجاء افريقيا ، ثم سافر مرة أخرى عندما وصلت سنه الى السادسة عشرة واصطحب معه أخاه الامين فى رحلة بعيدة للبحث عن الذهب ثم وضع خططا لزيارة مالى القديمة والحج الى بيت الله فى مكة المكرمة الا ان خططه هذه لم تتحقق لأنه ذهب ذات يوم عندما بلغت سنه السابعة عشرة الى غابة قريبة من قريته «جوفيور» ليقطع جذع شجرة لاستخدامه فى صنع طبلة خاصة به ٠٠ وكانت هذه الغابة آمنة وهو كثيرا ما ذهب اليها منفردا أو مع رفاقه فقلما تقترب الوحوش من الاماكن المطروقة بجوار القرى ولكنه فى هذه المرة كان ينتظره فى تلك الغابة من هو أشرس من الوحوش الكاسرة ٠٠ كان يتربص به اربعة من الرجال : أثنان من السود واثنان من البيض ٠ ودخل فى معركة غير متكافئة مع الرجال الاربعة واستطاع أن يفقا عين أحدهم ولكنهم فى النهاية تغلبوا عليه بعد ان ضربوه بعصى غليظة فوق رأسه الى أن غاب عن الوعى فاوثقوه ونقلوه فى قارب صغير سرى بهم فى النهر الى حيث تنتظر السفينة الكبيرة عند شاطئ المحيط ٠

وعندما أفاق وجد نفسه مكبلا بالاغلال ووجدهم يدفعونه الى مبنى يسمى «قلعة جيمس» التى كانت مرفأ لتلقى الرقيق وتصديرهم لامريكا ٠ وفى داخل هذه القلعة كان هناك عدد كبير من الشبان والصبية والفتيات ٠٠ حيث كان يتم فحص اجسادهم ثم يقوم رجل اسود بكى ظهور هؤلاء الاولاد والبنات ويرسم على كل ظهر هذه العلامة الغريبة : «L.L.»

انها العلامة التى ترمز الى السفينة التى ستحملهم واسمها « لورد لونجييه » وتحرق أسياخ الحديد أجسادهم ويتعالى صراخهم الجنونى ويزداد جنونهم عند صب الماء المالح على جروحهم . ثم حملوا هذا القطيع من الناس الى السفينة وألقوا بهم فى عنبر فى أسفلها ... الشبان فى مكان والبنات والاطفال فى مكان آخر .

ويمضى مؤلف « جذور » صفحات تلو صفحات يصف الرحلة وأهوالها ويصف هؤلاء البحارة وهم يلهبون ظهور وأجساد هولاء الأسرى السود بالسياط بلا سبب معروف .

⊙❖⊙

واقتربت السفينة من الشاطىء .. وجلس تاجر الرقيق الانجليزى يكتب فى ورقة مكاسب الرحلة الطويلة التى استغرقت أربعة شهور ونصف .. كانت السفينة تحمل مائة وأربعين عبدا دفع فى كل منهم خمسة وعشرين جنيها انجليزيا ... وهذا سعر مرتفع ولكن أصحاب السفينة أمروه بألا يشترى الا أجود الأصناف .. وقد هلك من هؤلاء العبيد اثنان وأربعون خلال الرحلة الطويلة الشاقة ، وبقى ثمانية وتسعون وقد قدر انه سيبيع الواحد منهم بستمائة دولار ... وتوقع ان يحصل على ٥٨ الف دولار يضاف اليها الف دولار ثمنا لما حمله معه من العاج وشمع العسل أما هو فيخصه الف ومائتا جنيه عن كل رحلة مضافا اليها ستة جنيهات عن كل عبد حملته السفينة .. وجمع وطرح فوجد أن أصحاب السفينة سيحصلون على ربح صاف يصل الى ستة وثلاثين الف دولار .. انها رحلة مربحة فلعلهم يعطونه مكافأة سخية فقد اقترب من الكهولة وآن له أن يعتزل هذا العمل الشاق ويستريح فى قريته الجميلة فى انجلترا .

وكان أمام السفينة يومان آخران قبل أن ترسو على الشاطىء ، فأخذ بحارتها الانجليز ، وقد مات أحدهم فى أثناء الرحلة ، يعدون « البضائع » للعرض على الزبائن الذين توافدوا ، هم وزوجاتهم ، الى الشاطىء لشراء ما يلزم للحقول من العبيد ، وللبيوت من الجوارى .

وأطلقت المياه على هؤلاء الرقيق تغسلهم غسلا جيدا ، ثم أخذوا يدهنونهم بأنواع من الزيوت تجعل جلودهم السوداء تلمع مثل الابنوس .. صحيح أن أجسامهم قد هزلت خلال رحلة استغرقت أكثر من أربعة شهور ، قضوها فى عنابر لا تدخلها الشمس ولا يتجدد فيها الهواء ، وصحيح أن الطعام طوال الرحلة كان سخيفا

ورديتا . وصحيح أن السياط ألهبت أجسام الاولاد والبنات وأسالت منها دما كثيرا ٠٠ ولكنهم اذا خرجوا الى ظهر السـفينة وأمضوا النهار تحت الشمس الساطعة فى هذه الايام الحارة من أيام الخريف، فسـوف تجرى الدماء فى عروقهم مرة أخرى ، وسـوف تنبض أجسامهم بالقوة والحيوية ، وسوف يقبل عليهم المشترون ٠

ونزل العبيد الى الشاطىء فى احدى موانىء الجنوب فى أمريكا، وسيق الشبان والفتيات فى صف طويل تربطهم بعضا ببعض حبال وسلاسل حول أيديهم وأجسادهم العارية ٠٠ وعرضـوا واحدا واحدا على الزبائن ٠٠ فأخذوا يفحصون أجسامهم فحصا جيدا ٠

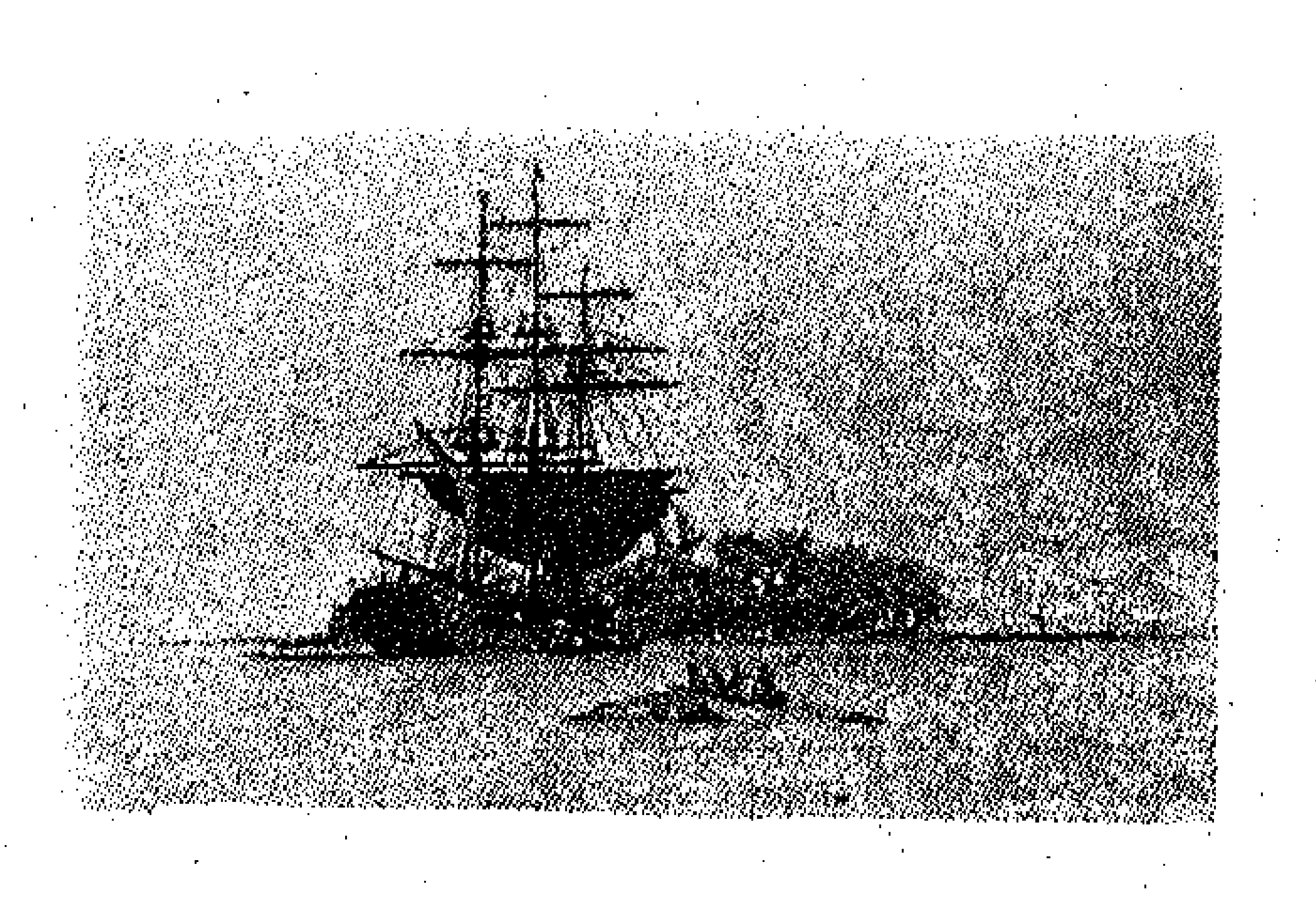
وبدأ بيع العبيد بالمزاد ٠

وعرض سمسـار المزاد « كينتا » ٠٠ وطلب من المشترين أن يتقدموا للمزاد ، فهذه «قطعة أفريقية ممتازة» ٠٠ فأخذوا يفحصون جسمه ، ويفحصون أسنانه ليتأكدوا أنه صبى مقدم على سن الفتوة! ٠٠ وكان هناك اثنان من أعيان الريف وأصـحاب المزارع ، قد أعجبهما هذا الشاب الفارع القوي ، فجرى بينهما المزاد حتى وصل الى ثمانمائة وخمسين دولارا ٠٠ ثمنا لم يسمع به من قبل !

ورسا المزاد على مسـتر جون وولر المزارع الثرى فى ولاية فرجينيا ، فتسلم البضاعة راجيا ألا يكون قد اندفع فى المزايدة ودفع هذا الثمن الباهظ ٠ ولكن الولد الزنجى يبدو قويا متينا ويساوى الثمن الذى دفع فى شرائه ٠٠ وشراء العبد اسـتثمار طويل المدى على كل حال ، فسوف يكون له نسل كثير من العبيد ومن الجوارى ، وسوف يكونون مثله قوة ومتانة ، وقدرة على العمل الشاق ، وعلى الصبر الطويل ٠

وبدأ كينتا مرحلة جديدة من حياته فى بلاد عرف فيما بعد أن اسمها أمريكا ٠





# وعاد مؤلف "جذور" مسلماً مثل جده عمر

كانت رحلة كينتا الطويلة عبر المحيط فى تلك السفينة الرهيبة ، وكان منظر سوق الرقيق من الاولاد والبنات على الشاطىء الامريكى ، شيئا مألوفا . فان ستمائة ألف أو سبعمائة ألف قد سبقوا كينتا فى مثل رحلة العذاب هذه .. اختطفهم تجار الرقيق وهم صبية وبنات يعيشون مع أهليهم فى قرى أفريقيا وحملهم البحارة فى سفن تجىء من أوربا أغلبها سفن انجليزية وبعضها سفن برتغالية وايطالية وهولندية .. فقد كانت هذه تجارة مجزية وكان ربحها كبيرا وسريعا .. كانوا يقدرون أن كل رحلة تربح مائة فى المائة من المبلغ الذى ينفق فى استئجار السـفينة وشراء وقودها من الفحم وفى دفع مرتبات ربانها وبحارتها وأيضا فى شراء العبيد الذين يباع الواحد منهم ببضعة جنيهات .

وقد أثرى كثير من الانجليز الذين استثمروا أموالهم فى تجارة الرقيق ثراء ضخما حتى أن دائرة المعارف البريطانية تقول ان الاموال التى استخدمت فى اقامة الثورة الصناعية فى بريطـانيا ، أى فى اقامة الحضارة الحديثة المادية ، كان أحد مصادرها الأساسية هو الأرباح الطائلة والأموال التى تكدست فى خزائن التجار الانجليز الذين استثمروا أموالهم فى تجارة الرقيق .. !

ورغم هذه الحقيقة التـاريخية التى تسجلها دائرة المعـارف البريطانية فكم من الكتب وكم من القصص وضعت لتقول أن الذين

كانوا يمارسون تجارة الرقيق هم العرب ·· والعرب وحدهم ···
وزادوا وعادوا في هذا الكلام حتى نجحوا الى عهد قريب ، وربما
حتى الآن ، في أن يثبتوا في أذهان الافريقيين من ناحية وفي أذهان
الزنوج في أمريكا من ناحية أخرى أن عدوهم التاريخي ليس
الاستعمار الأوربي وانما هم العرب الذين تولوا تجارة الرقيق في
افريقيا ··· وبيعهم للسفن الأوربية التي تذهب وتبيعهم فيأمريكا

⊙❖⊙

وكان المزارعون في أمريكا يقبلون على شراء الرقيق اقبالا شديدا
وينتظرون على الشاطيء وصول السفن التي تحملهم من افريقيا ··
ويجرى البيع والشراء علنا في مزاد مفتوح وان كان بعض كبار
المزارعين قد اعتادوا ان يتفقوا مع بحارة السفن على أن يحجزوا لهم
شابا قويا ·· أو صبية مكتنزة مقابل ثمن أعلى من الثمن المعتاد ·

أما كينتا فقد بيع في المزاد ودفع أحد المزارعين الكبار في شرائه
ثمنا لم يسمع به من قبل ·· وربما اشترت زوجته احدى البنات ،
فقد كان النظام الاجتماعي في الولايات الجنوبية بأمريكا يقوم على
أساس الرق في البيت وفي المزرعة ··· وكان في كل بيت واحدة
أو أكثر من هؤلاء الافريقيات بينما يملك المزارع عادة مابين خمسة
وعشرة افريقيين يعملون في الارض ،في زراعة القطن والأرز والطباق
·· أما كبار المزارعين فكان منهم من يملك مئات العبيد هم وأولادهم
من بعدهم ليكونوا رقيقا في مزارعهم الفسيحة ··

وكان القانون ينظم هذا الاسترقاق ويحميه وكان قانونا دستوريا
استندت نصوصه الى الدستور الامريكي الذي قرر اقامة دولة حرة
ديموقراطية ··· ولكنها كانت حرة وديموقراطية فيما يتعلق
بالجنس الأبيض فقط ·· أما فيما يتعلق بالزنوج العبيد فكانت
أبعد شيء من الحرية والديموقراطية ·· فقد نص على أنه لايجوز
الغاء الرق قبل عام ١٨٠٨ أي بعد حوالي ربع قرن من الاستقلال
·· وهي الفترة التي قدروا أنه من الضروري أن يستمر الرق قائما
خلالها حتى تبني أمريكا اقتصادها الناشيء بسواعد الرقيق ··
ولكنهم وجدوا أنه كلما اتسع نطاق الاقتصاد الامريكي ازدادت
حاجتهم الى استمرار الرق والى استيراد المزيد من الرقيق ·· حتى
بلغ عددهم أربعة ملايين نسمة ·· بينما كان عدد السكان البيض
في ولايات الجنوب التي يمارس فيها الرق ثمانية ملايين ·· أي
كان العبيد نصف عدد السكان وهي نسبة لم يبلغها الرقيق في أي
عصر أو في أي مجتمع ·



ولنعد الى كينتا ..

لقد صمم كونتا منذ البداية على الهروب من مزرعة جون وولر الذى اشتراه ودفع فيه ثمنا سخيا .. ولكن لماذا يهرب والى أين يهرب ؟ انه يعرف أنه لن يعود الى أهله وقريته وقبيلته أبدا ، فكثيرا ما سمع وهو فى أفريقيا أنه توجد هناك بلاد بعيدة جدا يملكها أناس بيض .. وهم يخطفون الاولاد والبنات من أفريقيا .. ويحملونهم فى السفن الى تلك البلاد .. وما أن تتحرك بهم السفينة بعيدا عن الشاطىء حتى يتحدث عنهم الناس مثلما يتحدثون عن الموتى .. بل ان الموتى يعرفون قبورهم .. أما الذين ذهبوا الى بلاد البيض فلن يعرف أحد هل هم أحياء أو أموات .. ولن يسمع الناس عنهم أى شىء أبدا .

ولكنه مع هذا يريد أن يهرب .. يريد أن يجرى بعيدا فى أى اتجاه .. وأن يذهب الى أى مكان حتى وان لم يجد أحدا يتكلم معه ، فكل من فيها من الناس يتكلم لغة غير لغته ، سواء كان أبيض أو

أسود ٠٠ حتى هذا الاسود الذى يأتيه بالطعام قال له ، وهو يشير بيديه وأصابعه : أنا اسمي شمشون ٠٠ وأنت اسمك توبى !

وعندما بدأ يفهم أن اسمه صار توبى ، غضب وثار وهاج ٠٠ أن اسمه كينتا ٠٠ وسيظل اسمه كينتا ٠٠ ولن يستطيع أحد أن يغير اسمه الذى أطلقه عليه أبوه ، والذى نادته به أمه واخوته ٠٠ ومهما فعلوا فلن يغير اسمه ، ولن يقبل هذا الاسم الغريب : توبى !

وقد فعلوا به كثيرا ٠٠ فكانوا يجلدونه ٠٠ ليقول ان اسمى توبى ٠٠ فيحتمل الجلد صابرا ، حتى يغمى عليه من شدة الالم ٠٠ فيستسلم ، ويتمتم : توبى ٠٠

وحاول كينتا ـ أو توبى ـ الهروب ثلاث مرات ، وفى كل مرة كانوا يكتشفون مكانه بمعاونة كلاب الصيد ، ودوريات من الافاقين البيض ، فيقبضون عليه ويعيدونه الى سيده ، بعد أن يتشقق جلده من ضرب السياط ٠

أما فى المرة الرابعة ، فقد عاد الى مزرعة سيده الذى نفد صبره وقرر أن يفعل به ما كانوا يفعلونه بالزنوج الاشقياء ٠٠

جاء رجلان من هؤلاء البيض الطوال الاقوياء ، ومعهما السياط والقيود وبندقيتان ٠٠ ومعهما شيء آخر ٠٠ وربطاه الى جذع الشجرة ٠٠ كمما وجهه ، وعصبا عينيه أيضا ٠٠ وبدأ أحدهما يتحسس أجزاء من جسمه ٠٠ ثم لم يدر بعد هذا ما حدث له ٠٠ فقد صبا فى جوفه ماء له طعم غريب ، وأغمي عليه وفقد وعيه ، وان كان قد أحس بالألم الفظيع عندما أمسك أحدهما بساقه فى عنف وشدة ، وهوى الآخر بفأس حاد السلاح ٠٠ فبتر نصف قدمه اليمنى !

نصف القدم فقط ٠٠ ليستطيع بعد أن تنكمش القدم الى نصف حجمها أن يمشى ٠٠ ولكن لا يستطيع أن يجرى ٠٠ ويهرب مرة أخرى !

ورأى سيده أنه لم يعد يصلح للعمل فى مزرعته ، فباعه لاخيه « الدكتور » وليم وولر ٠٠ فقد يصلح للعمل عنده فى بيته أو عيادته ٠٠ وكانت هناك امرأة زنجية تعمل فى بيت سيده الجديد ، امرأة سمينة تعمل طوال اليوم ثم يجتمع حولها عند المساء الرجال الزنوج الذين يعملون فى المزرعة طوال النهار ٠٠ ويتكلمون بلغة

تعلموها من هؤلاء البيض ويحاولون أن يتفاهموا بها ٠٠ ويغنون أحيانا أغنيات تنطق نغماتها بأنها أغنيات حزينة بائسة ٠

كان اسمها « بيل » ٠٠ وكانت هي التي تغسل قدم كينتا المبتورة ، وتضع عليها لفائف وتدربه على المشى على عكازين ٠٠ وكانت تجلس الى جانبه وتعطيه الطعام ، وتحاول أن تعلمه بعض الكلمات ، وتتكلم معه بلغة الاشارات ثم تعرف كينتا على باقى العبيد وأهمهم الجنايني العجوز وعازف الكمان الذى علمه التحدث بلغة التوبوب ( اللغة الانجليزية ) ٠٠ وبعد مرور عشرين عاما على اقامة كونتا فى هذه المزرعة تزوج من بيل التى كانت تكبره بعامين ، وأنجب منها طفلة أسماها « كيزى » ٠

وكبرت كيزى وصارت بنتا في السادسه عشرة من عمرها ٠٠ وذات يوم جاء وليم وولر صاحب المزرعة غاضبا هائجا ، وقال لبيل : لقد هرب أحد الاولاد الارقاء وقبضوا عليه ، فاعترف بأن الفتاة كيزى هى التى شجعته وتسترت عليه وساعدته على الهرب ٠

ان مستر وولر صاحب المزرعة لا يريد أن يفرط فى هذه البنت ، ولا في أحد من عبيده وجواريه ، فقد اشتد الاقبال على شراء العبيد فى تلك الايام ٠٠ لان رجلا هناك ربما فى شيكاغو فى احدى ولايات الشمال ٠٠ وربما في لانكشير في انجلترا ٠٠ قد اخترع آلة تغزل القطن وتنسجه بعد أن كان يغزل وينسج باليد ٠٠ فازداد انتاج الاقمشة زيادة هائلة ٠٠ وزاد الاقبال على زراعة القطن زيادة هائلة أيضا ، فصار أصحاب المزارع في حاجة الى مزيد ومزيد من الرقيق ٠٠ وصارت تجارة الرقيق التي قدر من وضعوا الدستور انها قد تنتهى فى عام ١٨٠٨ هى أكبر تجارة فى أمريكا ، وبين أمريكا وأفريقيا ، وبين أمريكا والجزر المجاورة لسواحلها الجنوبية ، وصار كل مزارع يحرص على من عنده من العبيد فلا يبيع أحدا منهم — حتى لو دفع فيه ثمن باهظ ٠٠ لقد ارتفع سعر العبد حينذاك الى ألفين من الدولارات ٠ ولكن المستر وولر رفض أن يبيع أحدا من عبيده الا اذا ارتكب جريمة كتلك التى ارتكبتها كيزى حين ساعدت ذلك الولد الزنجى على الهروب ٠

ونزعت كيزى من أبيها ومن أمها وبيعت الى أحد تجار الرقيق ٠٠ ولم يرها كينتا منذ ذلك اليوم ٠٠ فقد اشتراها مزارع فى ولاية بعيدة ، وهناك فى تلك المزرعة فى ولاية كارولينا ، القى صاحب

المزرعة بنفسه على البنت الزنجية فجاءت بولد ·· لم يكن أسود ولم يكن أبيض ·· بل كان لونه بنيا ، واسمه جورج ·

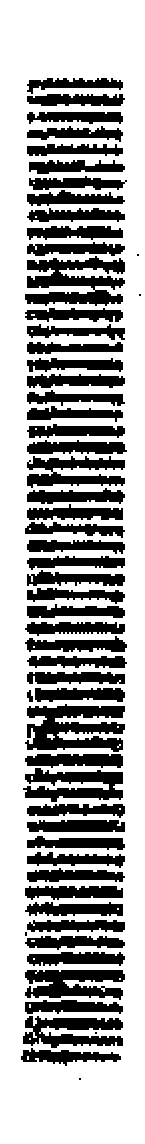
ومضت القصة كما تمضي قصص كل الزنوج في أمريكا ·· وأنجب جورج عددا من الأولاد والبنات ·· وصارت احدى البنات جدة ·· وكان اليكس هيلي يجلس على حجرها وهي تحكي له قصة جدها الافريقي الذي اسمه « كنتا » ·· وقد جاء من قرية جوفيور القريبة من نهر « كامبي بولونجو » في افريقيا ·· وكان أبوه يسمى « أمورو » أي عمر ·· وكان والد عمر يسمى ( تيرابا كونتا كينتا ) الذي صلى لله تعالى خمسة أيام وليالى متتالية ، فهطل المطر وارتوت الأرض ·· وذهب الولد الى الغابة يوما فانقض عليه أربعة رجال ·

وشب أليكس هيلي فعاد مسلما مثل اجداده المسلمين · ومضى يبحث عن القصة من أولها ·· وعاد بعد اثنتي عشرة سنة ·· وأخرج كتاب ( جذور ) ليروى فيه قصة الجذور التي نبت منها خمسة وعشرون مليونا من الزنوج في أمريكا :

**● عبد الحميد الكاتب ●**



قبيلة المؤلف اليكس هيلي وبينهم « المؤرخ الراوى »





# ١

أوائل ربيع عام ١٧٥٠٠ شهدت قرية ٠ جوفيور فى جامبيا بغـــرب افـــريقيا مولد الطفل الأول لكل من « أمورو كينتا » وزوجته « بنتا كينتا » ٠ وعندما رأت الدايتان المجعـدتان : نيوبوتو العجـوز وياسا جدة المولود أن المولود ذكر ضحكا فى إبتهاج لأنه عندما يجى المولود الاول ذكرا فانه يجلب معـــه ـ وفقا لمعتقدات الآباء والاجداد ـ بركات خاصة من لدن الله تنصب على والديه وعلى عائلتي والديه ٠

وكان وقت الولادة فى الساعة السابقة على الصباح الاول للديكة وكان أول صوت يقع على سمع الطفل هو ذلك الايقاع المنتظم «بومبا ـ بومبا بومبا» الصادر عن المدقات الخشبية حيث تداوم النساء بالقرية على دق حبوب الكسكسى في عنف فى اجرانهن لاعداد طعام الافطار التقليدى المكون من عصيدة الشوفان التى تطهى فى آنية شرقية على نار موقدة بين ثلاث قطع من الصخر ٠

وتصاعد الدخان الازرق الرفيع لأعلى فوق القرية الصغيرة المتربة المكونة من أكواخ طينية مستديرة ٠٠ وعندما بدأ امام القرية « كاجالى ديمبا » يؤذن لصـــلاة الفجـر ٠ ســـارع رجال القرية بترك أسرتهم المصنوعة من عيدان الخيزران وارتداء ملابسهم القطنية ووقفوا فى

صفوف حيث صلى بهم الامام « الله أكبر الله أكبر ، أشهد ان لا اله الا الله » ..

وطبقا للتقاليد القديمة ، كان على أمورو أن يقضى السبعة أيام التالية فى التفكير لاختيار اسم لطفله الاول . وفي خلال هذا الاسبوع قام أمورو بزيارة كل منزل فى جوفيور ووجه الدعوة لكل أسرة لحضور حفل تسمية المولود الجديد الذى يقام فى اليوم الثامن من حياته .

وفى الموعد تجمع القرويون فى الصباح الباكر أمام كوخ أمورو وبنتا وأحضرت النساء قرعات مليئة باطعمة الاحتفال المكونة من اللبن الرايب وكعك المانكو الحلو المذاق المصنوع من مسحوق الارز وعسل النحل . بينما حضر « كارامو سيلا » طبال القرية ومعه طبوله ذات الصوت العالى الرنان ، وامام القرية ، « وبريما سيساى » عريف القرية الذى سيكون يوما ما مدرسا للطفل . وأيضا حضر جانيه وسالوم وهما شقيقان لامورو وقد جاءا من مسافة بعيدة لحضور هذا الاحتفال عندما وصلتهما دقات الطبول التى أعلنت عن مولد ابن أخيهم .

وتم حلاقة مساحة صغيرة من شعر الطفل مثلما يحدث دائما فى مثل هذا اليوم . وأبدت جميع النساء اعجابهن بجمال الطفل المولود، وهدأت أصواتهن عندما بدأ الطبال فى قرع طبوله . ثم بارك الامام قرعات الطعام المليئة باللبن الرايب وفطائر المانكو بصلوات دينية . وبعدئذ التفت الامام ليبارك المولود متضرعا لله أن يمنحه حياة طويلة ونجاحا فى جلب الفخر والاعزاز لأسرته وقريته وقبيلته .

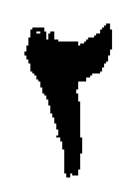
وسار أمورو أمام جميع اهالى القرية المجتمعين وانتقل الى جانب زوجته الممسكة بالمولود وأخذه منها رفعه لأعلى وهمس فى أذنه الاسم الذىاختاره لهثلاث مرات ودقت الطبول العاليةالرنانة مرةأخرى وعندئذ همس أمورو بالاسم فى أذن بنتا فابتسمت فى فخر وابتهاج ، ثم همس بالاسم الى العريف الذى كان يقف أمام القرويين.

وهنا صاح العريف « بريماسيساى » قائلا الطفل الاول لكل من أمورو وبنتا يسمى « كونتا » . فأدرك كل فرد أن هذا الاسم هو الاسم الاوسط للمرحوم جد الطفل ( كيرابا كونتا كينتا ) الذى جاء وافدا من موريتانيا موطنه الاصلى الى جامبيا حيث قام بانقاذ أهالى

جوفيور من المجاعة وتزوج الجدة « ياسا » ثم خدم جوفيور بشرف وصدق كرجل دين للقرية الى أن انتقل الى رحمة الله ٠

وقام العريف بتلاوة أسماء الاجداد الموريتانيين ـ الواحد تلو الآخر ـ الذى سبق أن تحدث عنهم مرارا الشيخ العجوز « كيرابا كينتا » جد الطفل المولود ٠ وكانت هذه الاسماء العظيمة العديدة ترجع الى ما يزيد على مائتى موسم من مواسم الامطار ٠ وبعدئذ راح الطبال يدق طبوله وصاح جميع الاهالى معبرين عن تقديرهم واعجابهم بهذه الذرية الصالحة ٠

وفي الخارج وتحت ضوء القمر والنجوم استكمل أمورو فى تلك الليلة الثامنة مراسم التسمية فحمل « كونتا » الصغير بين ذراعيه القويتين وسار به الى مشارف القرية ورفع طفله جاعلا وجهه متجها نحو السماء ٠ وقال فى رقة وحنان : « فيند كلنج دورونج ليه ورانتا كا أتاه تيى » بمعنى : « انظر وتأمل : انه الشىء الوحيد الذى هو أعظم من نفسك »



وحل موسم غرس البذور فى الارض ٠ وأصبح من المتوقع أن تبدأ بشائر الامطار فى وقت قريب ٠ وكان رجال جوفيور قد جمعوا كومات طويلة من الاعشاب الجافة فوق كافة أراضيهم الزراعية وأشعلوا فيها النيران لكى تغذى الرياح الخفيفة التربة بالرماد المتناثر ٠ وكانت النساء قد بدأن بالفعل بزراعة النباتات الخضراء فى حقول الارز الخاصة بهن ٠

وسارت بنتا وهى تحمل كونتا على ظهرها فى لفافة قطنية مع النساء الاخريات ومع صديقتها « جانكى توراى » الى الزوارق المصنوعة من جذوع الشجر الموجودة عند شاطىء ترعة القرية وهى الترع العديدة التى تتفرع عن نهر جامبيا الذى يعرف باسم « كامبى بولونجو » وانسابت الزوارق بسرعة وخفة على مياه الترعة ٠

وعندما اخترقت القوارب مساحات المياه المترقرقة .. قفزت أسراب سمك « أبوشوكة » الى أعلى مع بعضها البعض مؤدية رقصة فضية ثم عادت الى المياه محدثة طرطشـة فيما حولها . وما أن أقتربت النساء من المستنقعات الفرعونية حيث سبق لأجيال من نساء جوفيور زراعتها بمحاصيل الارز اخترقت الزوارق سحابات هائلة من البعوض .. ثم شقت الزوارق طريقها الواحده تلو الاخـرى فى ممر مغطى بأعشاب كثيفة . وكانت هذه الاعشاب تحدد المساحة المخصصة لكل امرأة . وكان حجم المساحة المخصصة لكل امرأة يتحدد فى كل عام . بمعرفة « مجلس الكبار » بقرية جوفيور طبقا لعدد الافواه التى يجب على كل امرأة اطعامها من الارز . وراعت « بنتا » توازنها وهي تحطو خارجة من القارب معطفلها الوليد . ثم أرضعته ووضعته فى الكوخ الذى صـنعه أمورو خصيصا له وراحت تغوص فى الماء لتقتلع الاعشاب الضارة التى تعوق نمو الأرز .

وهكذا كان كونتا الصغير يستمتع يوميا بدفء وحنان والدته . وكثيرا ما كان أمورو يأخذه الى كوخه ـ اذ كان الازواج يقطنون دائما فى مكان منعزل عن زوجاتهم ـ حيث كان يدع عينى الطفل وأصابعه تستكشف أشياء خلابة مثل الاحجبة والتمائم الموجودة عند رأس سرير أمورو والتى وضعت هناك لكى تطرد الارواح الشريرة . وكان يترك ابنه يلمس كل شيء باستثناء سجادة الصلاة التى ينظر اليها نظرة مقدسة . ودائما ما كان كونتا يستغرق فى النوم سواء عندما كانت بنتا تهزه فى حجرها أو عندما كانت تنحنى عليه فى سريرها وتغنى له فى هدوء ترنيمة كهذه :

يا طفلى الباسم ...

المسمى باسم سلف نبيل ...

انك ستصبح يوما ما صيادا كبيرا أو محاربا عظيما ..

يكون موضع الفخر لوالده ..

ولكنى سأذكرك دائما على هذا النحو .



# ٣

وانقضت ثلاثة أمطار ( أى ثلاث سنوات ) وبدأ كونتا الصغير يقضى أيامه فى لعب صاخب تحت اشراف العديد من الجدات المسنات اللائى تعتنين بجميع اطفال جوفيور الذين ينتمون للمرحلة الاولى من العمر أى الذين وصل عمرهم إلى خمس سنوات . كان الاولاد والبنات فى هذه السن يجرون ويهرولون وهم عرايا تماما مثل الحيوانات الصغيرة ويتصايحون وهم يلعبون لعبة « الاستغماية » حول جذع شجرة « البوباب » الخاصة بالقرية . الا ان جميع الاطفال كانوا على أستعداد للاسراع الى الجلوس فى صمت وهدوء عندما تعدهم احدى الجدات بسرد القصص عليهم . وكان يشعر مع زملائه الاطفال بأن أحسن راوية للقصص هى « نيوبوتو العجوز » الحبيبة الغامضة . ورغم انها كانت تتسم بالغلظة الا أن الاطفال كانوا يحبونها ويدركون انها تحبهم جميعا كما لو كانوا ابناءها . وذات يوم روت للاولاد هذه القصة : كان هناك ولد صغير يسير ذات يوم على شاطىء النهر فوجد تمساحا واقعا فى فخ من الشباك .

فصاح التمساح قائلا « ساعدنى »
فقال الولد « ولكنك سوف تقتلنى »
فقال التمساح .. لن أقتلك . أقترب منى .

فسار الولد نحو التمساح ـ وعلى الفور أمسكت به الاسنان فى ذلك الفم الطويل .

فصاح الولد : « أهكذا ترد على مروءتى بالشر ؟ »
فقال التمساح من زاوية فمه « بالطبع . فهذه هى سنة الحياة »
رفض الولد تصديق هذا المبدأ . ولذلك فقد وافق التمساح على عدم ابتلاعه الا بعد الحصول على آراء الثلاثة الاوائل الذين يمرون بجوارهما . وكان اول المارين حمارا عجوزا .

وعندما أستفسر الولد من الحمار عن رأيه فى هذا المبدأ قال الحمار « الآن وقد أصبحت عجوزا لا أقوى على العمل فقد طردنى صاحبى لكى تأكلنى النمور » .

فقال التمساح : « أرأيت وفهمت ؟ »

ثم مر بعد ذلك حصان عجوز وكان له نفس الرأى فقال التمساح « أرأيت وفهمت » وبعدئذ جاء أرنب ممتلىء وقال ( حسنا ؟ اننى لا أستطيع أن ابدى رأيا سليما دون أن ارى على وجه الدقة ما حدث منذ البداية )

وهنا زمجر التمساح فاتحا فمه ليقص ماحدث ـ فقفز الولد الى الشاطىء سالما ٠

فتساءل الأرنب « أتحب لحم التمساح ؟ » فرد الولد : « نعم » فتساءل الارنب مرة أخرى « وهل يحب والدك لحم التمساح ؟ » فأجاب الولد بنعم مرة أخرى٠ فقال الارنب : اذن فهناك تمساح جاهز لملء الاوعية بلحمه ٠٠

فانطلق الـولد وعاد مع رجال القـرية الذين سـاعدوه على قتل التمساح ٠ الا انهم أحضروا معهم كلبا من نوع الوولو فطارد الارنب وامسك به وقتله أيضا ٠

وقالت نيوبوتو « اذن التمساح كان على حق ٠ فالخير كثيرا مايرد عليه بالشر ٠ وهذه سنة الحياة ٠ وهذا هو ما أقوله لكم فى شكل قصة »



# ٤

وفى وقت متأخر من احدى الليالى بدأت الامطار الكبيرة وتساقطت فى الليالى الثلاث التالية مما غمر الاراضى المنخفضة القريبة من النهر بالمياه واحال حقول الاهالى الى مستنقعات وحول قريتهم الى بقعة مليئة بالطين ٠ ومع ذلك ففى صباح كل يوم كان القرويون يشقون طريقهم بصعوبة فى الطين للذهاب الى مسجد جوفيور الصغير ويتضرعون الى الله تعالى لارسال المزيد من الامطار حتى تتغلغل المياه بعمق فى الارض قبل حلول الشـموس الحارة التى تطيح بالمحاصـيل التى لا تجد جذورها كميات وفيرة من الماء ٠

وفي كوخ الاطفال الخافت الاضاءة والتدفئة الضئيلة راحت نيوبوتو العجوز تقص على كونتا والاطفال الآخرين الاوقات العصيبة التى تذكرها عندما لم تكن هناك كميات وفيرة من الامطار . اذ قصت عليهم انه بعد مجيء بداية الامطار الكبيرة جاءت الشموس المحرقة . رغم أن الناس ابتهلوا الى الله ورقصوا رقصات الجدود الخاصة بجلب الامطار ونحروا ماعزتين وثورا قربانا لله تعالى الا أن كل نبات نام فى الارض اخذ في الجفاف ، وتزايد عدد المرضى من الناس . وتم تقديم آخر معزة واخر ثور قربانا ولكن بدا الامر كأن الله قد تخلى عن جوفيور . واستلقى الناس فى أكواخهم من الاعياء والمرض . وعندئذ أرشد الله خطى الشيخ المرابط كيرابا كونتا كينتا نحو قرية جوفيور المشرفة على الموت جوعا . وعندما رأى محنة الاهالى ركع وصلى لله تعالى ليل نهار بدون نوم تقريبا مع الحصول على رشفات قليلة من الماء كغذاء له على مدى الخمسة أيام التالية وفى مساء اليوم الخامس جاء مطر عظيم مثل الفيضان وانقذ قرية جوفيور من الهلاك .

وعندما انتهت من سرد قصتها نظر الاطفال الآخرون فى احترام متجدد لكونتا الذى تسمى باسم ذلك الجد المشهور زوج ياسا جدة كونتا .

ورغم كثرة الامطار وتفجر النباتات والاشجار بالخضرة وعبيق الازهار الا أن المرض كان ينتشر بسرعة بين اهالى جوفيور لأن جميع المحاصيل التى نمت لم يكن من بينها محصول واحد ناضج بالقدر الذى يسمح بتناوله كطعام قد راح الناس يأكلون الحيوانات القارضة والجذور والاوراق التى يجدونها أثناء عمليات البحث المستمرة التى تبدأ مع شروق الشمس وتنتهى مع غروبها .

وكانت المحرمات القبلية تمنع المندينكيين من أكل القرود ، كما تمنعهم من أكل ملايين الضفادع الكبيرة الخضراء التى يعتبرونها سامة ، ونظرا لأن المندينكيين مسلمون ملتزمون بالتعاليم الاسلامية فانهم كانوا يفضلون الموت جوعا على ان يأكلوا لحم الخنزير البرية التى كثيرا ما كانت تجىء الى مشارف جوفيور بحثا عن الطعام .



## ٥

وتزايدت الحالات المرضية بين العجائز والشباب والاطفال مع ظهور قرح جلدية على أجسادهم • وذات يوم تعثر كونتا ووقع على الارض فاصيب بجرح كبير فى جبهته فنقل الى كوخ جدته نظرا لأن والديه كانا يعملان فى الحقل • ورغم اعيائها الشديد فقد سارعت الى علاج جرحة وبعدئذ لوحت بيدها نحو كومة كتب على الرف بجوار سريرها • واخذت تحيط كونتا بمزيد من المعلومات عن جده صاحب تلك الكتب •

فقالت أن كيرابا كونتا كنيتا قد حصل وهو فى موطنه الاصلى موريتانيا على العهد من شيخ مرابط فاصبح بذلك رجلا مقدسا وكان عمره فى ذلك الوقت ٣٥ مطرا ( سنة ) • وطلب من المرابط العجوز أن يقبله عنده كتلميذ له ورافقه فى أسفاره لمدة طويلة فى اراض وعرة فى جنوب موريتانيا ، وبعد حصول كيرابا كونتا كنيتا على درجة القدسية الدينية أتاح لنفسه فرصة التجول وحيدا على مدى اقمار عديدة ( شهور عديدة ) فى أماكن تقع فى أرجاء مالى القديمة • وبعد ذلك أرشد الله خطوات الرجل المقدس الشاب الى اتجاه جنوبى حتى وصل اخيرا الى جامبيا حيث توقف فى بادىء الامر فى قرية باكالى ندبنج • وفى فترة قصيرة أدرك أهالى تلك القرية ان ذلك الرجل الشاب المقدس مؤيد بتوفيق من الله • فدقت الطبول معلنة عن بركاته وسرعان ما حاولت قرى اخرى أن تغريه بالمجىء اليها عن طريق الهدايا ولكنه انتقل الى قرية تسمى جيفارونج بدافع فقط من ارادة الله لان اهالى جيفارونج لم يكن لديهم مايقدمونه له غير شكرهم له على صلواته • وأثناء وجوده فى جيفارونج سمع عن أحوال قرية جوفيور حيث كان أهلها يعانون من المرض يموتون بسبب انعدام الامطار الكبيرة • وهكذا جاء الى جوفيور حيث راح يصلى على مدى خمسة أيام بدون توقف الى أن أرسل الله الامطار الكبيرة التى أنقذت القرية •

وعندما علم ملك بارا الذى كان يحكم ذلك الجـزء من جامبيا بالاعمال العظيمة التى قام بها جد كونتا أهداه بنفسه عذراء ممتازة تسمى سيرنج لتكون الزوجة الاولى له · فأنجب منها ولدين هما : جانيه وسالوم · وبعد ذلك تزوج ياسا وأنجب منها أمورو ·

## ٦

وأنجبت بنتا مولودها الثانى ، واتخذ أمورو نفس المراسم فى التسمية وسمى المولود الجديد « لامين » · وبعد مرور أيام قليلة سمع كونتا فجأة أثناء لعبه مع زملائه صراخ صوت مألوف آت من اتجاه كوخ جدته · فسرت قشعريرة فى بدنه لان الصوت كان صوت أمه منطلقا فى ولولة الموت التى سمعها مرارا من قبل فى الاسابيع الاخيرة · وعلى الفور انضمت نساء اخريات فى صراخ حاد· فجرى كونتا نحو كوخ جدته · ورأى وسط الفوضى والتجمهر دلائل المكروب فى لوعة ، وشاهد نيوبوتو العجوز وهى تبكى بكاء مرا · وبعد لحظات قرع الطبال الطبول وأخذ الجاليبا ( المنادى ) يصيح بصوت مرتفع معددا المآثر الحسنة التى قامت بها الجدة ياسا طوال حياتها المديدة فى جوفيور · وسرعان ما جاء رجال ومعهم قرمة خشبية مقطوعة حديثا ووضعوها أمام الكوخ ثم رأى كونتا النساء وهن يخرجن جسد جدته لوضـعه فوق الوجه المسطح من القرمة · ورأى كونتا من خلال دموعه الندابات والنائحات وهن يدرن سبع لفات حول جسد ياسا مع الانشاد والصلوات بينما كان امام القرية يصيح قائلا انها على سفر لتبقى للابد بجوار الله ومع أسلافها ·

وفى جو الصباح المغطى بالضباب سار موكب من الرجال فقط الى مكان الدفن القريب من القرية · وانزل الجسد المتصلب الملفوف فى قماش أبيض الى الحفرة ثم وضعوا عليها حصيرة سميكة منسوجة من عيدان الخيزران ووضعوا بعد ذلك شجيرات شوكية لمنع الضباع من الحفر فى المكان وملأوا باقى فراغات الحفرة بالحجارة والتراب الجديد ·

وأحس كونتا بحزن هائل فاضطر أمورو الى اصطحابه معه فى احدى الامسيات الى كوخه وتحدث معه فى شيء من الرقة والحنان وقال له أشياء ساعدت على التخفيف من حدة أحزانه ٠ اذ قال أن هناك ثلاث مجموعات من الناس تعيش فى كل قرية : المجموعة الاولى هى تلك التى يمكنك أن تراها تسير وتأكل وتنام وتعمل ٠ أما المجموعة الثانية فهم الاجداد والاسلاف الذين لحقت بهم توا الجدة ياسا ٠ فتساءل كونتا « ومن هم المجموعة الثالثة من الناس ؟ » ورد أمورو « هم أولئك الذين ينتظرون ولادتهم » ٠

# ٧

وانتهى موسم الامطار ومع تزايد توافر الطعام انسابت حياة جديدة فى جوفيور ٠ اذ بدأ الرجال يمشون بمزيد من السرعة والرشاقة الى مزارعهم والعودة منها وهم يتفقدون فى فخر محاصيلهم الوفيرة التى سرعان ما ستصبح معدة للحصاد ٠ ودوت القرية مرة أخرى بضحكات الاطفال ، وهم يلعبون عقب موسم الجوع الطويل ٠ فكان كونتا وصديقه ستيفا سيلا الذى يسكن فى الكوخ المجاور لكوخ بنتا يقومان بالاغارة على الربوة الترابية وينقبان عن النمل الابيض الاعمى الذى يعيش فى داخل التـراب ٠٠ ويرقبـان النمل وهو يتوافد خارجا من التراب بالآلاف ٠٠ ثم ينطلقان مهرولين وهما فى قمة الاثارة الجنونية ٠ أما أحب الامور لجميع الاولاد فهى الصياح والقاء الحجارة على أسراب القرود الصغيرة حيث تبادر بعض هذه القرود بالرد فتلقى بالحجارة على الاولاد ٠

ولكن الاطفال كانوا يبدون احتراما شديدا لكل من هو أكبر منهم سنا وفقا لما تعلموه من أمهاتهم ٠ اذ كان الاطفال يسألون الكبار فى جرأة « كيرابية ؟ ( ألديكم السلام ؟ ) فيرد الكبار عليهم « كيرا دوورونج ( السلام فقط ) ٠ وكان تدريب كونتا فى المنزل غاية فى القسوة حيث كانت والدته تصفعه على رأسه كلما أخطأ فى أمر من الامور ٠ وكانت تؤكد عليه دائما أن الوقار وضبط النفس هما أشرف الصفات التى تتميز بها قبيلة ماندينكا ٠

ومع ذلك فقد كان كونتا يضرب كل ليلة تقريبا بسبب قيامه بالسير على يديه ورجليه مثل قرد الببوان لتخويف أخيه • وعندما لايرتدع كونتا كانت بنتا تخيفه بقولها «سوف أحضر لك التوبوب»

# ٨

كان أهالى جوفيور يعتقدون أن احتجاب القمر الجـــديد وراء السحب يعنى أن الارواح السماوية غير راضية عنهم الامر الذى كان يصيبهم بالهلع والفزع وعندئذ كان الطبال يذهب الى « شجرة اليوباب » الخاصة بالقرية ومعه أهالى القرية ويقوم بالدق فى عنف على طبلته بعصيه المعقوفة موجها رسالة لاقرب سحار للحضور الى جوفيور لطرد الارواح الشريرة منها •

وقد شاهد كونتا هذه الاجراءات فى احدى المرات التى احتجب فيها القمر الجديد وراء السحب وما أن وجهت الرسالة على الطبول حتى ظهر فى صباح اليوم التالى السحار العجوز وتجمع القرويون حوله عند شجرة البوباب وأخرج السحار من حقيبته كومة من الاشياء المجففة : ثعبانا صغيرا وعظام فك أحد الضباع واسنان قرد وعظام جناح بجعة واقدام دجاج وجذور نباتات غريبة • ثم اشـــار بيده للجمهور أن يبتعدوا قليلا عنه فتحرك الناس للوراء وبدأ الرجل يرتعش وكان من الواضح أن أرواح جوفيور الشريرة قد هاجمته •

وبينما كان جسد الساحر يتلوى ألما كانت يداه المرتعشـــتان تكافحان لارغام عصاه على الاتصال بكومة تلك الاشياء الغامضة • وأخيرا عندما لمست عصاه تلك الاشياء وقع الرجل على ظهره كأن البرق قد صعقه •• وشهق الناس ولكن الحياة بدأت تدب فى الرجل مرة أخرى • لقد تم طرد الارواح الشريرة • وبينما كان الساحر يقاوم للتغلب على ضعفه انطلق شباب جوفيور الى اكواخهم وعادوا بالهدايا وتوسلوا للسحار أن يقبلها • فأضافها الساحر الى زكيبته

التى أصبحت ممتلئة ومثقلة بالهدايا الاخرى التى أخذها من قرى سابقة • ثم انطلق فى طريقه ليلبى الاستغاثات التالية من القرى المجاورة ••

» لان الجدات المسنات كثيرا ما تحدثن عن الرجال البيض الكثيرى الشعر أصحاب الوجوه الحمراء الغريبة الشكل ، والذين لهم مراكب ضخمة تسرق الناس وتأخذهم بعيدا عن منازلهم وأوطانهم ••

# ٩

انقضى اثنا عشر قمـرا • قبل حلول موعـد الحصـاد بقليل تم تكليف كونتا ورفاقه بحراسة المحاصـيل فى الحقول من القردة والطيور والعصافير الجائعة •• وبعد انقضاء ستة أيام بدأ موسم الحصاد • ووقف الفلاحون فى الحقول فى انتظار سماع صـوت الطبلة الكبيرة التى يدق عليها طبال القرية • وما ان سمعوا صوتها حتى قفزوا الى الحقول لحصد المحاصيل • وبدأوا الحصـاد على ايقاعات الطبول الاخرى الصغيرة وأخذوا جميعا يتغنون وينشدون • وتصبب العرق من زملاء كونتا وهم يعملون الى جوار آبائهم اذ كانوا يقومون بتنظيف شجيرات الفول السودانى من التراب العالق بها • وجاءت الاستراحة الاولى من العمل فى منتصف الفترة الصباحية ، وفى الظهيرة صدرت صيحات السعادة عندما وصلت الفتيات والنساء ومعهن طعام الغداء ••

وفى نهاية ذلك اليوم ظهرت أكوام المحاصيل منتشرة هنا وهناك فى الحقول ، وسـار الفلاحون فى أعيـاد وهم يقطرون عرقا وطينا الى أقرب جدول ماء حيث خلعوا ملابسـهم وقفزوا الى الماء وهم يتضاحكون • ثم توجهوا الى منازلهم وكلما اقتربوا من الدخان المتطـاير نحوهم قادما من مطابخ النسـاء ، ازداد شوقهم للحوم المحمرة التى ستقدم لهم ثلاث مرات يوميا طوال فترة الحصاد •

وبعد أن تناول كونتا كميات من الطعام تفوق طاقته فى تلك الليلة ، بدا له أن أمه تحيك شـيئا ما • ولم يسألها • ولكنه عندما كان يسير خارجا فى صباح اليوم التالى ومعه معزقته نظرت اليه وقالت له فى غلظة :

ـ لماذا لا ترتدى ملابسك ؟

ونظر كونتا حوله فى دهشة بالغـة وهناك رأى « دونديكو » أى جلبابا جديدا تماما معلقا على شماعة • وبذل مجهودا كبيرا لاخفاء مشاعر الاثارة فى داخله وارتدى الجلباب فى غير انفعال ثم سار الهوينى خارجا من الباب وما أن خرج منه حتى انطلق بأقصى سرعة فوجد بقية رفاقه بالخـارج وقد ارتدوا جميعـا ثيابا مثله لأول مرة فى حياتهم وكانوا جميعا يقفزون ويضحكون لان أجسادهم العارية قد تغطت أخيرا • لقد أصبحوا الآن ينتمون رسميا للمرحلة الثانية من العمر • وهذا معناه أنهم فى الطريق لان يصبحوا رجالا •

## ١٠

وذات يوم قال أمورو لابنه كونتا :

ـ هذا المقلاع ملك لك كشخص ينتمى للمرحلة الثانية من العمر • ويجب أن تصيب الهدف الذى تصوب نحوه ••

فقال كونتا :

ـ نعم يا والدى ••

وظل صامتا فاستطرد أمورو

ـ وبما أنك الآن فى المرحلة الثانية من العمر فهذا يعنى أنك ستبدأ فى رعى الاغنـام والذهاب الى المدرسة • وسـيقوم « تومانى توراى » بتدريبك على الرعى •

وأثناء التدريب وجه توماني سؤالا لكونتا « أتعرف قيمة الماعزة الواحدة ؟ »

وقبل أن يجيب كونتا قال توماني :

ـ حسنا ! اذا فقدت واحدة فان والدك سيجعلك تعرف قيمتها .. وأنه اذا شردت معزة واحدة ستترتب على ذلك أمور رهيبة لا نهاية لها .

ثم أشار بيده نحو الغابة القريبة موضحا بأنها مليئة بالاسود والفهود السوداء التي تستطيع تمزيق أي ماعزة بل وتمزيقه هو أيضا في لمح البصر . واستطرد توماني ..

ـ بل ان هناك ما هو أشد خطرا من الاسود والضباع .. ألا وهم التوبوب ومساعدوهم السود الخونة الذين يزحفون بين العشب الطويل لاصطياد الناس والانصراف بهم الى مكان بعيد حيث يتم أكل لحومهم ..

وفي منتصف ما بعد الظهر بدأ كل من كونتا وأترابه في جمع الاخشاب الخفيفة اللازمة لوقود القرية ليلا ووضع كل منهم حمل الاخشاب فوق رأسه واتجهوا عائدين الى القرية وراء الماعز وكلاب الوولو التي كانت تعرف الممرات المؤدية للقرية بشكل أفضل من رعاتها الجدد .

وفي صباح اليوم التالي ذهب كونتا وزملاؤه الى « بريما سيساي » عريف القرية وقال لهم العريف « أنكم لم تعودوا أطفالا وعليكم من الآن مسئوليات ينبغي الاضطلاع بها ، وأوضح لهم أن الدروس ستكون على مرحلتين : الاولى عقب تناول الافطار والثانية عقب عودتهم مع الماعز مباشرة . وبدأ معهم الحصة الاولى بتلاوة آيات من القرآن الكريم وطلب منهم أن يحفظوها عن ظهر قلب .

## ١١

وبعد أن تم حصاد الفول السوداني والكسكسي بمعرفة الرجال وحصاد الارز بمعرفة النساء .. بدأ كل شخص يتطلع لاحتفالات موسم الحصاد السنوية في جوفيور . والتي تستمر سبعة أيام .

فسارعت النســاء الى صنع الملابس الجديدة لعائلاتهن وأخذ الرجال يعملون في ترميم سور القرية الطويل المصـنوع من عيدان الخيزران وترميم الاكواخ الطينية التى دمرتها الامطار وتشييد أكواخ جديدة لحالات الزواج الجديدة • كما كانت الجدات المسنات مشغولات فى تجهيز مطالب فتيات القرية غير المتزوجات من زينات الشعر لكى ترتديها فى احتفالات الحصـاد • وأخذ الموسيقيون بالقرية يتمرنون على العزف على آلات الكورا والطبول وآلات البلافون الخاصة بهم • وقد لاحظ كونتا أن أفواه بعض الفتيات متضخمة بحيث تصل الى حجم قبضة اليد بينما الشفاه الداخلية قد شكت بالاشواك ودعكت بالهباب الاسود • بل ولاحظ أن بنتا ـ وغيرها من نساء القرية ـ كانت تغلى بالليـل أوراق فودانو مطحونة حديثا فى الماء وتترك الماء حتى يبرد ثم تنقع قدميهـا فيه كما تنقـع راحتى يديها لكى تتخذ هذه الاطراف لونا شـديد السـواد كالحبر • وعنـدما سأل كونتـا والدته عن السبب فى ذلك طلبت منه الانصراف بعيدا ، وعندما سأل والده قال له « كلما ازداد سواد المرأة كانت أكثر جمالا » ••

فتساءل كونتا : ولكن لماذا ؟ ••

ورد أمورو : سوف تفهم السبب فى ذلك يوما ما •

# ١٢

وعند الفجر بدأت الاحتفالات بقرع الطبول عند شجرة الكابوك وبدأ القرويون يتجمعون الواحـد تلو الآخر ويستجيبون بحركات بطيئة من أذرعهم وسيقانهم وأجسادهم ثم فى حركات أسرع وأسرع الى أن انضم كل شخص تقريبا الى الرقص • وكانوا يرتدون أقنعة على وجوههم ، واسـتطاع كونتـا التعرف على امام القرية وهو يلقى بنفسه ويدور مرات عديدة كالثعبان كما وقع بصره على والده أمورو وهو يدق الارض بقدميه مثيرا التراب من حوله ويطرق بشدة على صدره ويقفز ويتلوى فى الهواء • واشـترك كونتا ورفاقه فى الرقص • واستمر القرويون جميعا فى الرقص طوال اليوم بدون أى توقف

وفي كل صباح كانت القرية تنام وتصحو على أصوات الطبول ، وفي كل يوم كان يجيء موسـيقيون متجولون ليعزفوا للناس ويحصلوا منهم على الهـدايا • كما كان يجيء المداحون ورواة القصص حيث كان يلتف حولهم القرويون في صمت ليستمعوا الى قصص الملوك القدامى والمحاربين والمعارك الكبرى وأساطير الماضى • وشهد اليوم السادس من الاحتفالات مباراة في المصارعة بين فريق جوفيور وفريق آخر من قرية مجاورة • وتلاحم المصارعون وسط سحب التراب وتدافعت أقدامهم لاعلى حتى كادت أن تخفيهم عن أعين الجماهير الصارخة في وحشـية • وانتهت المباراة وكسب فريق جوفيور فحصل على جوائز عبارة عن قرون وحوافر ثور • ثم وضعت قطع كبيرة من اللحم لتشوى فوق النار ودعى الخصوم الشجعان الى الوليمة • وأثناء الوليمة قام أبناء جوفيور بتنظيف أرضية المصارعة من التراب الاحمر لكي تشهد احتفالات الخطبة • وماكادت الشمس الساخنة تهبط وراء الافق حتى تجمع الاهالى مرة ثانية حول منطقة المصارعة وقد ارتدوا في هذه المرة أجمل الثياب • وبدأت العذراوات في الرقص على ايقاعات الطبول المدوية • وأخيرا بدأت الفتيات في الخروج من حلبة الرقص الواحدة تلو الاخرى مع القاء غطاء الرأس المصبوغ بألوان زاهية على الارض • وأخذت العيون ترقب في اهتمام لترى ما اذا كان أحد الراغبين في الزواج سيلتقط غطاء الرأس هذا أو ذاك لان ذلك معناه أنه ينوي استشارة والدها بشأن الزواج منها • وبعد لحظات قليلة شهق الجميع عندما قام أحد المصارعين بالتقاط تيكو ( أى غطاء للرأس ) وكان ذلك بمثابة حدث كبير وحـدث سعيد أيضا • الا أن العذراء سـعيدة الحظ لم تكن أول واحدة تفقدها القرية بسبب زواجها وانتقالها الى قرية أخرى •



## ١٣

وفي الصباح الاخير من احتفالات اسـتيقظ كونتـا على أصـوات صراخ وصـياح فارتدى جلبابه وانطلق مسرعا الى الخارج وقد تقلصت معدته من الخوف • وأمام الاكواخ القريبة كان يوجد ستة

رجال مرتدين أقنعة مرعبة وزيا موحدا مصنوعا من لحاء وأوراق الاشجار وكانوا يقفزون صعودا وهبوطا ويصرخون صرخات مدوية ويلوحون مهددين بالرماح • وشاهد كونتا واحدا من هؤلاء الرجال وهو يدخل فى كل كوخ ويخرج منه منتزعا ولدا مرتعدا فى الفئة الثالثة من العمر • وكان رأس كل ولد مغطى بقلنسوة من القطن الابيض • وبعد أن تم جمع كل أولاد القرية من المرحلة الثالثة فى العمر جرى تسليمهم الى عبيد • فأخذهم العبيد من أيديهم واقتادوهم الواحد تلو الآخر الى خارج بوابة القرية • وكان كونتا قد سمع أن هؤلاء الاولاد الكبار سيؤخذون بعيدا عن جوفيور من أجـل تدريبهم على الرجولة لمدة اثنى عشر قمرا ( شهرا ) كاملة ••

وازدادت خبرة كونتا ورفاقه فى شئون رعى الاغنام كما أصبحوا قناصة ممتازين فى استخدام المقاطع والاقواس والاسـهم والحراب • وكانوا يقضون ساعة يوميا فى صيد أى كائن صغير يعثرون عليه : أرانب برية وسنجاب برى وفئران وسحالى وطيور •

وكان كونتا يرتاح كثيرا عندما ينفرد بنفسه ويتخيل نفسه وهو يقوم بأعمال بطولية • وذات يوم تخيل نفسه وهو يقوم باصطياد ثور برى جامح مجنون عجز جميع الناس عن اصطياده • وعندما نجح فى اصطياده أخذ الاهالى يهللون « كينتا البطل » وصاح الاولاد « كينتا البطل » وهم يلوحون بالاغصان ثم جاءت أقوى وأرشق وأجمل عذراء فى جوفيور بل وفى جامبيا كلها تتهادى نحوه وتقدم له قرعة جافة مليئـة بالماء البـارد وتذرف الدموع معبرة عن حبهـا الشديد له • ثم راح الاهالى يتغنون وينشدون وحتى الكلاب راحت تعبر عن ابتهاجها بالنباح •

أكان ذلك كلبه الوولو الذى ينبح ؟ أكان ذلك صديقه سيتافا الذى يصرخ فى هياج جنونى ؟ وصحا كونتا من غفلته ليرى ماعزه التى غفل عنها متوجهة نحو مزرعة أحد الاهالى وشاهد سيتافا وباقى زملائه وهم يلمون شمل ماعزه بمساعدة كلابهم الوولو قبل أن يحدث أى تلف للمزروعات • وشعر كونتا بالخجل من نفسـه كثيرا حتى أنه قد انقضى شهر بأكمله قبل أن ينساق مرة أخرى وراء أحلام اليقظة •

# ١٤

وكانت الشهور الخمسة الطويلة لموسم الجفاف قد بدأت توا وأصبحت حرارة الجو فى نفس حرارة الشمس ٠ وتلألأت شياطين الحرارة فجعلت الاشياء تبدو من بعيد أكبر حجما وكان الناس يتصببون عرقا وهم مازالوا في داخل أكواخهم ٠ وقبل أن يغادر كونتا منزله في كل صباح لرعي الماعز كانت بنتا تتأكد من أنه قد حمى أقدامه جيـــــدا بزيت النخيل الاحمر ٠ وكان بعض الاولاد يعودون الى منازلهم باقدام دامية الا أنهم كانوا يخرجون مرة أخرى كل صباح ـ بدون شكوى مثل آبائهم ـ الى الحرارة المتوحشة فى أراضى الرعي الجافة ٠ ومع ذلك فقد كان الجو شديد البرودة ليلا ٠ فكان أهالي جوفيور يتجمعون عقب تناول العشاء حول حلقات النيران ٠٠ فالرجال فى سن أمورو ٠٠ كانوا يجلسون حول احدى النيران يتحدثون ٠ وعلى مسافة قصيرة كانت توجد النيران الخاصة بالكبار ٠٠ أما النساء والعذراوات ٠٠ فكن يجلسن حول نار أخرى بعيدات عن الجدات المسنات اللائى كن يسردن قصصهن الليلية على الاطفال الصغار حول النيران ٠٠

وفجأة ذات يوم أصبح أستنشاق الهواء شبيها باستنشاق اللهيب وفي تلك الليلة كان الناس يرتعشون تحت بطاطينهم ٠ وبعد ظهر اليوم التالى بدأت رياح الهارماتان وكانت متربة وجافة واستمرت ليل نهار على مدى نصف شهر ٠ وقد أدى هبوب رياح الهارماتان المستمر الى اتلاف أعصـــاب الاهالى فى جوفيــور ٠٠ وسرعان ما راح الآباء والامهات يصرخون فى أطفالهم ويجلدونهم لاتفه الاسباب ٠ كما أخذ الازواج يتشاجرون مع زوجاتهم ٠ وبعد حوالى شهرين توقفت رياح الهارماتان فجأة مثلما بدأت فجأة ٠ وقد بدا لكونتا أن أهاليه كانوا دائما يكابدون من مشقة أو أخرى ٠ وفكر فىالايام الحارقة وفي الليالى الباردة وفى الامطار التي تجيء محولة القرية الى حفرة طينية مع اغراق طرق وممرات السير بالمياه الى أن يضطر الناس الى الانتقال من مكان لآخر بالقوارب٠ وقد كانوا يحتاجون للامطار بقد احتياجاتهم للشمس الا انها كانت تجيء على مايبـــدو بكميـــات أكثر او اقل من المطلوب ٠

وبدأ موسم الجفاف مرة أخرى وأخذ الامام يصلى بالناس ويتضرع لله لكى يرسل لهم الامطار • وبعد ذلك ماجت جوفيور ذات يوم بالاثارة والبهجة عندما حرك بعض النسيم الخفيف التراب — لأن ذلك يعني أن الامطار على وشك الهطول • وفى صباح اليوم التالى تجمع أهالى القرية فى الحقول وأشعلوا النيران فى أكوام الاخشاب فتصاعد الدخان ملتويا ومتكورا فوق الحقول وبدأت رياح اليوم التالى تغربل الرماد فوق الحقول لاخصاب التربة • وبدأ الفلاحون يضربون الارض بفئوسهم فى انهماك شديد لاعداد الخطوط الطويلة لاستقبال البذور — فى هذه المرة السابعة من بذر البذور التى شهدها كونتا ضمن دورة لانهائية من مواسم الغراس •

# ١٥

وانقضى مطران « عامان » وأصبح بطن بنتا كبيرا مرة أخرى كما اصبحت سريعة الغضب والانفعال عن ذى قبل • فكانت تبادر الى ضرب « لامين » على أى خطأ يرتكبه • فشعر كونتا بالعطف على أخيه وبدأ يصطحبه معه للنزهة خارج الكوخ في أوقات فراغه • وفى كل مرة كان كونتا يصطحب فيها أخاه ويسيران فى احد الاماكن بمفردهما كان يشعر انه يأخذ لامين فى رحلة مثلما يفعل الرجال مع أبنائهم • وكان لامين يسير بجوار كونتا ويمطره بوابل من الأسئلة المتلاحقة •

« ماهو شكل العالم ؟ »

ورد كونتا :

— حسنا ! لم يحدث أبدا أن سافر رجل او زورق الى مسافات بعيدة للغاية • ولاأحديعرف كل ما يجب أن يعرف عن العالم

● وما الذى تتعلمه من العريف ؟ •• فتلا كونتا الآيات الاولى من القرآن الكريم باللغة العربية ثم قال :

— والآن حاول أن تحفظها •• ولكن لامين وقع فى ارتباك شديد وخلط بين الآيات • فقال له كونتا فى حنان أبوى :

— ان الحفظ يستغرق بعض الوقت »

وعادل يسأل :

● وما السبب فى أن أحدا لا يؤذى البومة ؟ ..

ورد عليه قائلا :

ـ لأن جميع أرواح أجدادنا السالفين الموتى موجودةفى البومات..

وسأل من جديد :

● وما هو ذلك الطائر الموجود على الشجرة ؟ ..

ورد عليه قائلا :

ـ صقر ..

● وماذا يأكل ؟

ـ فئران وطيور وأشياء أخرى .

ولم يكن كونتا يعرف مطلقا كمية المعلومات التى لديه ولكن لامين أحيانا كان يتساءل عن أمور لا يعرفها كونتا مثل : « هل الشمس مشتعلة بالنيران ؟ » أو « لماذا لا ينام والدنا معنا ؟ » وفى مثل هذه المرات كان كونتا يزمجر ويتوقف عن الكلام . ثم يتحين الفرصة بعد ذلك ليسأل والده أو والدته عن الاجابة على تلك الاسئلة .

وقد سأل كونتا والدته ذات يوم :

● ما السبب فى أن المفرش الخاص بوالدى والمصنوع من جلد الثور له لون أحمر رغم أن الثور ليس أحمر اللون ؟ ..

فرد بنتا :

ـ لقدصبغت جلد الثور بمحلول قلوى مضافا اليه مسحوق الذرة العويجة ..

وتساءل كونتا مرة أخرى :

● أين يعيش الله ؟..

فرد أمورو :

● الله يعيش فى المكان الذى تجىء منه الشمس ..

# ١٦

وسأل لامين كونتا بعد ظهر أحد الأيام :

ـ ما العبيد ؟

فزمجر كونتا ولاذ بالصمت • وفى اليوم التالى عندما كان أمورو يستعد للخروج للحصول على بعض أخشاب النخيل طلب كونتا من والده اصطحابه معه • وبعد أن وصلا الى غابة النخيل الصغيرة الباردة المظلمة تساءل كونتا فجأة « ما العبيد ؟ »

فرد أمورو بعد مرور فترة طويلة :

● ليس من السهل على من ليسوا عبيدا أن يتحدثوا عن شئون العبيد •

ثم استطرد أمورو فى تجهم شديد

ولكن ينبغى على المرء ألا يتحدث مطلقا عن العبيد فى حضور العبيد •

وبعد قليل تساءل كونتا :

● وما السبب فى أن بعض الناس عبيد بينما البعض الآخر ليسوا كذلك ؟

فقال أمورو أن الناس يصيرون عبيدا بطرق مختلفة : فبعضهم قد ولدوا من أمهات عبدات ، والبعض الآخر قد تعرضوا للموت جوعا فآثروا أن يصبحوا عبيدا عند أى شخص يوافق على اطعامهم وتسهيل سبل العيش لهم كما قال أن هناك آخرين وقعوا فى الأسر أثناء الحروب فتحولوا الى عبيد •

وتساءل كونتا :

ـ هل ينبغى على العبيد أن يصبحوا عبيدا دائما ؟ »

فقال له :

ـ لا •• فكثير من العبيد يشترون حريتهم بما يوفرونه من نصيبهم فى الزراعة • كما يحصل آخرون على حريتهم عن طريق الزواج من العائلة التى تمتلكهم • وذكر أمورو أسماء بعض العبيد الذين يعيشون فى جوفيور وعندما قال له أن الجدة نيوبوتو العجوز هى أيضا من العبيد أصيب كونتا بذهول شديد لأنها مشهورة بسلاطة اللسان •

وعقب ظهر اليوم التالى ذهب كونتا ومعه لامين الى نيوبوتو لزيارتها• وسألها فجأة فى غير تبصر :

ـ لماذا أنت من العبيد أيتها الجدة ؟••

فقالت : فى احدى الليالى ، وفى قريتى التى تبعد عن هنا مسافات بعيدة ومنذ سنوات عديدة •• عندما كنت امرأة شابة ، استيقظت فى رعب على صوت انهيار الاسقف الخشبية للأكواخ •• فسارعت الى

اختطاف طفليها الصغيرين اللذين مات أبوهما منــذ فترة قصيرة في حرب بين القبائل ، واندفعت خارجة من القرية مع الآخرين • وهناك بالخارج كان المغيرون البيض المسـلحون فى انتظارهم ومعهم خونة من السود • ودارت معركة شرسة وتمكن البعض من الهرب أما أولئـك الذين لم يتمكنوا من الهرب فقد تم تجميعهم كالقطيـع وقاموا بقتـل المصابين باصابات بالغة • وبدأت نيوبوتو تبكى وهى تقول •• ومن بين الذين قتلوا طفلاى الصـغيران وأمى •! وتم ربط الاسرى بشرائط جلدية وسيقوا عبر الاراضى الداخلية الحارة لأيام عديدة • ومر طابور الاسرى الطويل على قرى قد حرقت أو دمرت • ووصل الطـابور الى قرية جوفيور التى تقع على مسيرة أربعة أيام من أقرب مكان يقع على شاطىء نهر « كامبى بولونجو » •• ثم قالت المرأة العجوز :

ـ وفى نفس ذلك المكان تم بيعى فى مقابل حقيبة مليئة بالغلال ، وبعدئذ مات الرجل الذى اشترانى•• وقد عشت هنا منذ ذلك الحين•

وبعد أيام سار أمورو مع والديه الى مشارف القرية وراح يحدثهما عن التوبوب ويحذرهما من أخطاره •• انه دائما يطلق النار من بندقيته وتسمع الطلقات من مسـافات بعيدة • ونظرا لأن وقع أقدامه أثقـل بكثير من وقع أقدامنا فانه يترك آثارا ستعرفان أنها ليست خاصة بنا، فهو يكسر الاغصان ويتلف الاعشاب• وعندما تقتربان من المكان الذى كان يجلس فيه ستجدان أن رائحته ما زالت باقية وهى رائحة تشبه رائحة الدجاج المبتل بالماء » •• واستطرد أمورو « ولكن لا يكفى أن نعرف التوبوب لأن الكثير من رجالنا نحن السـود يعملون لحسابه • ولذلك عنـدما تكونان فى الاحراش لا تثقـا فى أى شـخص أسود لا تعرفانه » ثم أوضح لها أن التوبوب يسرقون الناس ويشحنونهم فى سفن كبيرة وتنطلق بهم السفن بعيدا • فتساءل لامين فى صوت رفيع حاد :

ـ والدى : الى أين تأخذ السفن الكبيرة الناس المسروقين ؟

فقال أمورو :

ـ ان الكبار يقولون انها تأخذهم الى جونج سـانج دو وهى أراض يتم فيها بيع العبيد الى أناس ضخام الاجســام من أكلة لحوم البشر يقال لهم توباجو كومى وهم أناس يأكلوننا ، ولا أحد يعـرف أكثر من ذلك ••



# ١٧

وبعد ظهر يوم هادىء حار تدفق فجأة حديث الطبول من أقرب قرية مجاورة . وعندئذ قام كونتا ولامين برفع رأسيهما فى عزم وتصميم لقراءة ما تقوله الطبول . وشهق لامين بصوت مرتفع عندما سمع اسم والده الا أنه لم يكن كبيرا بالقدر الذى يسمح له بفهم باقى حديث الطبول . ولذا فقد راح كونتا يهمس له بالانباء التى أوردتها الطبول: ان جانيه وسالوم قد قاما بانشاء قرية جديدة على مسيرة خمسة أيام فى الاتجاه الذى تشرق منه الشمس . وهما فى انتظار أخيهما أمورو لحضور احتفالات منح البركان للقرية لدى ظهور القمر الجديد بعد التالى .

وسرعان ما حل الوقت الذى ينبغى أن يسافر فيه أمورو . وعندئذ سيطرت على كونتا فكرة كبيرة : أهناك احتمال فى أن يأخذه والده معه ؟ ولم يخبر أحدا بما يدور فى رأسه . وعندما لاحت له الفرصة المناسبة انطلق مهرولا نحو والده ونظر فى توسل الى وجه أبيه المذهول . ولم يستطع كونتا ــ بعد أن ابتلع ريقه ــ أن يتذكر شيئا واحدا مما كان يريد قوله . فنظر أمورو الى ابنه للحظات طويلة ثم قال « لقد أخبرت والدتك توا .. وواصل مسيره .

ومرت لحظات قليلة قبل أن يدرك كونتا ماذا يعنى والده . وبعدئذ صاح قائلا « آييه Aieee » وانحنى على بطنه وقفز فى الهواء ثم قفل راجعا الى ماعزه بسرعة . ولكن بنتا راحت تعلن عن عدم موافقتها على سفر أمورو وكونتا عبر الادغال والاحراش بينما طبول القرى المختلفة تردد أنباء عن أناس جدد مفقودين .

وفى صباح اليوم التالى . أدى أمورو صلاة الفجر فى المسجد وقامت بنتا باعداد الصرة التى سيحملها أمورو على رأسه ثم راحت تحتضن كونتا وهى تبكى وترتعد . ثم قام كل من أمورو وكونتا بأخذ خطوتين فوق التراب خارج مدخل كوخه .. ثم توقفا واستدارا وانحنيا لأسفل وقاما بكشط التراب من فوق آثار أقدامهما الاولى على الارض . ثم وضعاه فى حقيبتى الصيد الخاصة بهما لكى يضمنا بذلك عودة آثار أقدامهما الى ذلك المكان .

وراقبت بنتا الموقف من فتحة باب كوخهـا وهي تبكي وتضم لامين بينما كان أمورو وكونتا ينطلقان بعيدا • وأثناء مرورهما عبر القرية •• كان الناس يتحدثون اليهما ويبتسمون لهما كما كان كونتا يلوح بيده لزملائه الذين خرجوا بالماعز في موعد متأخر عن المعتـــاد حتى يتمكنوا من توديعه • وكان يدرك أنهم يعرفون أنه لم يرد على تحياتهم المنطوقة بالكلام لأن التقاليد تحرم التحدث على المسافر لدى خروجه من قريته • وبعد أن وصلا الى شجرة المسافرين توقفا قليلا حيث قام أمورو باضافة شريطين رفيعين من القماش الى مئات الاشرطة الاخرى المتدلية من الاغصان المنخفضة والمهلهلة بفعل العـوامل الجوية حيث يمثل كل شريط منها ابتهال أحد المسافرين لله تعالى لكي يجعل رحلته آمنة ومباركة •

ولم يستطع كونتا أن يصدق أن وقائع المرحلة قد بدأت تحـدث بالفعل • فهذه هي أول مرة في حياته يقضي فيها الليل بعيدا عن كوخ والدته وأول مرة يبتعد فيها عن بوابات جوفيور • وبينما كان كونتا مستغرقا في أفكاره انعطف أمورو الى طريقـه دون أن ينطق بكلمـة واحدة ودون أن يلقى نظرة خلفه وبدأ السير بسرعة كبـيرة في المدق الموجود في أعماق الغابة فاضطر كونتـا للاسراع في السير للحاق به وهو يكاد يوقع الصرة الموجودة فوق رأسه •

# ١٨

وأثناء مرورهما هنا وهناك كانت الخنازير البرية تتدافع نحو الادغال القصيرة وكانت الأرانب تقفز للتخفي بعيداً • وبعد فترة قصيرة اقتربا من شجرة المسافرين التـابعة لقرية صغيرة • ولكن أمورو لم يحدثه عنهـا ولم ينظر خلفه مرة واحـــدة منذ أن غادرا جوفيور • وبدأ العرق يجري في عيني كونتا مما جعله يرمش ليوقف اللسع • وكانت الشمس قد عبرت نصف السماء فقط منذ بدء المسير الا أن ساقيه كانتا تؤلمانه بشـــدة وأخذت مشاعر الرعب تتملكه وعندئذ توقف أمورو فجـــأة عند جدول ماء صغير بجوار المدق • فأنزل كونتا الحمل من على رأســـه وانبطح على الأرض

ليشرب من الماء • فقال أمورو « ابتلع كمية قليلة ثم انتظر وابتلع كمية أخرى قليلة » • وما أن شرب الماء حتى راح في سبات عميق • وعندما استيقظ كونتا في فزع فجائي لم يستطع رؤية والده في أي مكان • فقفز واقفا بسرعة فرأى الصرة الكبيرة الخاصة بوالده تحت شجرة قريبة فأدرك أن والده موجود على مسافة غير بعيدة • وعندما انتهيا من تناول الطعام تحت ظـلال بعض الاشجار كانت الشمس قد قطعت ثلاثة أرباع المسافة عبر السماء • فأصبح الجو أقل حرارة وانطلقا على المدق مرة أخرى • وقال أمورو بعد أن قطعا مسافة كبيرة :

ـ على مسيرة يوم واحد من هذا المكان يحضر التوبوب سفنهم •• واننا الآن بالنهار مما يسمح لنا بالرؤية الواضحة ولكن يجب علينا تجنب الاعشاب والاحراش التى يمكن أن تخبىء وراءها المفاجآت ••

ولمست أصابع أمورو جراب سكينته وقوسه وسهامه وقال :

ـ يجب علينا أن نقضي الليل في احدى القرى •

وكان قرص الشمس البرتقالى يقترب من سـطح الارض عندما أبصر مورو وكونتا عمـودا من الدخان صادرا من قرية على مسـافة قصيرة • وعندما وصلا الى شجرة المسافرين أدركا أن هناك أمورا سيئة قد حدثت للقرية • اذ كان يتدلى من أغصان شجرة المسافرين عدد قليل جدا من شرائط الصلوات • وعندما دخلا القرية لم يجدا بها سوى العجائز والمرضى وبعض الاطفـــال الرضع • وقال أحد العجائز وهو يشير بيده لامورو ثم كونتا :

ـ في احدى الليالى قام النخاسون بسرقة أو قتل جميع أناسنا الصغار ابتداء ممن هم في سنك الى من هم في سنه ، واستغنوا عنا نحن العجائز فهربنا الى الغابة !

وقال الرجال المسنون :

انا سنتلاشى وننقرض بدون وجود أناسنا الصغار في السن

وأصغى اليهم أمورو باهتمام ثم قال أخيرا :

ـ ان قرية اخرى التى تقع على مسيرة أربعة أيام من هنا سترحب بكم ، يا أجدادى ••

الا أنهم جميعا بدأوا يهزون رؤوسهم ثم قال أكبرهم سنا « ان هذه هى قريتنا • ولا يوجد أي بئر أخرى لها نفس عذوبة مياه بئر قريتنا • ولا توجد ظلال أشجار أخرى لها نفس متعة ظلال أشجارنا ولا توجد مطابخ أخرى لها نفس روائح الاطعمة اللذيذة مثل مطابخ نسائنا » •

وفي تلك الليلة وبعد أن تناول وجبة بسيطة من الخبز الموجود

في حمليهما شاركهما فيها القرويون استلقى كونتا وأمورو على فروع الاشجار للنوم ٠ وراح كونتا يفكر . لنفرض أن قرية جوفيور هى التى تعرضت لهذا العدوان وأخيرا ابعد هذه الافكار عن ذهنه وبعد ذلك انجرف مع تيار النوم

## ١٩

وواصلا المسير فى صباح اليوم التالى ٠ وقبل أن تصبح الشمس عالية فى السماء شاهدا أمامهما شخصا يسير نحوهما فوق المدق على نحو يؤكد أنه يريد التحدث معهما ٠ وقال الرجل وهو يشير الى الاتجاه الذى جاء منه :

ـ ربما تشاهدان توبوبا ، ومعه أناس كثيرون يحملون له أمتعته٠

وقال الرجل :

ـ ان التوبوب قد شاهده واستوقفه الا أنه كان يطلب مساعدته على اكتشاف المكان الذى يبدأ منه النهر ٠ « فأخبرته أن النهر يبدأ على أقصى بعد من المكان الذى ينتهى عنده » ٠

فتساءل أمورو :

ـ ألم يهدف الى الحاق أى ضرر بك ؟٠

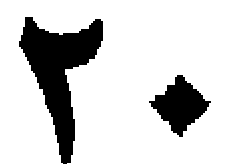
فقال الرجل العجوز :

ـ لقد كان يتصرف بطريقة ودية للغاية ٠ ولكن القطة تأكل دائما الفار الذى تلعب معه ٠٠ فقال آمور « تلك هى الحقيقة » ٠ وودع أمورو الرجل العجوز وانطلق سائرا كالمعتـــاد على المدق دون أن يلقى نظرة وراءه ٠

وعندما استدارا عند منعطف فى وقت متأخر من ذلك اليوم وقع نصرهما فجأة على عائلة من الاسود تتسكع فوق أراض عشبيه قريبه من المدقى فأبطأ أمورو فى خطواته وقال فى هدوء بدون أن يرفع عينيه عن الاسود : « الاسود لا تصطاد ولا تأكل فى هذا الوقت من النهـــار اللهم الا اذا كانت جائعة ٠ وهذه الاسود ممتلئـة كما ترى ٠ الا أنه وضع احدى يديه على قوسه واليد الاخرى على جعبة سهامه أثناء مرورهما بحوار الاسود ٠

ولاحظ كونتا فى ارتياح شديد لدى انطلاقهما فى المسير فى اليوم التالى أنهما قد خلفا وراءهما الأراضي المليئة بالأشواك والصبار وأصبحا يسيران على أراض عشبية تشبه كثيرا أراضى جوفيور وان كان بها مزيد من الاشجار والنباتات اليانعة بالزهور ومزيد من القرود والطيور البرية المتعددة الالوان على نحو لم يره فى حيــــاته من قبل • ونظرا لاقتراب حلول الليل فقد قرر أمورو دخول القرية التالية لقضاء الليل بها • وبينما كان كونتا يحشو بطنه بالفــول الســودانى المطبوخ مع الارز على نار هادئة ذهب أمورو الى طبال القرية واتفق معه على توجيه رسالة بالطبول الى أخويه ليخبرهما أنه سيصل مع غروب الشــمس فى اليوم التالى • وأحس كونتا بسعادة كبيرة عندما أدرك أن الطبالين سيدقون اسمه فى كل قرية على طول الطريق المؤدى الى قرية جانيــه وسالوم •

ومنذ أن تحدثت الطبول ، أخذا يشاهدان عند كل شجرة مسافرين ليس فقط الاطفال العراة ولكن أيضا بعض الكبار والعازفين • وأخذ كونتا يلبى دعوة كبــار المشــــايخ فى القرى للتوقف عنــدهم لبعض الوقت • وبينما كان أمورو وكونتا يستمتعان بالطعام والشراب تحت ظل شجرتى البوباب والكابوك فى كل قرية وكان الاشخاص الراشدون يســتمعون فى شــغف لاجابات أمورو على أســئلتهم • وكان الاولاد يسألون كونتا عن قريته والجهة التى يقصدها فكان يجيب عليهم بنفس الوقار الذى يجيب به الأولاد على أسئلة آبائهم • وعندما كان يحل موعد مغادرتهما كان كونتا متأكدا من أن القرويين يشعرون أنهم قد رأوا رجلا صغيرا قد قضى معظم حياته فى السفر والتجوال مع والده عبر طرق ومدقات « جامبيا » الطويلة •



وراحا يحثان الخطى لكى يصلا فى الموعد المحدد • وأخيرا وبمجرد أن بدأت الشمس تتخذ اللون القرمزى فوق الأفق الغربى ، شاهد كونتا دخانا يتصاعد من قرية غير بعيدة أمامهما • لقد وصلا !! وعندما

انعطفا على المدق ظهرت أمامهما القرية تحت الدخان المتصاعد ثم شاهدا بجوار زراعات كثيفة رجلا ولمحهما الرجل في نفس اللحظة وبدأ يشير ويلوح كما لو أنه قد عين هناك لانتظار رجل قادم مع ابنه · ورد أمورو على الرجل بالتلويح له · وعلى الفور جلس الرجل القرفصاء عند طلبته وراح يدق عليها : « أمورو كينتا وابنه » ·

وفجأة ظهر أمامهما الراقصون وهم يزمجرون ويصيحون ويقفزون ويدورون في الهواء ويضربون الارض بأقدامهم لدى خروجهم من بوابة القرية فى مقدمة الجميع الذين هبوا لملاقاة أمورو وكونتا · وأخذت طبلة القرية الكبيرة تدوى كالهدير عندما جرى اثنان من الاشخاص من بين الجمهور · وعندئذ سقطت الصرة من فوق رأس أمورو وراح يجرى نحوها · وسقطت الصرة أيضا من فوق رأس كونتا وانطلق يعدو هو الآخر · وشاهد كونتا الرجلين ووالده وهم يتعانقون ويربتون فى عنف على بعضهم البعض · ثم راح الرجلان يعانقان كونتا ويضمانه الى صدرهما وسط صيحات البهجة والسرور · ثم اصطحبهما العمان فى جولة سريعة فى أنحاء القرية الجديدة · وقال سالوم أن لكل كوخ فناءه الخاص به ولكل امرأة مخزن غلال خاصا بها مشيدا فوق موقدها مباشرة حتى يمكن للدخان المتصاعد حماية الارز والكسكسى والذرة العويجة من البق والحشرات · وأخذ كونتا يستمع الى لهجات مندينكية لا يفهم سوى كلمات قليلة منها مما جعله يشعر بالانبهار والارتباك فى آن واحد · وكان أمورو يشق طريقه متدافعا فى الزحام في جو من الصداقة والمحبة بينما كان يتم تعريفه على تدفق لانهائى من قرويين وشخصيات هامة قد جاءوا من أماكن مثيرة ومشوقة · وتعجب كونتا من طلاقة لسان عميه وهما يتحدثان بلغات كثيرة غريبة ·

وعندما حل الظلام جلس الناس حول النيران وتحدث أكبر الزائرين سنا وهو شيخ عجوز تجاوز عمره المائة سنة فقال : « منذ مئات الاعوام السابقة على أوائل ذكرياتى وصل الحديث عبر المياه الكبيرة عن وجود جبل أفريقى من الذهب · وهذا هو ما أحضر التوبوب الى افريقيا لاول مرة » واستطرد يقول أنه لم يكن هناك جبل من الذهب الا أنه قد تم اكتشاف ذهب يفوق الوصف في جداول مائية واستخرج من أنفاق عمودية عميقة فى غينيا الشمالية أولا ثم بعدئذ فى غابات غانا · وبعد ذلك تحدث جانيه فقال أن الملح فى كثير من الاماكن له نفس قيمة الذهب تقريبا · كما قال انه شاهد مع أخيه عمليات تبادل الذهب والملح بأوزان متساوية · وبدأ جانيه

يفك لفائف كبيرة من الجلد المدبوغ وبعد أن تم له ذلك قال « هذه هى افريقيا » وأشار بأصبعه الى موضع ما جهة الغرب وقال « وهذه هى المياه الكبيرة » ثم أشار الى موضع آخر أكبر من مساحة جامبيا عدة مرات وقال « وهذه هى الصحراء الكبرى الرملية » ٠

ودق الطبال المكلف بمراقبة الطريق كلمة « المرابط » فخرج على الفور فريق رسمى لملاقاته عند مشارف القرية ٠ وراح الرجل المقدس يبارك جمهور المرحبين به وقام الرجل بمنح بركات خاصة لكل من جانيه وسالوم وأمورو وكونتا ٠ وبدأ الرجـــل المقدس يتحرك بصعوبة بين القرويين الذين راحوا يلمسون جلبابه تبركا ٠ وأخذ آخرون يتوسلون اليه لكي يزور قراهم ليقود الصلوات الدينية التى أهملت تأديتها لفترات طويلة وراح آخرون يستفسرون عن الاحكام القانونية مادام القانون والدين متلازمين فى ظل الاســلام ٠ كمـا طلب الآباء منه تزويدهم بأسماء اسلامية لكى يطلقوها على أطفالهم الجدد ٠٠

وعندئذ خطر على ذهن كونتا أن جده بالتأكيد كان مثل هذا الرجل المقدس وكلاهما قادر ـ بعون الله ـ على جلب الامطار لانقاذ القرى المحتضرة ٠ وأحس لاول مرة أنه قد فهم بحق عظمة جده « كيرابا كونتا كينتا » وعظمة الاسلام ٠ وعادا من رحلتهما بســـلام الى جوفيور ٠

# ٢١

وراح كونتا يقص على زملائه رعاة الاغنام المواقف المثيرة التى شاهدها أثناء رحلته مع والده والقصص المثيرة التى سمعها من الناس أثناء الاحتفال وكان الاولاد مستغرقين فى الاستماع لكل كلمة، وفجأة حطم سكون الحقول نباح مروع صادر عن كلب وولو ومأماة مليئة بالرعب صادرة عن احدى الماعز ٠

وعندما نهضوا واقفين رأوا عند حافة العشب الطويل غرا كبيرا يسقط ماعزة من بين فكيه ويجرى مندفعـــا نحو اثنين من كلاب

الوولو . وظل الاولاد واقفين دون حراك من هول المفاجأة ورأوا أحد الكلبين وهو يرتمي على الارض بفعل ضربة ساحقة من مخلب النمر . وعندما راح الكلب الثاني يقفز جيئة وذهابا في وحشية جثم النمر ليقفز عليه . فانتشر الاولاد على شكل مروحة وهم يصرخون . ولكن كونتا إنطلق يجرى فى جنون نحو ماعزة والده الصريعة . فصرخ صديقه سيتافا محاولا منعه من الجرى بين النمر والكلاب قائلا له « لا تفعل ذلك ياكونتا » ولكنه لم يستطع اللحاق به . وعندما رأى النمر الولدين المولولين المندفعين نحوه تراجع الى الخلف عدة أقدام قليلة ثم استدار وانطلق عائدا بسرعة نحو الغابة بينما الكلاب الغاضبة تجرى فى أعقابه . وركع كونتا بجوار ماعزة والده وراح يسلخها لكى يحصل على جلدها . واعتقد كونتا أن الذى حدث كان مجرد عقاب من الله بسبب شعوره بالفخر والتباهى . وتوقف ليسجد فى الاتجاه الذى تشرق منه الشمس وصلى لله العظيم طالبا منه الصفح والغفران . وبدأ زملاؤه في الانصراف فى طريق العودة وجلس هو يفكر فى كيفية اخبار والده بما حدث .

وفجأة رأى أمورو يجرى نحوه وتساءل والده « أأنت بخير ؟ » فقال كونتا بصعوبة « نعم يا والدى » . ولكن أمورو بدأ على الفور فى فحص بطن كونتا فاكتشف أن الدماء التى تبلل جلبابه ليست دماءه . ثم نهض أمورو واقفا وأخذ جلد الماعز ووضعه فوق العشب وأمر كونتا بالجلوس فجلس وهو يرتعد خوفا ثم جلس أمورو على الجانب الآخر من الجلد .

ثم قال أمورو « هناك شيء يجب أن تعرفه : وهو أن جميع الناس يقعون فى أخطاء . وأنا شخصيا عندما كنت فى مثل سنك فقدت ماعزة التهمها أسد » . ثم قام أمورو بشد جلبابه وتعرية الجزء الاعلى من فخذه اليسرى . وعندئذ ذهل كونتا حيث رأى ندبه غائرة فى فخذه . فقال أمورو وهو ينظر نظرات ثاقبة الى وجه كونتا « لقد تعلمت ويجب عليك أن تتعلم . لا تجر أبدا نحو أى حيوان مفترس . هل تسمعنى ؟ »

« نعم يا والدى » ..

ثم نهض أمورو واقفا وأمسك بجلد الماعز وألقى به بعيدا فوق الاعشاب وقال « وهذا هو كل ما يجب أن يقال » وسارا معا عائدين الى القرية . وكانت مشاعر حبة لوالده فى تلك اللحظة لا حدود لها .

# ٢٢

ووصل كونتا الى سن العاشرة وحل موعد عقد الامتحان والتخرج من المدرسة ودعي جميع الآباء والامهات وكبار رجال القرية بالحضور .. فراح العريف يوجه الاسئلة للاولاد الواحد تلو الآخر وبعد ذلك طلب منهم كتابة أسمائهم باللغة العربية .. ثم طلب منهم قراءة آيات من القرآن الكريم وقرأ كونتا آيات مباركة من آخر صفحة في القرآن الكريم وبعد أن انتهى من القراءة وضع القرآن على جبينه وقال « آمين » . وعندما انتهت جميع القراءات قام المدرس بمصافحة كل تلميذ باليد ثم أعلن بصوت مرتفع أن تعليم هؤلاء الاولاد قد انتهى وأنهم أصبحوا الآن فى المرحلة الثالثة من العمر . فانفجر جميع الحاضرين في الهتاف والتصفيق . وانتهى حفل التخرج بوليمة مليئة بالاطعمة الشهية .

وبدأ كونتا وزملاؤه يشعرون بالخوف بسبب قرب البدء في التدريب على الرجولة وهو تدريب شاق يتم على مسافات بعيدة من القرية . وذات مساء عندما كان كونتا جالسا فى كوخ بنتا عقب انتهائه من تناول العشاء دخل أمورو الكوخ ووقف وراءه ووضع غمامة طويلة على رأسه وجذبها لاسفل . فسرى الرعب في جسد كونتا وأحس بيد والده وهو يمسكه ويدفعه للوقوف والتحرك به الى الخلف الى أن دفع للجلوس على كرسى منخفض وكان الكوخ يسوده صمت شديد . وخيل اليه أنه سمع بنتا تتحرك من مكان لآخر وتعجب لعدم سماعه صوت لامين أو صوت أخيه « سوادو » الذى ولد أثناء رحلته مع أبيه الى قرية عميه . وأخذته سنة من النوم واستيقظ فجأة وكان الصمت لا يزال مخيما . ثم بدأ يسمع صياح الديكة ونباح كلاب الوولو وأذان امام القرية وأصوات مدقات أجران النساء . وبعدئذ سمع أصوات موسيقى الكورا والبلافون وكاد قلبه يتوقف عن النبض عندما أحس بدخول شخص الى الكوخ وقبل أن يتمكن من استجماع قواه أمسك ذلك الشخص به بعنف وجذبه من فوق الكرسى وخرج به من الكوخ الى الضوضاء — التى تكاد تصم الآذان — المنبعثة من دق الطبول وصرخات الناس المدوية .

وانهالت عليه الايدى بالضرب كما لاحقته الاقدام بالركل

والرفس ثم توقف الضرب وأحس أن الجمهور المتصايح قد أصبح فجأة بعيدا عنه فاعتقد أن جموع الناس قد سارت نحو كوخ ولد آخر من رفاقه ثم أمسكت به يد أخرى فأدرك أنها يد العبد الذى استأجره أمورو ـ مثلما فعل كل أب ـ ليقود ابنه المغمى الى الجوجو ( معسكر التدريب ) ٠

وكان صياح الجماهير يصل الى أقصى درجات الهياج فى كل مرة ينتزع فيها ولد من أحد الاكواخ ٠ وبعد قليل أخبرته أذناه أنه هو ومرشده قد انضما الى طابور متحرك من السائرين على الاقدام مع ايقاعات الطبول السريعة ٠ ومروا من بوابة القرية وأخذت ضوضاء الجماهير فى التلاشى ٠ وأحس بالحزن والرعب بسبب ابتعاده عن والده ووالدته واخوته وقريته التى ولد فيها ٠ ولكنه كان يدرك أن التدريب على الرجولة أمر لابد منه وقد مر به والده وأجداده من قبل وسيمر به أبناؤه من بعده ٠



# ٢٣

ثم توقفوا أخيرا عند غابة من الخيزران ٠ ورفعت الغمامة من على رأس كونتا فجأة فأخذ يرمش بيعنيه فى ضوء الشمس محاولا مواءمة عينيه مع الضوء ٠ ولم يجرؤ على الالتفات برأسه لرؤية باقى زملائه حيث كان يقف أمامهم مباشرة « سيلا با ديبا » وهو أحد أعضاء « مجلس الكبار » بالقرية ٠ وأدرك كونتا أن هذا الرجل هو « الكينتانجو » الخاص بهم ٠ وكان يقف على جانبيه اثنان من المساعدين له هما : على سيسى ، وسورو تورا ٠ ثم قام جميع الاولاد وعددهم ثلاثة وعشرين بوضع راحتى أيديهم فى تقاطع على قلوبهم وحيوا رجالهم الكبار بالطريقة التقليدية « السلام عليكم » فرد الكينتانجو العجوز ومساعداه « وعليكم السلام » ٠ وزاد كونتا من حملقته فرأى أنهم واقفون فى فناء به عدة أكواخ صغيرة ومحاط بسور من الخيزران الطويل الجديد ٠ ثم قال الكينتانجو فجأة « لقد غادرتم جوفيور وأنتم أطفال فاذا أردتم أن تعودوا اليها رجالا يجب عليكم أن تمحوا من أنفسكم الخوف لان الشخص الخائف هو

شخص ضعيف والشخص الضعيف يشكل خطرا على آسرته وقريته بل وعلى قبيلته » ثم انصرف • وراح مســـاعداه يضربان الاولاد ويسوقانهم كالقطيع الى الاكواخ الطينية الصغيرة •

وبعد غروب الشمس مباشرة تم تنظيمهم فى طابور وأعلن عليهم الكينتانجو في تجهم أسود أنهم سيقومون برحلة ليلية فى أعماق الغابة المحيطة بهم • وانطلقوا على طول المدق فى فوضى وارتباك والضرب ينهال عليهم من وقت لآخر • وشاروا لمسافات طويلة وظهرت « البقابيق » فى أقدامهم ثم استراحوا قليلا بجوار جدول ماء ثم صدرت التعليمات لهم بالعودة الى الجوجو • وفى كل ليلة وعلى مدى الليالى الست التالية كانت تتم مسيرة أخرى وفى كل مرة كان السير يمتد لمسافة أبعد من المرة السابقة عليها • وفى الليلة السابعة ألقى عليهم الكينتانجو درسا فى كيفية استرشاد الرجال فى أعماق الغابات بالنجوم • وفي أواخر الشهر الاول انتقلوا الى أعماق الغابات بعيدا عن الجوجو حيث قاموا بتشييد مخابىء مؤقتة للنوم فيها في فترات الراحة من الدروس التى لاحصر لها فيالاسرار التى تهيىء الشخص لان يصبح بطلا •

وبينما كان الاولاد يتدربون على مناداة الطيور بعد ظهر أحـد الايام ، هبط فجأة طائر كبير الحجم فى الاحراش القريبة موقوقا بصوت هائل • فصاح أحد الاولاد ضاحكا « أنظروا » • وعندئذ شعر جميع الاولاد بالخطأ الجسيم الذى وقع فيه زميلهم حيث أن الكلام ممنوع أثناء التدريب • فسار نحوه الكينتانجو وقال له بوقار شديد « احضر لى هذا الطائر حيا » وتلاحقت أنفاس كونتا وزملائه• فانطلق الولد وراءه فيمطاردة ساخنة وسرعان ما اختفى عن الانظار

وبعد مرور اربعة أيام اصدر برج المراقبة التابع للجـــوجو فى الصباح الباكر اشارة تفيد أن شخصا ما يقترب من الجـــوجو • فخرج الاولاد لملاقاته وكان مليئا بالجروح والكدمات وقد أمسـك بالطائر حيا • فقال الكينتانجو : « ان هذا الحادث قد علمكم أمرين هامين : أولهما أن تفعلوا ما تؤمرون به •• وثانيهما أن تغلقـــوا أفواهكم ، وهاتان الصفتان من العوامل التى تصنع الرجال » :

وبحلول الشهر الثانى بدأوا يتعلمون الطقوسالدينية والصلوات السرية الخاصة بالاجداد والتى يمكنها أن تجعل البطل غير مرئى بحيث لا تشاهده الحيوانات المفترسة أو الاعـداء • وتدربوا تماما على تعقب الحيوانات واصطيادها وسلخها وشوائها على النيران التى لا دخان لها • وتعلموا أسرارا كثيرة • الا ان أشهـر الاسرار من وجهة نظر كونتا هو « السيرا كانجو » Sira Kango

وهو نوع من الحديث تتغير فيه أصوات الكلمات المندينكية على نحو يستحيل معه على النساء أو الاطفال أو غير المندينكيين فهمها وما ان تعلم كونتا لغة « السيرا كانجو » حتى راح هو وزملاؤه يتحدثون عن كل شيء تقريبا مستخدمين هذه اللغة السرية الخاصة بالرجال :

وبعد انقضاء ثلاثة شهور على التدريب جاء آباء الاولاد وأقاربهم لزيارة الجوجو • وعقب انصرافهم مر أحد مساعدى الكينتانجو بجوار كونتا وقال له فى خشونة « لقد أصبح لك أخ جديد وقد سمى مادى » وقال كونتا لنفسه وهو يرقد ساهدا فى تلك الليلة بأنهم قد أصبحوا اربعة أخوة • وراح كونتا يفكر فى كيف أن ذلك سيكون له وقع عظيم على آل كينتا عندما يروى شعراء المديح هذا عبر مئات السنين القادمة •

# ٢٤

وذات صباح قال الكينتانجو للاولاد المجتمعين : « انكم الآن لم تعودوا أولادا فأنتم تعيشون الآن تجربة مولدكم من جديد كرجال » وكانت هذه هى أول مرة يخاطبهم فيها الكينتانجو بكلمة « رجال » •

وعلى مدى نصف الشهر التالى تعلم كونتا ورفاقه كيفية خوض الحروب • وقام الكينتانجو ومساعداه برسم استراتيجيات معارك مانديتكا الشهيرة على التراب ثم طلبوا من الاولاد اعادة تنفيذه هذه الاستيراتيجيات فى معارك وهمية ونصحهم الكينتانجو بقوله :

ـ لا تحيطوا بعدوكم من جميع الجهات تماما • اذ يجب أن تتركوا له بعض المنافذ للهرب لانه سيقاتل فى استماتةأشد اذا ما وقع فى الحصار الشامل ••

وفى نهاية فترة التدريب على الحرب زودهم الكينتانجو بمعلومات عن الجنرال سوندياتا العبد السابق ذى الشهرة الاسطورية الذى هزم القوات التابعة للملك سوما أورد ملك دولة البور •

وعندما بدأ الشهر التالى فى التدريب وصل حديث الطبول الى الجوجو معلنا توقع وصول زوار جدد فى خلال اليومين التاليين • ووصل الزوار الجدد وكانوا مجموعةمن المصارعين المدربين• واخذوا

يدربون الاولاد على الطريقة السليمة في المصارعة • فادرك الاولاد أن المصارع البطل يتميز عن المصارع العادى بالعلم والخبرة وليس بالقوة • وبعد ذلك عاد المصارعون الى جوفيور •

وبعد يومين وصل الى الجوجو اشهر شـــعراء المديح فى جامبيا كلها وهو رجل عجوز يسمى كوجالى نجاى وكان برفقتـــه عدد من أفراد أسرته • وراح الرجـــل يسرد عليهم قصصا مشـــوقة عن الامبراطوريات العظمى السوداء التى حكمت أفريقيا منـــذ مئات السنين • وقال لهم « ان أغنى وأقدم مملكة هى مملكة مالى القديمة وكانت لها مدنها ومزارعوها وعمالها وحدادوها ودباغوها وصباغوها ونساجوها • وكانت اعظم مدنها هى مدينة تمبكتو التى كانتأعظم مركز للتعليم فى أفريقيا » وعندما حل موعد انصرافه أبدى الاولاد رغبتهم فى بقائه لفتـــرة اخرى ولكن الكينتانجو أمرهم فى حـزم بالذهاب للنوم •

وبعد ستة أيام جاء لزيارتهم مورو Moro شهير ومعـه خمسة من تلامذته فى العلم والحكمة • وبعد ان بارك المورو جميع الموجودين فى الجوجو فتح كتبه وبدأ فى القراءة مستهلا بآيات من القرآن الكريم ثم قرأ أبيات من كتب لم يسمعوا عنها من قبل توراة موسى وزابور داود وانجيل عيسى • وبعد ذلك وضع الكتب جانبا وحدثهم عن آدم وحواء ويوسف واخوته وموسى وداود وسليمان • وقبل ان ينهض المورو اخيرا لمغادرة الجوجو فى تلك الليلة استعرض معهم ما يعرفونه بالفعل عن الصلوات الخمس التى تؤدى لله تعالى ودربهم على كيفية أداء الصلاة بطريقة سليمة فى داخل المسجد • ولدى انصرافه قام الاولاد بالانشاد « ان جيلا يتقدم فى العمر ••• ويجىء جيل آخر ويذهب ••• ولكن الله تعالى دائم للابد » •

## ٢٥

وحان موعد اجراء عملية « الطهارة » للاولاد • وصـــــدرت لهم الاوامر بالوقوف صفا واحدا • ثم حضر أباؤهم وأقاربهم وأنشدوا أمامهم « ان هذا الشىء الذى سيحدث لكم قد حدث لنا أيضا من قبل

... وحدث لإجدادكم من قبلنا ... لكى تصبحوا أنتم أيضا ... ونصبح نحن جميعا رجالا » ثم صدرت الاوامر للاولاد بالانصراف . ثم دوت الطبول فى الفترة المسائية وراح الآباء والاقارب ينشدون مرة أخرى .. انكم ستعودون قريبا الى بيوتكم ... والى مزارعكم ... وفى الوقت المناسب ستتزوجون ... وستقفز الحياة الدائمه من بين سراويلكم » .

ثم نادى مساعد الكينتانجو على اسم احد الاولاد وأشـــار له بالذهاب خلف ستار طويل من الخيزران المنسوج ولم يتمكن كونتا من سماع أو رؤية ما حدث . الا أن الولد ظهر بعد لحظات قليلةوقد تلوث جلبابه بالدماء . ثم نودى على الآخرين الواحد تلو الآخر .

وعندما بدأت جميع الجروح فى الالتئام ساد « الجوجو » جو عام من البهجة والسرور . وسرعان ما حل الشهر الرابع الجديد . ثم قال لهم الكينتانجو فى أحدى الامسيات «عندما تعودون الى قريتكم ستبدأون فى خدمة جوفيور بحيث تكونون عيونها التى ترى بهـا وآذانها التى تسمع بها . وسوف يتوقع الناس منكم أنتقفواحراسا على القرية وراء البوابات كأبراج مراقبة لحراسة القرية من التوبوب وفى الحقول لحراسة المحاصيل . وستكونون مسئولين أيضا عن فحص آنية الطهى الخاصة بالنساء للتأكد من نظافتها مع توجيه اللوم الشديد فى حالة العثور على قاذورات أو حشرات بداخلها » وتطلع الاولاد فى حماس شديد للبدء فى الاضطلاع بواجباتهم .

ومع ظهور القمر الرابع عاليا وبدرا فى السماء صدرت التعليمات لهم أن يصطفوا صفا واحدا عقب تناول وجبة العشـــاء . أجاءت اللحظة التى انتظروها طويلا ؟ وفتح الكينتانجو بوابة الجوجو على مصراعيها وصاح فيهم « يارجال جوفيـور ، عودوا الى قريتكم » . فراحوا يحتضنون الكينتانجو ومساعديه ثم انطلقوا فى طـريق العودة الى جوفيور .

## ٢٦

ودوت صيحات النساء فى سعادة غامرة « آييه ! آييه ! » وخرج الناس مندفعين من أكواخهم وهم يضحكون ويرقصون ويصفقون

بأيديهم عندما دخل كونتا ورفاقه بخطوات واسعة من بوابة القرية عند بزوغ الفجر . واندفعت بنتا نحو كونتا ولفت ذراعيها حوله وراح كونتا يداعب اخاه مادي واخاه سوادو وسأل عن لامين وأدرك انه يرعى الماعز بعيدا ثم تساءل اخيرا « أين والدى ؟ » فقالت له بنتا : «انه يقوم بقطع عيدان القش من أجل كوخك» وكان كونتا قد نسى فى دوامة الاثارة أنه سيكون له كوخ خاص به بعد أن أصبح رجلا . فخرج متجها بسرعة الى المكان الذى يوجد فيه والده . ولمح أمورو ابنه قادما فهب لملاقاته . وتصافحا بالايدى ونظرا بعمق فى وجه بعضهما البعض مثلما يفعل الرجال . واخـــذ كونتا يفحص حوائط الكوخ والسقف وأبدى رغبته فى القيام بأعمال الترميمات بنفسه . فقال له والده انه يرغب فى اتمام ترميمات السقف التى بدأها بالفعل . وأحس كونتا بالسعادة لان علاقته بوالده قد اتخذت طابع الرجولة .

ثم شعر كونتا فجأة بالحنين لرؤية نيوبوتو فذهب الى كوخهـا وهو غير عابىء بما اذا كان ينبغي على رجل أن يفعل ذلك . ونادى عند الباب « يا جدتى !! » . فردت فى توتر « من المنادى ؟ » .

فقال كونتا « خمنى يا جدتى ! » ثم دخل الى الكوخ . وبعـــد لحظات قليلة تمكنت عيناه من رؤيتها فى الضوء المعتم . لقد كانت جالسة القرفصاء بجانب دلو وكانت تجذب أليافا من لحاء بوباب . وما ان رأته حتى قالت « كونتا !! » . فصاح كونتا « اننى سعيد برؤيتك ياجدتى » ولكن نيوبوتو عادت الى عملها فى جذب الالياف ودهش كونتا لانها تصرفت كأنه لم يكن بعيدا عنها . فاعتذر لها كونتا على تعطيلها عن أعمالها وخرج مسرعا وهو يحس بأن مشاعره قد جرحت . واثناء عودته الى كوخه الجديد تقابل مع لامين وعامله بفتور بعض الشىء لكى يشعره أنه قد أصبح رجلا وينبغى أن يلقى قدرا من الاحترام من جانب الآخرين حتى ولو كانوا أخوته .

وبدت على وجه بنتا سيماء الرزانة أثناء قيامها بمساعدة كونتا فى نقل حاجياته الى كوخه الخاص به . ونظرا لانه لم يكن يمتلك سوى قوسه وسهامه ومقلاعه فقد راحت تزوده بالاشياء الاخرى الضرورية مثل مرتبة من القش وبعض الآنية وكرسى وسجادة صلاة كانت قد نسجتها له اثناء فترة التدريب على الرجولة . ونام كونتا فى وقت متأخر واستيقظ عند اذان الفجر فذهب للمسجد للصلاة . وعقب

تأدية الصلاة أحضرت بنتنا طعام الافطار له٠وبعد الانتهاء من الافطار انضم الى زملائه فى الاضطلاع بواجباتهم كعيون وآذان للقرية ٠ وانتشر الرجال الجدد فى كل مكان وحازوا اعجاب الجميع فى القرية



# ٢٧

وفى احدى الليالى رأى كونتا فى منامه : أنه عندما كان يشاهد مهرجان احتفالات الحصاد ،واختارته أكثر العذراوات جمالا وأطولهن رقبة وأشدهن سوادا وألقت عليه غطاء رأسها لكى يلتقطه ٠ وعندما فعل ذلك اندفعت مسرعة الى منزلها وهى تقول «كونتا يحبنى»وبعد مناقشة الامر من جميع الوجوه وافق والداها على زواجها من كونتا ثم وافق أمورو وبنتا على الزواج ، ثم أخذ والدا العروسين يساومان على مهر العروسة فقال أمورو « انها جميلة ولكن أهتماماتى تنصب على قيمتها الحقيقية كزوجة لابنى ٠ هل هى قوية ومجتهدة فى العمل ؟ هل هى لطيفة الطباع وهادئة فى المنزل ؟ هل باستطاعتها أن تطهى الطعام وترعى الاطفال جيدا ؟ وفوق كل ذلك هل هى مضمونة كعذراء ؟ » وكانت جميع الاجابات بنعم ٠ ولذلك فقد تم الاتفاق على مهرها وتم تحديد موعد الزفاف ٠

وشيد كونتا منزلا جديدا جميلا من الطين وقامت بنتا وأم العروسة بطهى طعام شهى بكميات وفيرة ٠ وفى يوم الزفاف كادت أصوات الشبان والاطفال والماعز والكلاب والدجاج والببغاءات والقرود تغطى على أصوات الموسيقيين والعازفين وعندما وصلت العروسة مع أقاربها تحدث شاعر المديح عن انضمام العائلتين الاصيلتين لبعضهما البعض ٠ ثم تزايد الضجيج عندما قامت صديقات العروسة بدفعها فى عنف الى داخل منزل كونتا الجديد وتبعها كونتا الى داخل منزله وجذب الستارة ٠ وعندما جلست على سريره غنى لها أغنية حب قديمة قدم الاجداد « يا مندومبا ان رقبتك الطويلة لجميلة للغاية ٠٠ ٠ » ثم قامت هى بتقبيله فى رقة وحنان ثم التصقا ببعضهما البعض بشدة وبعد ذلك حدث ذلك الشىء لأنه

كان قد تخيله من الوصف الذى سمعه من قبل ٠

ثم اهتز كونتا مستيقظا من نومه فجأة ٠ وأدرك أنه قد صار رجلا ٠

# ٢٨

وذات مساء سيطرت على كونتا مشاعر الوحدة والقلق فخرج من كوخه للنزهة وحيدا ٠ فقادته قدماه الى حلقة النيران التى يجلس حولها رجال جوفيور ٠ وما ان جلس خلف الرجال حتى سمع أحد الجالسين يتساءل : « هل باستطاعة أى شخص أن يذكر لنا عدد الافراد الذين يسرقون من بيننا ؟ » فقد كان المجتمعون يناقشون مشكلة أخذ العبيد والتى ظلت هى الموضوع الرئيسى الذى يثار حول نيران الرجال على مدى المائة شهر الماضية منذ أن بدأ التوبوب يسرقون الناس ويشحنونهم مكبلين بالاغلال الى مملكة أكلة لحوم البشر البيض عبر البحار !

وساد الصمت لفترة قصيرة ثم قال امام القرية « اننا نشكر الله لان هذه الاعمال أقل الآن مما كانت عليه من قبل » وعندئذ قال رجل عجوز غاضب « لانه لم يتبق منا سوى عدد قليل يسرقونه »

فقال اليكنتانجو « اننى اصغى للطبول وأحصى المفقودين وفى اعتقادى أن العدد يتراوح من خمسين الى ستين مع بزوغ كل قمر جديد على طول الجزء الخاص بنا من النهر » ولم يعلق أحد فاستطرد الكينتانجو « وبالطبع فلا سبيل لمعرفة عدد المفقودين بعيدا فى العمق وبعيدا فى أعالى النهر » ٠

وتساءل العريف : « لماذا نحصى فقط أولئك الذين سرقهم التوبوب ؟ لقد قتل التوبوب أشخاصا فى الحرائق وفى المعارك معهم أكثر مما سرق من اشخاص » ٠

وجملق الناس فى النار لفترة طويلة ثم كسر جمود الصمت رجل عجوز آخر قائلا « التوبوب لا يستطيعون عمل هذا بدون مساعدة من رجالنا نحن ـ مندينكيون وفوليون وولفيون وجوليون ـ فلا توجد قبيلة واحدة فى جامبيا الا وبها خونة من السود » ٠ فقال

شيخ مشايخ جوفيور « اننا نقف ضد جنسنا نحن من اجل الحصول على نقود التوبوب . ان الشراهة والخيانة هي الامور التى أعطاها لنا التوبوب في مقابل الحصول على أولئك الذين سرقوهم » .

ومرت لحظات قليلة ثم تساءل شخص « ألن يغير التوبوب من مسلكه أبدا ؟ » فرد عليه شخص من الكبار « عندما ينساب النهر الى الخلف !! »

ثم انصرف الجميع الى أكواخهم . وشق كونتا طريقه خارجا من بوابة جوفيور وذهب الى المخبأ الذي سيقبع فيه لحراسة جوفيور ليلا . وراح ينظر فيما حوله بحثا عن أى علامة تدل على الحركة واخذ يصغى الى اصوات الصراصير الحادة والاصوات الموحشة الصادرة عن البومات والطيور الليلية وعواء الضباع البعيد .



# ٣٩

وفي وقت مبكر من صباح أحد الايام رأى كونتا لدى عودته من الحراسة الليلة ثلاثة شبان يسرعون فى مشيتهم على المدق أمامه على مسافة قصيرة منه واستطاع أن يتبين أنهم فى مثل سنه ، وأدرك أنهم مسافرون . فأخذ ينادى عليهم الى أن توقفوا فجرى مسرعا لملاقاتهم وتحيتهم فأخبروا كونتا انهم من قرية بارا على مسيرة يوم وليلة من جوفيور ، وانهم مسافرون من اجل البحث عن الذهب . وأثارت رحلة هؤلاء الشباب اهتمام كونتا وطلب منهم التوقف فى جوفيور لقضاء يوم فى الضيافة قبل استئناف المسير ولكنهم اعتذروا وقالوا انه ينبغى عليهم ان يصلوا بعد ظهر اليوم الثالث من السفر الى المكان الذي يوجد به الذهب مختلطا بالطين حيث يقومون بعملية فصل الذهب عن الطين بغسله بالماء . وسأل أحد هؤلاء الشبان كونتا « ولماذا لاتجيء معنا الآن ؟ » ونظرا لأن كونتا لم يتدارس هذا الامر من قبل فقد جاء السؤال مباغتا له وقال لهم انه يرحب بالفكرة ولكنه لديه بعض الاعمال فى مزرعته . فقال أحدهم « اذا غيرت رأيك . يمكنك أن تلحق بنا » ثم راحوا يرسمون على التراب ليوضحوا له مكان الذهب . ثم ودعهم وعاد الى جوفيور وراح يفكر كثيرا فى ذلك

الأمر الى ان خطرت على ذهنه فجأة فكرة رائعة : انه كرجل الآن يستطيع أن يأخذ لامين معه مثلما أخذه والده معه ذات مرة ٠

فذهب كونتا لوالده وتحدث معه عن تقابله مع اصدقائه الثلاثة الجدد ودعوتهم له بالانضمام فى البحث عن الذهب ٠ ثم اخذ نفسا عميقا وقال « وقد خطر على ذهني أن لامين قد يستمتع بهذه الرحلة » ولم تظهر على وجه أمورو أى ومضات تعبيرية ثم قال « أن السفر مفيد للاولاد » وعندئذ أدرك كونتا ان والده سيوافق ٠ ثم قال أمورو بطريقة عرضية « اننى لم أقم بأسفار فى تلك المنطقة منــذ سنين طويلة ، ويبدو لى أننى لا أذكر جيدا ذلك المدق »٠ وأدرك كونتا أن والده كان يحاول فقط معرفة ما اذا كان ابنه يعرف الطريق الى المكان الذى يوجد فيه الذهب ٠ فجثا كونتا على ركبتيه فى التراب وراح يرسم المدق بعصا كما لو كان يعرفه منذ سنين عديدة ٠ ثم رسم حلقات لكى يوضح القرى القريبة من المدق والقرى الاخــرى الواقعة على مسافات منه وعندئذ نزل أمورو على ركبتيه أيضا وعندما انتهى كونتا من رسم المدق بتفاصيله قال أمورو «اننى أفضل السير بالقرب من معظم القرى ٠ وصحيح أن هذا يجعلنى أسير لمسافات أطول ولكنه سيكون أكثر أمنا » ٠

وبعد ذلك شاهد كونتا أصبع أمورو وهى ترســم دائـرة على الثلث الاخير من المدق ثم قال أمورو « فى هذه المنطقة يتكلم عدد قليل من الناس اللغة المندينكية » فقال كونتا « ان الشمس والنجوم سترشدنى الى الاتجاه الصحيح » وما ان علمت بنتا بالنبــأ حتى راحت تجوب القرية مولولة وممسكة بيد مادى وسادو وتقول بأعلى صوتها « لم يتبق سوى هذين الولدين فقط » ٠ ثم ذهب كونتا الى أخيه لامين وقال له بلهجة جافة « يبدو لى انك قد سمعت بالنبأ سنبدأ السفر غدا عقب صلاة الفجر » ٠ وكاد لامين يطير من الفرح

## ٣٠

وعند شجرة المسافرين التابعة لقرية جوفيور صلى كونتا من اجل أن تكون رحلتهما آمنة وموفقة ٠ ثم انطلق سائرا ووراءه لامين على

المدق . وبعد مضي ساعة اقتربا من شجرة منخفضة مليئة بالحبوب واراد كونتا أن يوضح لاخيه أن هذه الشجرة تعنى انه يوجد على مسافة قصيرة منها عدد من المندينكيين الـكفار الوثنيين الذين يستخدمون النشوق ويدخنون التبغ ويشربون البيرة المصنوعة من العسل المخمر ولكنه فضل تعليم لامين مبدأ الالتزام بالصمت أثناء المسيرة .

وبعد ان اتخذا المدق الفرعي الذى يسير بحذاء أولى القرى التى مرا عليها راح كونتا يفكر فى الطبلة التى سيصنعها لنفسه . فهو يعرف على وجه الدقة المكان الذى يجد فيه الاخشاب الناشفة التى يحتاجها من اجل صنع اطار قوى للطبلة فهذا المكان يقع على مسافة قصيرة بعد حقول الارز الخاصة بالنساء .

وعندما حل موعد صلاة الظهر خرج كونتا عن المدق الى مكان يوجد به جدول ماء وراح يغتسل بالماء . وشرب كميات قليلة وسمع وهو فى منتصف الصلاة صوت ارتطام حمل الرأس الخاص بلامين بالارض . وما أن انتهى من الصلاة حتى قفز واقفا ليؤنب أخاه بسبب وقوع بقجته على الارض فرأى أخاه يزحف فى ألم شديد نحو الماء . فقال له فى حزم « ارتشف قليلا فى كل مرة » . وبعدئذ راح الاثنان فى اغفاءة من النوم . وبعد ذلك واصلا المسير . ومع قرب حلول الشفق اصطاد كونتا احدى الطيور وذبحها وصفى دماءها تماما وشواها على النار . وأدى الصلاة وبعدئذ تناولا طعامهما . وأمضيا الليل فى هذه المنطقة .

واستأنفا المسير عقب شروق شمس اليوم التالى . وبعد مرور بعض الوقت شاهد كونتا أمامهما رجلا عجوزا جالسا بجوار المدق . وكان منحنيا على عدد من الصدفات وكان يخلطها ويفرقها ثم يعيد خلطها فوق حصيرة مجدولة من الخيزران بينما كان يغمغم فى نفسه ولكيلا يقاطعه كونتا فانه كان على وشك المرور بجواره دون التحدث اليه فرفع الرجل العجوز رأسه لينظر لاعلى ونادى عليهما المجىء الى حيث يجلس . وقال الرجل العجوز « اننى من قرية كوتا كوندا التى توجد فى مملكة وولى » ثم تساءل « ومن أين أنتما ؟» فقال له كونتا انهما من قرية جوفيور . فقال الرجل « لقد سمعت عنها » ثم قال أنه كان يستخير صدفاته ليعرف منها رسالتها التالية بشأن رحلته إلى مدينة تمبكتو .. واستطرد « وهى المدينة التى اريد مشاهدتها قبل أن أموت » ثم أعطاهما صدفتين من أصدافه لكى تجلبا لهما ربحا وفيرا .

ثم انطلقا فى المسير لفترات طويلة تحت لهيب الشمس الحارقة . وظلت مفارق الطرق تظهر أمامهما مثل الصور المتتابعة الى أن ظهرت أمامهما القشرة الضخمة القديمة لشـــجرة البوباب التى كان قد وصفها الشبان الثلاثة من قرية بارا . ثم قال كونتا « نحن قريبون الآن » ووصلا أخيرا مع هبوط قرص الشمس وراء الافق الى الحفر الصلصالية العميقة وهناك كان يوجد الشبان الثلاثة .

فصاحوا فى سعادة غامرة لدى رؤيته « لقد كان لدينا احساس بأنك ستجيء » وقاموا بعرض حبات الذهب التى جمعوها وقد امتلأوا بالفخر والخيلاء .

ومع شعاع أول ضوء فى صباح اليوم التالى ، انضم كونتا ولامين اليهم فى العمل . وراحا يفركان قطعا كبيرة من الصلصال اللزج ويســـقطانها فى قرعات كبيرة مليئة بالماء وبعد تحريك القرعات حركات دائرية يقومان بتفريغ معظم المياه الطينية ثم يتحسسان فى حرص بحثا عن حبات من الذهب غائصة فى القاع . ومن وقت لآخر كانت هناك حبة ذهب فى نفس حجم حبة الذرة العويجة .

وعملا فى نشاط محموم . وكانت كل حبة ذهب غالية توضع فى عناية فى تجويف الريش الكبير المأخوذ من أجنحة حمام الغابات وتوضع عليه سدادة عبارة عن قطعة صغيرة من القطن . واستطاع كونتا ولامين ملء ست ريشات بحبات الذهب . وبدت رحلة العودة قصيرة فى نظر كونتا . وما أن وصلا الى جوفيور حتى سادت مشاعر البهجة فى كل مكان . ووضعت بنتا ريشـات الذهب الست فى شعرها . فصاحت جدة عجوز « ان بنتا تحمل فوق رأسها بقرة » أى قدرا كافيا من الذهب لشراء بقرة ..



# ٣١

وكانت جلسات « مجلس الكبار » تعقد شهريا فى جوفيور للبت فى الموضوعات المختلفة وفض المنازعات التى تنشأ بين الاهالى . وفى

أول جلسة حضرها كونتا شاهد موضوعا يتعلق بنزاع على الاراضى اذ ادعى رجلان ملكية ثمار بعض الاشجار التى زرعها فى الاصل الرجل الاول على أراضى آلت حقوق زراعتها للرجل الثانى • فحكم « مجلس الكبار » بأن الثمار تكون من نصيب الرجل الاول • وجاء في قرار الحكم « لو لم يقم الرجل الاول بزرع الارض بالاشجار لما كانت هناك ثمار » •

وفى جلسات أخرى شاهد كونتا أناسا غاضبين يتهمون آخرين بانزال الحظ العاثر عليهم باستخدام السحر الاسود • اذ أقر أحد الرجال أن رجلا آخر قد لمسه بمنقار ديك مما أدى الى معاناته من المرض الشديد • كما اعترفت زوجة شابة أن حماتها قد خبأت فى مطبخها شجرة بورين مما تسبب فى اتلاف أى طعام تعده فى المطبخ• كما ادعت أرملة شابة أن رجلا عجوزا رش مسحوق قشر البيض فى طريقها مما أدى الى وقوعها فى سلسلة طويلة من المتاعب •

وشاهد كونتا فى آخر جلسة حضرها قضية جانكية جالون وهى فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها • وكان أهالى جوفيور قد رقصوا واحتفلوا وأقاموا الولائم عندما اهتدت الى الطريق وتمكنت من العودة الى جوفيور عقب الهرب من بعض التوبوب الذين كانوا قد اختطفوها • وبعد ذلك بعدة شهور ظهرت عليها أعراض الحمل رغم أنها لم تكن متزوجـــة مما تسبب فى كثير من الثرثرة والهمس • ونظرا لأنها كانت صـــغيرة فى السن وقوية البنيان فانها كانت ستحصل على موافقة رجل عجوز على قبولها كزوجة له الا أنها سرعان ما ولدت طفلها • وجاء الطفل بنى اللون مائلا للصفرة كما كان شعره غريبا للغاية • وكلما ظهرت جانكيه جالون بعد ذلك فى أى مكان كان الناس ينظرون الى الارض ويسارعون الى الابتعاد عنها • وقفت أمام مجلس الكبار والدموع تترقرق فى عينيها وتساءلت « ماذا على أن أفعل ؟ » • ولم يستدر كبار المشايخ الستة للتشاور وقال رئيس المجلس بأن الامر سيتطلب منهم دراسة هذا الموضوع ـ لانه موضوع صعب وخطير للغاية ـ لحين حلول موعد اجتماع الجلسة القادمة • ثم رفعت الجلسة •

وانصرف الجميع • ونظرا لان تلك الليلة كانت نوباتجية كونتا فى الحراسة خارج أسوار القرية ، فقد التقط رمحه وقوسه وسهامه وجرى مع كلبه الوولو الى موقع الحراسة •

# ٣٢

وفي حقول الفول السوداني اليانعة الممتدة تحت ضـوء القمر تسلق كونتا العمود وجلس على المكان الذي حز على شكل حرف ٧ والذي يستطيع منه كشف المواقع المجاورة ٠ ووضع كونتا أسلحته بجواره كما وضع فأسه التي قرر استخدامها في صباح اليوم التالي في قطع الاخشاب اللازمة له لصنع اطار طبلته ٠ وراح يرقب المنطقة بينما أخذ كلبه الوولو يهرول ويشمشم هنا وهناك في الحقول أسفله ٠

وكان كونتا قد بدأ يضع خطة ــ عقب عودته من رحلة الذهب ــ لزيارة مالي التي عاش فيها آل كينتا منذ حوالي أربعمائة سنة ٠ واستشار العريف في سرية تامة عن أفضل الطرق المؤدية الى مالي فقام العريف برسم خريطة كروكية على التراب موضحا له الطرق والمسالك والمدن التي سيمر بها ٠ وراح كونتا بعد ذلك يتدرب ويرسم الخريطة في كوخه على التراب الى أن حفظها تماما ٠ ثم قرر بعد ذلك أن يقوم برحلة الى مكة المكرمة لكي يؤدي مراسم الحج بها٠

وبعد أن ظهرت التباشير الاولى الخفيفة للفجر في جهة الشرق ، مد كونتا يده لالتقاط أسلحته والتوجه الى كوخه ٠ ثم وقع نظره على فأسه وتذكر الاخشاب اللازمة لصنع اطار طبلته ٠ وراودته فكرة تأجيل قطع الاخشاب بسبب شعوره بالارهاق ولكنه قال لنفسه أنه ليس من الرجولة أن يستسلم المرء أمام الشعور بالتعب ٠ فنزل هابطا من فوق عمود المراقبة حيث كان كلبه الوولو منتظرا وكان ينبح نباحا خفيفا في سعادة ويحرك ذيله في ابتهاج ٠ وبعد أن أدى كونتا فريضة صلاة الصبح نهض واقفا وتمطى وأخذ نفســا عميقا من هواء الصباح البارد ثم انطلق يجري في خطوات واسعة نشطة نحو النهر ٠



# ٣٣

وملأت عطور الزهور البرية المألوفة أنف كونتا بينما كان يجرى مبللا ساقيه بين الاعشاب المبللة بالندى مع الاشعة الاولى لضوء الشمس وكانت الصقور تحوم فوقه فى السماء بحثا عن فريسة لها كما كانت الحفر المجاورة للحقول تعج بنقيق الضفادع . وبينما كان كونتا يتنفس بعمق بدأ يشم شذى أشجار القرام الذى يشبه المسك لدى اقترابه من الشجيرات الكثيفة المنخفضة الممتدة على ضفتي النهر لمسافات بعيدة فى العمق . وبمجرد أن رأته الخنازير البرية صدر عنها نخير فجائى أدى بدوره الى احداث زمجرة بين قرود البابون فسارعت الذكور الضخمة منها بدفع اناثها وأطفالها وراءها .

وواصل كونتا الجرى مبتعدا عن النهر فى اتجاه الشمس لفترة قليلة ووصل أخيرا الى الاعشاب التى يصل ارتفاعها الى رأس الانسان والتى تحيط بالغابة الصغيرة التى سيختار منها جزءا من جذع شجرة فى نفس حجم جسم طبلته تماما ليقطعه . وما أن دخل كونتا الغابة الصغيرة حتى شاهد حركة فجائية بزاوية من عينه . لقد كان أرنبا بريا . وانطلق كلبه الوولو فى أثره فى لمح البصر بينما كان الارنب يجرى للتخفى فى الاعشاب الطويلة . وكان كونتا يدرك أن كلبه سيعود اليه عندما يفقد حماسه فى المطاردة .

وتقدم كونتا الى وسط الغابة حيث يمكنه أن يجد أشجارا كثيرة تمكنه من اختيار جذع له نفس الحجم والنعومة والاستدارة التى يحتاجها . وكان التراب اللين المغطى بالطحلب له ملمس مريح تحت قدميه بينما كان يتوغل لمسافات أبعد فى الغابة المظلمة . وبعد أن أسند أسلحته وفأسه على شجرة معوجة ، راح يتجول هنا وهناك وينحنى من وقت لآخر ليفحص بعينيه وأصابعه باحثا من الجذع المناسب تماما .

وأثناء انحنائه على جذع يوحى بأنه يصلح ، سمع صوتا حادا ناجما عن انكسار أحد الاغصان وتبع ذلك على الفور صوت ببغاء فوقه . وخطر له أن كلبه ربما كان عائدا . ولكنه فى لمح البصر خطرت على ذهنه فكرة كالوميض : وهى أنه لم يحدث من قبل مطلقا

أن كسر كلب كبير أحد الاغصان فاستدار حوله فى نفس اللحظة ٠ وهنا شاهد فى غشاوة وجها أبيض مندفعا نحوه وهراوة مرفوعة لاعلى وسمع وقع أقدام ثقيلة خلفه ٠٠ التوبوب !!! ٠ فتحركت قدم كونتا فى عنف وضربت الرجل فى بطنه ـ وكان بطنه لينا وسمع زمجرة ـ وأحس فى نفس اللحظة بشىء صلب ثقيل يحتك بمؤخرة رأسه ويهبط على كتفه كأنه جذع شجرة فاستدار كونتا متداعيا تحت وطأة الالم ـ معطيا ظهره للرجل المرتمى على الارض متكورا عند قدميه ـ وراح يضرب بجماع يديه فى عنف وجهى الرجلين الاسودين اللذين كانا يهاجمانه ويثبان عليه ومعهما جوال كبير كما راح أيضا يضرب بقبضة يده توبوبا آخر حاول أن يضربه بهراوة سميكة قصيرة الا أن الضربة فى هذه المرة أخطأته عندما قفز جانبا ٠

وبينما كان ذهن كونتا يصرخ فى جنون من اجل الحصول على أى سلاح ، أخذ يقفز عليهم ويخدشهم بأظافره وينطحهم برأسه ويجثو عليهم ويراوغهم وهو لا يكاد يشعر بالهراوة التى تلاحقه بضربات عنيفة متتالية فوق ظهره ٠ وعندما تشابك ثلاثة منهم مع كونتا ووقعوا جميعــا على الارض فى كتلة واحدة بسبب ثقل أوزانهم اصطدمت ركبة بعنف بمؤخرة ظهر كونتا فهــزته فى الم رهيب جعله يشهق لاهثا ٠ وما أن تقابل فمه المفتوح مع جزء من لحم أحد الاجساد حتى أمسكت اسنانه باللحم وأخذت تقطـــع وتمزق ، وعندما عثرت أصابعه المتخدرة على احد الوجوه أخذ يخربش بعمق فى احدى العينين فسمع صوت صاحبها مولولا وعنـــدئذ هبطت الهراوة الثقيلة فوق رأس كونتا للمرة الثانية ٠

وسمع كونتا وفى حالة من الذهول الشامل زمجرة كلب وصراخ توبوب ثم عواء كلب فى توجع ٠ ثم أخذ كونتا يتدافع بمنكبيه حتى وقف على قدميه وراح يتلوى ويتملص ويحنى رأسه ليتفادى مزيدا من الضرب بالعصى بينما كانت الدماء تتدفق من رأسه المشقوق ٠ وأثناء ذلك رأى رجلا من السود واضعا يده على عينه وشاهد رجلا آخر من التوبوب ممسكا بذراعه الملوثة بالدماء وواقفا فوق جثـــة الكلب ٠ أما الرجلان الآخران فكانا محيطين به وهما رافعـــان هراوتهما ٠ فاندفع كونتا نحو التوبوب الثانى وقد تفجر غضـــبه الجنونى فى شكل صراخ مدو وهو يلاقى بجمـــاع يديه الهراوة النازلة عليه محطما قوتها وحاول فى يأس انتزاع الهراوة وهو يكاد يختنق من رائحة التوبوب الكريهة لدرجة خرافية ٠ لماذا لم يسمعهم؟ لماذا لم يشعر بهم ؟ لماذا لم يشيم رائحتهم ؟ ٠

وفي نفس اللحظة انهالت هراوة الرجل الاسود في عنف على كونتا مرة اخرى فجعلته يترنح ويسقط على ركبتيه فقفز التوبوب بعيدة محررا نفسه • واحس كونتا أن رأسه على وشك أن ينفجر وأن جسده يترنح ويتهاوى واجتاحته موجات عارمة من الغضب بسبب الضعف الذى سرى فى كيانه فرفع جسده قليلا واخذ يزأر بصوت مدو ويضرب في الهـــواء على غير هدى وهو لا يكاد يرى شيئا بعد ان تلطخ كل شيء بالدموع والدماء والعرق • وكان يقاتل الآن من اجل شيء أسمى وأهم من انقاذ حياته • لقد كان يقاتل من أجل : أمورو ! بنتا ! لامين ! سوادو ! مادي : ثم انهـــالت هراوة التوبوب الثقيلة على صدغه ، فأظلمت الدنيا كلها أمام عينيه •

---

# ٣٤

وتعجب كونتا : ترى هل اصيب بالجنون ؟ اذ أفاق من اغمائه فوجد نفسه عاريا ومكبلا بالاغلال ومستلقيا على ظهره بين رجلين آخرين فى ظلام حالك تسوده حرارة مليئة بالبخار ورائحة كريهة مثيرة للاشمئزاز وكابوس من الضـــجيج الجنونى الزاخر بصراخ مدو وبكاء مرير وتوسلات لله واصوات تقيؤ • وكان جسده كله بمثابة كتلة من الآلام التشنجية الناجمة عن الضرب الذى تلقاه على مدى أربعة أيام منذ اصطياده • وراح يفكر فى الصـــياح والانين المحيط به فأدرك أن هناك كثيرين موجودين فى غرفة واحدة اذ كانت هذه عبارة عن غرفة كما أدرك أن هناك صيحات مكتومة منبعثة من أسفل الاخشاب المتراصة التى ينام عليها • ما هى الخطايا التى ارتكبها بحيث يعاقب عليها بمثل هذه الوحشية ؟ واحس بأنه قد أذنب لانه لم يصل منذ القاء القبض عليه بالغابة • ومع أنه لم يكن باستطاعته الركوع على ركبتيه ولم يكن يعرف اتجاه المشرق فقد أغمض عينيه وهو مستلق فى مكانه وصلى لله تعـالى طالبـــا منه الصفح والغفران •

وحاول ان يتذكر ما اذا كان قد نام طوال تلك الفترة منـــــذ الامساك به فوجد نفسه فجأة سائرا على مدق فى الغابة وأمامه

أثنان من السود وخلفه اثنان من التوبوب .. وانتفض كونتا فاتحا عينيه فجأة وهز رأسه فوجد نفسه غارقا في العرق ووجد قلبه يدق في عنف . لقد كان مستغرقا في النوم دون أن يدرى . لقد كان كابوسا أو كان الكابوس هو ذلك المكان المغلف بالسواد الكريه الرائحة ؟ لا . انه كان حقيقة مثلما أن المنظر الذى رآه في حلمه كان حقيقة أيضا . وعلى الرغم منه عادت الى ذاكرته كل الاحداث .

فبعد ان قاتل الخونة السود والتوبوب باستماتة شديدة في الغابة تذكر انه استيقظ وهو يشعر بموجة من الآلام الجنونية فوجد نفسه مكمما ومعصوب العينين ومكبلا ومعصماه مربوطان وراءه ورسغاه معقودان بحبل معقود . وعندما تخبط في عنف محاولا كسر قيوده انهال عليه الضرب بوحشية الى أن جرت الدماء على ساقيه ونخس بالعصى ليواصل السير فأسرع في مشيته بأقصى ما يستطيع .

وفي مكان ما على ضفاف النهر أدرك كونتا من خلال الاصوات أنه قد دفع الى أحد الزوارق . وبعد أن غادروا الزوارق ساروا مرة ثانية الى أن وصلوا أخيرا في تلك الليلة الى مكان ما ثم القوا به على الارض وربطوه في سور من الخيزران ثم نزعوا العصابة عن عينيه فوجد الظلام مخيما حوله الا انه استطاع رؤية الوجه الشاحب للتوبوب الواقف على حراسته كما رأى في غير وضوح أناسا آخرين مثله قريبين منه .

وترك كونتا وشأنه بقية الليل . وعند الفجر بدأ يتبين في وضوح أشكال الاسرى الاخرين . وكان عددهم أحد عشر .. ستة رجال وثلاثة فتيات وطفلان .. وكانت الفتيات عاريات تماما فحول كونتا بصره عنهن اذ لم يحاول مطلقا من قبل أن يرى جسد امرأة عارية . وفي غضب جنونى أخذ كونتا يندفع للخلف والامام محاولا تحطيم قيوده وعندئذ هبطت عليه عصا ثقيلة أفقدته الوعى وعندما أفاق من الاغماء اكتشف أنه هو ايضا قد أصبح عاريا تماما وان رؤوسهم جميعا قد حلقت وأجسادهم قد دهنت بزيت النخيل الاحمر . وفي وقت الظهر دخل رجلان جديدان من التوبوب الى الغابة الصغيرة . وراح الخونة السود يفكون قيود الاسرى ويصيحون فيهم لكى يقفون صفا واحدا . وكان أحد التوبوبيين قصيرا ممتلئا ذا شعر أبيض . أما الآخر فكان طويلا متجهم الوجه

مع وجود ندبات غائرة في وجهه وتم فحص جميع الاسرى والكشف على أسنانهم وعيونهم وبطونهم وصدورهم ٠

واخذ كونتا يكافح في غضب عندما امسك به الخونة السود وأرغموه على الجلوس مع تقويس ظهره واخذ يرقب توبوبا آخر وهو يسحب من النار قضيبا حديديا رفيعا طويلا وبدأ كونتا في الصراخ عندما فجر قضيب الحديد آلاما مروعة بين كتفيه ٠ وعندئذ راحت غابة الخيزران تدوى بصراخات الآخرين الواحد تلو الآخر ٠ وبعد ذلك دلكت الحروف الغريبة «L.L» التي رآها كونتا على ظهور الآخرين بزيت النخيل الاحمر ٠ ثم ساروا في طابور من السلاسل المخشخشة الى أن وصلوا في وقت متأخر من تلك الليلة الى زورقين مخبأين عند شاطئ النهر وتم تقسيمهم الى مجموعتين وقام الخونة السود بالتجديف تحت جنح الظلام ٠ وعندما لاح في الظلام فجأة شيء ضخم مرعب شعر كونتا أن هذه هي آخر فرصة له للهرب ٠ فراح يقفز ويندفع وسط صرخات الموجودين حوله وكاد أن يقلب الزورق وهو يكافح لالقاء نفسه في الماء الا انه كان مربوطا مع الآخرين ٠ وانهال الضرب عليه بالسياط ووصل القارب الى جانب ذلك الشيء الضخم ٠ ثم دفع لاعلى على سلم غريب من الحبال فراح يلوى جسده في محاولة أخيرة لاسترداد حريته فانهالت عليه السياط مرة أخرى وراحت الايدي تجذبه بقوة

وسط رائحة توبوب ساحقة واصوات نساء صارخات ولغات توبوب مدوية ٠ ثم أحس بنفسه وهو ينتزع لاعلى ويلقى بشدة على مكان مسطح ثم لمح أعمدة طويلة عليها لفائف هائلة من قماش أبيض خشن وبعدئذ اقتادوه ونزلوا به على سلالم ضيقة الى أن وصل الى مكان حالك الظلام حيثما هجمت على أنفه في نفس اللحظة رائحة كريهة مروعة لا يمكن للمرء تخيلها ودوت في أذنيه صيحات الآلام المبرحة وراح التوبوب يقيد معصميه ورسغيه ثم دفعه للخلف بين رجلين آخرين يتوجعان في ألم ٠ ثم أدرك كونتا أن الاضواء التي تتراقص في اتجاهات أخرى تعني أن التوبوب كانوا يأخذون أولئك الذين قد جاءوا معه ليكبلوهم في اماكن أخرى ٠



## ٣٥

وفجأة أحس كونتا على نحو ما أن ذلك المكان بدأ يتحرك آخذهم الى بعيد . وبدأ الناس فيما حوله يصرخون ويتوسلون الى الله والى أوليائه الصالحين ويبكون ويخبطون رؤوسهم في الارضية الخشبية ويدقون في وحشية قيودهم المجلجلة . واخذ كونتا يصرخ في هذا المكان المليء بالجنون : — اسمعني يا الهي . انقذني يا الهي . انني سأواظب دائما على الصلوات الخمس في أوقاتها .

ثم هدأت الصيحات بعد أن اصيب المكبلون بالارهاق . وانفتح المزلاج في أعلى السطح ونزل أربعة من التوبوب ومعهم أوعية مليئة بالطعام . واضطر كونتا لان يأكل حتى يمنحه الطعام القوة التي تعينه على قتل التوبوب . وعندما اقتربت أضواء التوبوب من نهاية رف الاخشاب الطويل الذى يرقد عليه كونتا ، سمع فجأة صوت قيود تجلجل ورأس يرتطم ثم صوت رجل يصرخ في جنون بلغة مندينكية مختلطة مع ما يشبه بعض كلمات التوبوب . وعندئذ انفجر التوبوب ضاحكين وانهالت سياطهم على الرجل الى أن اصبح صراخه مجرد نشيج وغمغمات . أكان هناك رجل خائن أسود مكبل بينهم ؟ وكان كونتا قد سمع من قبـل أن التوبوب كثيرا ما كانوا يغدرون بمساعديهم من الخونة السود فيكبلونهم في الاغلال .

وما أن عاد التوبوب الى أعلى السطح وأغلقوا وراءهم الفتحـة بالمزلاج حتى بدأ طنين غاضب بمختلف اللغات يسـود المكان . وارتفعت الاصوات مدوية « الموت للخائن . الموت لجميع الخونة ! » وسمع كونتا اصوات ضربات متلاحقة عنيفة وصرخات يائسة ثم صوت غرغرة مخيفة ثم أعقب ذلك هدوء شامل . لقد مات الخائن ثم سمع كونتا ضحكة مكتئبة صادرة من الشخص المجاور للرجل الخائن الميت . وعندما اكتشف التوبوب جثته سحبوها على طول الممر ورفعوها الى أعلى السطح .. وانهالت السياط على الشخص الذى قام بقتل الخائن . ورفض في بادىء الامر الصياح في بـكاء وعندما اشتد عليه الضرب راح يسب باللغة الفولاهية ولم يتركوه الا بعد ان اشتكى باكيا .

وكان نحيب الفولاهى يدوى فى أرجـاء العنبر .. وبعد فترة قصيرة نادى صوت واضح باللغة المندينكية « شاركوه آلامه . يجب علينا فى هذا المكان أن نكون مثل قرية واحدة » . وشعر كونتا أنه يجب أن يعيش لينتقم من كل ذلك . واكتشف أنه لايوجد سوى الاختيار الوحيـد الذى بدأ ماثلا أمامه وأمام الآخـــرين : أما أن يموتوا جميعا واما أن يتم التغلب على التوبوب وقتلهم بطريقة ما .

# ٣٦

وفقد كونتا تتابع الزمن . وكانت فضلاتهم الآدمية قد انتشرت فى كل مكان حوله فى شكل بقعة كبيرة من معجون ملتصق يغطى الالواح الخشبية للارفف الطويلة التى يرقدون عليها . وما أن بدأ كونتا يحس انه لم يعد يتحمل هذا الوضع حتى نزل ثمانية من التوبوب من الفتحة العلويه ومعهم جاروفات واربعة جرادل كبيرة . وكانوا عرايا . وبدأوا يكشطون هذا الخليط ويضعونه فى جرادلهم ويفرغونها بالخارج ثم يعودون مرة ثانية . ولكنهم عندما انتهوا من تأدية عملهم كان العنبر لايزال يعج بالروائح الرهيبة الخانقة .

وبعد أيام اخرى قام التوبوب بفك قيودهم واقتادوهم اثنين اثنين من فتحة العنبر الى أعلى السطح . وسقطت أضواء النهار الباهرة لاول مرة بعد مرور خمسة عشر يوما على عينى كونتا بشدة كأنها مطرقة . فترنح ورفع يده غير المكبلة ليغطى عينيه . واخذ نفسـا عميقا من هواء البحر فاختلجت رئتاه فى تشنج فسقط فى انهيار على سطح السفينة متقيئا بجوار زميله الولوفى المكبل معه فى الاغلال ثم راح يسمع مزيدا من التقيؤ فيما حوله ومزيدا من خشخشــة السلاسل واصوات جلد الاجساد بالسياط وصرخات الآلام وسط صيحات التوبوب وسبابهم واصوات رفرفة غريبة فوق الرؤوس .

وبينما كان يتم ربط أغلال الاقدام فى السلسلة الجديدة فوق السطح انتهز كونتا الفرصة والقى نظرة فاحصة على زميله الولوفى لاول مرة وكان الرجل مكسوا ـ مثل كونتا تماما ـ من رأسه الى

أخمص قدميه بالقاذورات . وكانت له الملامح التقليدية التى تتصف بها وجوه افراد قبيلة الولوف . ونظر الى الآخرين فعرف من ملامح وجوههم وانواع الوشم القبلية وعلامات التشريط المختلفة أن بعضهم ينتمي لقبائل الفولاه وجولا وسيرير وولوف ولكن معظمهم كانوا من المندينكيين كما كان هناك آخرون لم يستطع التعرف على نوع قبيلتهم . واجتاحته مشاعر الاثارة عندما رأى الرجل الذى قتل الخائن الاسود . لقد كان بالفعل من قبيلة فولاه . وكان جسده كله مغطى بالدماء الناجمة عن ضربه بالسياط . ثم قام الثوبوب بصب مياه البحر على اجسادهم واخذوا يدعكون أجسادهم بعدد من الفرشاة الخشنة ورأى كونتا المياه وهى ترغى وتزبد عند اقدامهم وقد اكتسبت بلون الدماء . وبدأ كونتا يحس بارتياح هائل عندما أزيلت بعض القاذورات عن جسده . وما أن انتهى ذلك حتى القوا بهم فى تكدس فى منتصف ظهر السفينة . ثم صدرت صرخات فجائية جماعية فى آن واحد مما جعل الرجال المكبلين ينتفضون ويعتدلون فى جلستهم . لقد جاءت تجرى من خلف حاجز خيزرانى فوق سطح السفينة حوالى عشرين امرأة عاريات تماما وبلاأغلال ومعظمهن تحت العشرين ومعهن أربعة من الاطفال وخلفهن اثنان من التوبوب يبتسمان ويلوحان بالسياط . وعلى الفور تعرف كونتا على الفتيات اللائى قد أحضرن معه الى السفينة واحس بغضب شديد عندما شاهد التوبوب يحملقون جميعا بنظرات فاضحة الى أجساد الفتيات العاريات المذعورات . ثم بدأ توبوب واقف عند الدرابزين يجذب ويدفع بين يديه شيئا ما غريبا به انثناءات مطوية يحدث صوتا كالأزيز وانضم اليه توبوب آخر يدق على طبلة أفريقية وبدأ التوبوب جميعا يرقصون وطلبوا بالاشارة من الناس المكبلين بالانضمام للرقص . وعندما رفضوا تجهم التوبوب ولوحوا بسياطهم .

فصرخت أكبر النساء سنا باللغة المندينكية « اقفزوا » وبدأت هى بنفسها فراحت ترقص ثم وجهت كلامها للفتيات وقالت « اقفزن » ثم راحت تنظر للرجال نظرات سريعة كالوميض وتقول « اقفزوا لتقتلوا التوبوب » بينما ذراعاها تؤديان الحركات التعبيرية الخاصة بالمحاربين وعندئذ بدأ الجميع فى الرقص وبدأت المرأة فى الغناء وانضمت اليها الفتيات وكانت كلمات الاغنية تحكى كيف أن هؤلاء التوبوب المرعبين قد أخذوا كل امرأة فى الاركان المظلمة من

السفينة في كل ليلة واستعملوهن مثل الكلاب وكن يصحن قائلات « توبوب فا Toubob FA »

وبعدئذ قامت واحدة من الفتيات اللائى قد أحضرن مع كونتا بالقفز في وحشية بين الحراس فحاولوا الامساك بها ولكنها دفعت نفسها فوق الدرابزين وألقت بنفسها في ماء البحر . ثم راح التوبوب الموجودون في أعلى السفينة بين الاقمشة الضخمة يصرخون ويشيرون نحو الماء . فالتمت الرجال العرايا الى ذلك الاتجاه وشاهدوا الفتاة وهي تتمايل مع الامواج — وعلى مسافة غير بعيدة منها ظهرت زعانف سمكتين سوداويين تلاحقانها بسرعة . ثم صدرت صرخة من الفتاة تقشعر لها الابدان تلتها رغاوى وزبد واصوات ضرب ثم انجرفت بعيدا عن الرؤية تاركة وراءها لونا أحمر في نفس المكان الذى كانت فوقه . ثم سيق النـاس كالقطيع نحو العنبر المظلم وأعادوا تكبيلهم في أماكنهم . وبعدئذ أحس كونتا ان التوبوب بدأوا يدفعون الرجال الآخرين المكبلين فى العنبر السفلى للصعود الى ظهر السفينة .

وبعد فترة من الوقت سمع كونتا بالقرب من أذنه اليمنى تمتمة بصوت منخفض « جولا ؟ » فقفز قلب كونتا بين ضلوعه . لقد كان يعرف قدرا قليلا للغاية من اللغة الولوفية الا أنه كان يعـرف أن أفراد قبيلة الولوف يستخدمون كلمة « جولا » ليعبروا بهـا عن المسافرين والتجار الذين كانوا عادة من المندينكيين . فأدار كونتا رأسه قليلا نحو أذن الرجل الولوفي وهمس قائلا «جولا ماندينكا» ومرت فترة طويلة واخيرا رد الرجل قائلا « ولوف . جيبومانجا » فأدرك كونتا أن هذا هو أسمه . فرد عليه هامسا «كونتا كينتا » .

وبدأ كونتا ينتزع من ذاكرته كل تعبير ولوفي سبق له سماعه من قبل واحس أن الرجل الولوفي كان يفعل نفس الشيء مع الكلمات المندينكية . ثم أدرك كونتا أن الهمس والتمتمة أخـذ يسرى بين جميع الناس تدريجيا . ولم يعد الهمس يتوقف الا عنـدما كان التوبوب يحضرون أوعية الطعام وكانت هناك خاصية جديدة للهدوء الذى يسود فى هذه الفترات . اذ لاول مرة منذ خطفهم وتكبيلهم يبدو الامر وكأنهم متواجدون مع بعضهم البعض .



## ٣٧

وتزايد الهمس والتمتمات بين الرجال في العنبر • فالكلمات التي لايتم فهمها كان يتم الهمس بها من فم لأذن علىطول الأرفف الى أن تصل الى رجل يعرف أكثر من لغة فيبادر الى ذكر معناها • ومع تكرار هذه العملية بدأ جميع الرجال على طول الرف يتعلمون كلمات جديدة بلغات لم يتحدثوها من قبل • ومع التمتمة مع بعضهم البعض لساعات طويلة نشأ بين الرجال احساس عميق بتدبير المكائد وشعور عميق بالأخوة الصادقة بينهم • وبدأت الأسئلة والردود عليها تنتشر بسرعة فى العنبر : «الى أى مكان هم يأخذوننا الأن ؟ » ونجم عن هذا التساؤل ثرثرة مليئة بالمرارة • فقال أحدهم « ومن الذى ذهب وعاد لكى يخبرنا بالاجابة ؟ » وقال آخر « لأنهم يؤكلون » • وتساءل آخر « كم من الوقت قضينا هنا ؟ » وأثار هذا التساؤل تخمينات سريعة تفيد أنهم قضوا حوالى شهر الى أن ترجم السؤال لرجل كان باستطاعته أن يحصىأضواء النهار من خلال ثقب تهوية بالقرب من المكان المكبل فيه • فقال أنه قد أحصى ثمانية عشر يوما منذ ابحار السفينة الكبيرة • كما كانت هناك استفسارات متلهفة تنتقل من رجل لآخر عن الرجال الذين يحتمل أن يعرفوا بعضهم البعض • اذ تساءل رجل فى أحد الأيام « أيوجد شخص هنا من قرية بارا كوندا ؟ » وبعد فترة قصيرة طارت الاجابة متناقلة من فم لأذن برد يثير الابتهاج « أنا ، جابون صلاح موجود هنا » وفى أحد الأيام كاد كونتا ينفجر من الاثارة عندما همس الولوفى قائلا «أيوجد أى شخص هنا من قرية جوفيور ؟» فرد كونتا لاهثا « نعم • كونتا كينتا » وظل مستلقيا مبهور الأنفاس طوال الساعة التى انقضت قبل ورود الرد « نعم • ان ذلك هو الاسم • لقد سمعت طبول قريته الحزينة » • فانخرط كونتا فى البكاء وذهنه يموج بصور متلاحقة عن أفراد أسرته •

وتزايدت الخلافات في الرأى بينهم عن كيفية قتل التوبوب وموعد تنفيذ ذلك • اذ كان بعضهم يرى ضرورة مهاجمة التوبوب فى المرة القادمة التى يصعدون فيها الى ظهر السفينة وذلك بغض

النظر عن النتائج المترتبة على ذلك . وكان البعض الاخر يرى ضرورة مراقبة الموقف وانتظار الفرصة المناسبة . ثم قطعت المناقشات فجأة عندما دوى صوت رجل كبير في السن « استمعوا الى . رغم اننا ننتمي الى قبائل ولغات مختلفة ، الا أنه يجب علينا ان نتذكر دائما اننا شعب واحد ومن ثم ينبغي أن نكون جميعا في هذا المكان مثل قرية واحدة » . وسرعان ما تناقلت معلومات من فم لأذن تفيد أن صاحب ذلك الصوت كان عمدة احدى القرى . ثم تحدث هذا العمدة مرة اخرى موضحا أنه ينبغي العثور على قائد تجمع الآراء على قيادته لهم كما ينبغي اعداد خطة للهجوم متفق عليها .

وظل كونتا مستلقيا هناك في الظلام مستمعا بصوت والده وهو يحذره في حزم هو وأخاه لامين بألا يتجولا وحدهما في أي مكان . وفي يأس مرير تمنى كونتا لو كان قد استمع الى نصائح وتحذيرات والده . وشعر بيأس مرير عندما خطر على ذهنه أنه قد لايتمكن للأبد من الاستماع لصوت والده مرة أخرى .

« ان كل شيء يتم بارادة الله » وتناقلت هذه العبارة التي قالها العمدة من فم لأذن وعندما وصلت الى كونتا عن طريق الرجل المستلقي على يساره ، استدار كونتا برأسه ليهمس بهذه الكلمات الى زميله الولوفي المكبل معه بالأغلال وبعد لحظات قليلة أدرك كونتا أن الولوفي لم يهمس بهذه الكلمات الى الرجل الذي يليه . فاعتقد أنه لم يذكر الكلمات في وضوح فأعادها على مسمع الولوفي مرة أخرى ، الا أن الولوفي قذف بهذه الكلمات بصوت مدو في كل أرجاء العنبر « اذا كان الهكم يرغب في ذلك فاني أرحب بالشيطان » !! وهنا دوت صيحات مرتفعة عديدة في الظلام في جميع أرجاء العنبر معبرة عن موافقتها على رأي الولوفي ثم نشبت سلسلة من المناقشات هنا وهناك .

وأصيب كونتا بصدمة نفسية عميقة بعد أن أدرك أن زميله في الأغلال رجل وثني كافر وأحس بذهنه يشتعل كالحريق . فالايمان بالنسبة له شيء عزيز عليه مثل حياته ذاتها . وأدرك أنه لن تكون هناك على الإطلاق اي زمالة بينهما بعد ذلك .

# ٣٨

وعلى ظهر السفينة قالت النساء أثناء غنائهن أنهن قد تمكن من سرقة وإخفاء عدد من السكاكين والأشياء الاخرى التى يمكن استخدمها كرماح . وعندما هبط الرجال الى العنبر ازداد انقسامهم الى مجموعتين : وكان زعيم المجموعة التى تنادى بضرورة مهاجمة التوبوب بدون أى تأخير رجلا ولوفيا تبدو عليه الشراسة والوحشية . أما أولئك الذين كانوا يؤمنون بضرورة التريث والاعداد والترقب فكانوا تحت زعامة الرجل الفولاهى ذى البشرة الصفراء المائلة الى السمرة والذى قام بخنق الخائن الأسود حتى الموت .

وعندما أصبح من الواضح أن الغالبية العظمى من الناس تفضل قيادة الفولاهى الحذر الحكيم قال العمدة مسديا النصيحة « يجب علينا جميعا أن نقف صفا واحدا وراء القائد الذى نتفق عليه » . ثم أصدر القائد الفولاهى أولى تعليماته « يجب علينا أن ندرس كل حركة تصدر عن التوبوب بعيون كالصقور . وعندما تحين ساعة الصفر يجب أن نكون محاربين بمعنى الكلمة »

وبعدئذ حدث فى يوم ما فوق ظهر السفينة أن وقف الناس المكبولون فجأة متجمدين فى دهشة بالغة وهم يحملقون - ويحملق معهم التوبوب ايضا - نحو سرب يضم مئات من الأسماك الطائرة التى ملأت الجو فوق سطح الماء مثل الطيور الفضية . وكان كونتا يرقب الموقف مشدوها عندما سمع فجأة صرخة عالية . وعندما استدار رأى الرجل الولوفى المتوحش وهو ينتزع عصا معدنية من يد أحد التوبوب ويهوى بها فوق رأس ذلك التوبوب فتتناثر مخه كالرذاذ فوق ظهر السفينة . وعندما أفاق التوبوب الآخرون من الصدمة كان الرجل قد سحق توبوبا آخر وألقاه على ظهر السفينة . وتم كل شىء بسرعة خاطفة حتى أن الولوفى كان يضرب التوبوب الخامس وهو يجأر كالثور الهائج عندما لمع وميض سكينة طويلة بتوت رأسه تماما من عند الكتفين . فهوى رأسه مرتطما على ظهر السفينة قبل أن يتهاوى جسده ويسقط وراحت الدماء تنبثق فى

تدفق من أماكن القطع فى كليهما • وكانت العينان فى الوجه مازالتا مفتوحتين والدهشة الشديدة تطل منهما • ثم انهال عليهم التوبوب بالضرب بالسياط وساقوهم الى العنبر وكبلوهم على وجه السرعة • وظل كل فرد من الرجال صامتا لفترة طويلة وأحس كونتا أنه لم يكن هو الشخص الوحيد الذىأعجب بشجاعة الولوفى الذى مات كما ينبغى أن يموت المحاربون • وتصاعدت زمجرات الغضب بسبب فشل القائد الفولاهى فى التصرف على وجه السرعة واصدار تعليماته للجميع بالاشتباك فى القتال • الا أن هذه الزمجرات قد توقفت عندما أعلن الفولاهى هذا البيان الدرامى « سيبدأ الهجوم فى المرة القادمة التى يصعد فيها الرجال الى ظهر السفينة لغسل اجسادهم • وسوف يموت الكثيرون منا ولكن اخواننا فى العنبر السفلى سينتقمون لنا » • فوافق الجميع على هذا البيان •

الا أن كونتا والرجال الآخرين طوال تلك الليلة بدأوا يسمعون أصوات تلاطم الاقمشة البيضاء الهائلة بسبب هبوب رياح شديدة• وسرعان ما سمعوا اصوات هطول مطر غزير • وبدأ كونتا يشعر بالاختناق وتصبب العرق منه • اذ قام التوبوب بسد الثقوب الموجودة أعلاهم لمنع دخول الماء الى العنبر • وبدأ الرجال فى التقيؤ والاختناق وراحوا يخشخشون بأغلالهم فى جنون ويصرخون فى رعب • وبدأت الضوضاء فى العنبر فى التلاشى تدريجيا بعد أن أصيب معظمهم بالاغماء •

وعندما أفاق كونتا من اغمائه وجد نفسه على ظهر السفينة وشاهد التوبوب وهم يخرجون جثث الرجال من العنبر ويلقونها الى جواره وراح رئيس التوبوب يفحص الجثث عن كثب ويلعن ويسب ويصدر آوامره بالقاء الجثث فى المحيط • وكان كونتا يدرك أن هؤلاء الرجال قد ماتوا وهم فى العنبر • وساءل نفسه : كيف يمكن لله ـ الذى قيل عنه أنه موجود فى كل مكان ـ ان يكون موجودا هنا • وبعدئذ اعتقد أن مجرد توجيه هذا السؤال لنفسه لن يجعله أفضل من الرجل الكافر الولوفى زميله فى الأغلال • ثم وجه أفكاره نحو الصلاة من أجل أرواح الرجال الذين تم القاؤهم فى المحيط فلحقوا على الفور بأجدادهم • وحسدهم •



# ٣٩

وأصيب الرجال المتبقون بالنزيف الدموى الحاد · وأصبحوا فى حالة شديدة من الاعياء وبدأ رئيس التوبوب فى معالجتهم بالمساحيق والدهانات · وبدأ كونتا يحلم أحلاما مشوشة عن العمل فى حقول جوفيور وعن أسماء تتراقص على السطح الزجاجى للنهر وعن قرعات جافة مليئة بالشاى الساخن · وكان يفيق من نومه أحيانا فيسمع نفسه وهو يتضرع الى الله بأعلى صوته ان يساعده على أن يلقى نظرة أخيرة على أفراد أسرته حيث كان كل واحـد منهم ـ أمورو وبنتـا ولامين وسوادو ومارى ـ بمثـابة حجر فى قلبه · وأحس بعذاب مرير عندما خطر على ذهنه أنه قد سبب لهم احزانا هائلة · وكان يحاول التفكير فى أى شىء آخر ولكن أفكاره سرعان ما كانت تنساق مرة اخرى الى شىء يشبه الطبلة التى كان بصدد صنعها لنفسه · وتذكر اليوم الذى ذهب فيه لقطـع جذع الشـجرة · ثم توالت الذكريات ، وتتابعت فى رأسه كالفيضان ·

وذات يوم نزل عدد من التوبوب أكثر من المعتاد من فتحة العنبر وكان ذلك فى وقت مبكر للغاية لم يعتـادوا المجىء فيه من قبل · واندفعوا على الممرات وقد ظهر على كلماتهم وحركاتهم قدر هائل من الانفعال والاثارة · وراحوا يفكون أغلال الرجال المكبلين ويساعدونهم على الصعود الى ظهر السفينة على وجه السرعة · ورمشت عينـا كونتا فى ضوء الصباح الباكر وهو يتعثر من خلال الفتحة وراء عدد من الرجال الذين كانوا أمامه فرأى عندئذ التوبوب الآخرين والنساء والأطفال واقفين عند الدرابزين · وكان التـوبوب يضـحكون من أعماقهم ويهتفون ويلوحون فى انفعال شديد · فألقى كونتـا نظرة عبر ظهور الرجال المليئة بالجروح المتجمدة وعندئذ رأى ...

لقد كانت قطعة من أرض الله بشكل لايدع مجالا للشك وان كانت مازالت غير واضحة المعالم نظرا لوجودها على مسافة بعيدة · معنى ذلك أن لهؤلاء التوبوب مكانا مايطأونه بأقدامهم ـ أرض البوبابو دو Toubabo doo التى قال عنها الأجداد السابقون أنها تمتد من مشرق الشمس الى مغربها ، وارتعد كونتا من قمة رأسه الى اخمص

قدميه وتصبب العرق منه بغزارة متلألئا فوق جبينه . لقد انتهت الرحلة التي عاش دقائقها من أولها لآخرها . الا أن دموعه الغزيرة سرعان ما أحالت خط الشاطيء الى ضباب رمادى متأرجح لأنه كان يدرك أن الأحداث المقبلة ستكون أشد سوءا .

XXXXXXXXXXXXXX

## ٤٠

وعاد الرجال المكبلون الى ظلام العنبر وظلوا صامتين في رعب شديد . وفجأة بدأ أحد المندينكيين يصرخ بصوت عال وسرعان ما انضم اليه جميع الباقين ـ الى أن ساد الجو ضجيج جنونى من التسبيح والصلوات والتوسلات وجلجلة الأغلال التى راح الرجال المكبلون يهزونها بأقصى ما عندهم من قوة . ووسط هذا الضجيج الجنوني سمع كونتا صوت ازاحة المزلاج عن الفتحة العلوية في سطح السفينة وأخذ التوبوب يدفعونهم للخروج الى السطح مرة أخرى . وراحوا يحلقون لهم رؤوسهم الواحد تلو الآخر ويدهنون أجسامهم بالزيت ثم ألبسوهم ملابس لستر عوراتهم . وخطر على ذهن كونتا انهم عندما يأكلون لحومه ويمتصون عظامه ستكون روحه قد هربت بالفعل ولجأت الى الله . وأخذ يصلى صلاة صامتة وهو مغلق العينين . وأفاق من صلاته على ارتطام السفينة بشيء صلب تفوقفت ساكنة لأول مرة بعد مرور أربعة شهور ونصف منذ أن غادرت أفريقيا . واقتيد الرجال المكبلون للخروج من السفينة وطئت أقدامهم أرض التوبوب وساروا في طابور بالقرب من أناس بيض ساخرين .. وكانت مجموع الروائح المنبعثة من البيض بمثابة لطمة من قبضة عملاق على وجه كونتا . ولمح كونتا اثناء المسير اثنين من الرجال السود ليسا من السفينة الكبيرة : أحدهما مندينكى والآخر سيريرى ! فأصيب بذهول شديد . اذن فهو وزملاؤه ليسوا وحدهم في هذه الأراضى المخيفة . وأحس كونتا برغبة قوية في الاندفاع نحوهما ومعانقتهما ، الا أنه لاحظ تعبيرات الخوف عليهما ولم يستطع أن يفهم السبب الذى جعلهما يسيران وراء واحد من التوبوب في انقياد سلس ـ رغم أن هذا التوبوب لم يكن يحمل

سلاحا في يده ـ ولا يحاولان الهرب منه أو قتله · ولم يكن لديه متسع من الوقت للتفكير في ذلك الأمر ، لأنهم وجدوا أنفسهم فجأة لدى الباب المفتوح لمنزل كبير مبنيمن الطوباللبن مع وجود فراغات قليلة مكشوفة عليها قضبان حديدية · ودخلوا من البـاب الواسع المفتوح ثم سيقوا الى غرفة كبيرة · وتحت الضوء المعتم شاهد كونتا خمسة رجال متجمعين عند احد الحـوائط · الا أنهم لم يرفعـوا رءوسهم أثناء قيام التوبوب بتكبيل كونتا ورفاقه فيأساور حديدية سميكة متصلة بسلاسل قصيرة مربوطة في الجدران ·

وفي صباح اليوم التالي نظر كونتا فيما حوله نحو زملائه الذين جاءوا معه في السفينة الـكبيرة ·· فلاحظ أنهم جميعا لا يرون ولا يسمعون شيئا ـ وأنهم منسحبون الى داخل أنفسهم · وأدار رأسه متفحصا الرجال الخمسة الذين كانوا متواجدين في الغرفة لدى وصولهم ·· فلاحظ أنهم يرتدون ملابس توبوب بالية كما لاحظ أن اثنين منهم لهما بشرة بنية فاتحة وهي البشرة التي تنجم عن اغتصاب رجل من التوبوب لامرأة سوداء !

ومن خلال النافذة ذات القضبان الحديدية ·· أحصى كونتا أخيرا ستة أيام وخمس ليال · وكان قد سمع خلال الليالي الاربع الاولى صرخات آتية من مكان ما غير بعيد وكانت هي صرخات النساء اللائى كن معه في السفينة الكبيرة · وكان عليه هو وزملاؤه أن يجلسوا هناك في اذلال لعجزهم عنالدفاع عن نسائهم ·ولكن الامر كان أشد سوءا في هذه الليلة لانه لم تكن هناك آية صـيحات صادرة عن النساء · فما هو الرعب الجديد الذى أحاق بهن ؟



# ٤١

وبمجرد الانتهاء من تناول العصيدة في صباح اليوم السابع ·· دخل اثنان من التوبوب الغرفة ومعهما أكوام من الملابس ثم راحا يفكان قيود الرجال المكبلين الواحد تلو الآخر ويوضحان لهم كيفية ارتدائها · وبعد وقت قصير سيق كونتا في مقدمة طابور مكون من

ستة رجال الى حلقة المزاد • ثم اقتيد كونتا نحو المنصة المرتفعة وأخذ التوبوب الذى ينادى بصوت مرتفع يقول :
ـ انه فى أوج نشاطه •• وهو صغير فى السن ورشيق الحركة •
وكان كونتا مخدرا بسبب الرعب حتى أنه لم يكد يلحظ جمهور التوبوب وهم يقتربون منــه ويفحصون أســنانه وظهره وابطيه وصــدره • ثم تراجع أولئك الذين فحصــوه الى الخلف وأخذوا يصيحون صيحات غريبة :

ـ ثلثمائة دولار •• بلثمائة وخمسون دولارا •
فضحك التوبوب المنــادى الذى يقف على المنصـــة فى شىء من الاحتقار • فقال اثنان من الجمهور المحتشد •
ـ خمسمائة دولار •• ستمائة دولار •
فبدا على التوبوب المنادى شىء من الغضب وهو يقول
ـ « انه زنجى ممتاز وصغير فى السن • هل لى أن أسمع سبعمائة وخمسين دولارا ؟
فصاح واحد من الجمهور :
ـ سبعمائة وخمسون دولارا
فردد المنادى هذا الرقم عدة مرات وبعدئذ صاح :
« ثمانية » عدة مرات متتالية الى أن رد واحد من الجمهور قائلا : « ثمانية » •
وعندئذ وقبل أن يجد المنادى فرصة لترديد الرقم الاخير صــاح شخص آخر قائلا :
ـ « ثمنمائة وخمسون دولارا » •

ولم تصدر أى نداءات أخرى • فقام التوبوب المنادى بفتح القفل الموجود فى سلسلة كونتا ثم دفعه نحو توبوب كان يشق طريقه بين الجمهور فى اتجاه المنصة • ثم شاهد كونتا رجلا أسود قادما وراء التوبوب الذى أعطاه المنادى سلاسله • فنظرت عينا كونتا فى توسل الى ذلك الرجل الاسود الذى كانت له ملامح ولوفية بشكل أكيد : يا أخى انك من نفس بلدى •• الا أن الرجل الاسود بدا عليه كأنه لا يرى كونتا وراح يجذبه بعنف من سلاسله وسارا لمسافة قصيرة ثم توقف الرجل الاسود عنــد صندوق كبير مرفوع عن الارض فوق أربع عجلات خلف أحــد تلك الحيوانات الكبيرة التى تشبه الحمير •

وفي صوت غاضب أمسك الرجل الاسود كونتا من فخذيه ودفعه الى أرضية الصندوق • فأغلق كونتا عينيه بعد أن أحس أنه لا يريد أن يرى أي شيء على الاطلاق وخاصة ذلك الخائن الاسود الكريه ! وبعد مرور فترة بدت طويلة أدرك كونتا من خلال حاسة الشم عنده أن التوبوب الذى اشتراه قد عاد • وقال التوبوب بعض الكلمات وبعدئذ تسلق هو والرجل الاسود فوق المقعد الامامى • وبدأت الدابة تجر الصندوق فى تدحرج الى الامام • وبعد مرور وقت طويل بدأ كونتا ينظر للخارج من فوق حافة الصندوق فرأى على مسافة بعيدة عند نهاية أحد الحقول مجموعة صغيرة من الناس منحنين للأمام لتأدية بعض الاعمال على ما يبدو • وبينما كانت الشمس تغرب وراء الافق مر الصندوق الذى يوجد به كونتا على صندوق آخر مثله يسير فى الاتجاه المضاد • وكان به توبوب جالس على كرسى القيادة وبيده لجام • وفى الصندوق خلف التوبوب كان يوجد ثلاثة أطفال سود فى المرحلة الاولى من العمر •

وعندما تزايد عمق الشفق الاحمر سمع كونتا التوبوب يقول شيئا ما للرجل الاسود • وقبل أن ينقضى وقت طويل انعطف الصندوق وسار فى طريق فرعي صغير • فاعتدل كونتا فى جلسته وسرعان ما رأى على بعد من خلال الاشجار منزلا كبيرا أبيض اللون • فشعر بالانقباض فى معدته : ترى ما الذى سيحدث له ؟ وهل سيتم فى هذا المكان تناول لحومه ؟ وتهاوى فى الصندوق متهالكا كما لو كان جثة هامدة !





# ٤٢

وتوقف الصندوق المتدحرج • ونزل التوبوب من العربة وتصافح فى حرارة مع توبوب آخر كان فى انتظاره ثم سارا سويا نحو المنزل • ثم قام السائق بمساعدة كونتا على النزول من العربة وقام بأغلاق الطرف السائب من سلسلة كونتا حول عمود سميك فأحدث ذلك صوتا مثل الطقطقة • وبعدئذ وضع أمامه وعاءين : أحدهما به

ماء والآخر به طعام • وبعد مرور بعض الوقت راح كونتا يتحسس في الظلام بحثا عن وعاء الماء وشرب كمية قليلة ولكنه لم يشعر بالتحسن وخيل اليه أنه أصبح قشرة خارجية خاوية • وأحس كأن الله قد تخلى عنه • ولكن لماذا تخلى عنه الله ؟ وما هو ذلك الشيء الرهيب الذى ارتكبه في حياته بحيث يعاقبه الله عليه على هذا النحو؟ وحاول أن يستعيد كل الاحداث الهامة التى فعلها ـ سواء أكانت خطأ أم صوابا ـ حتى صباح ذلك اليوم الذى ذهب فيه ليقطع جذعا من الخشب ليصنع لنفسه طبلة • وبدا له أن كل أنواع العقاب الذي أنم به كان سببه اهماله وعدم يقظته واستغراقه فى أحلام اليقظة •

وظل كونتا بدون نوم حتى ظهرت الخيوط الاولى للفجر فجاهد لكى يسجد على ركبته وراح يصلي صلاة الصبح • وعندما أشرقت السماء تدريجيا بالانوار مد كونتـــا يده مرة أخرى نحو وعاء الماء وشرب الكمية المتبقية به • وبعدئذ جاء أربعة من السود ورفعوا جسد كونتا ووضعوه فى الصندوق الذى سيق بعد ذلك الى المنزل الابيض الكبير حيث كان التوبوب منتظرا للركوب فوق المقعد بجوار السائق مرة أخرى • وواصل الصندوق المسير فى نفس الاتجاه الذى كان يسير فيه من قبل •

ورأى كونتا أثناء المسير شخصين نحيلين غريبين لهما بشرة نحاسية وشعر طويل ومربوط ومتدل الى أسفل الظهر مثل الحبل وكانا يسيران بسرعة وخفة ويشـــدان ازارا من جلد الحيوان على خصرهما ليســـتر العورة كما كانا يحملان مجموعة من الاسهم والاقواس وأدرك كونتا أنهما ليسا من التوبوب ولا من أفريقيا بل وكانت رائحتهما أيضا من نوع مختلف • ولم يبد على أحدهما أنه قد حظ الصندوق المتدحرج لدى مروره بجانبهما واهالة التراب عليهما •

وعندما غربت الشمس حول كونتا وجهه نحو الشرق وما أن فرغ من تأدية صلاة المغرب الصامتة لله تعالى حتى حل الشفق الاحمر •

وبعد مرور فترة طويلة انعطفت العربة نحو منـزل أبيض كبير ثم توقفت عنده ولم يخرج توبوب أو أشـــخاص سود لملاقاتهم • ونزل التوبوب وسار نحو المنزل الكبير • ثم ســارت العربة قليلا نحو الاكواخ القريبة وتوقفت • واكتشـف أنف كونتـــا وجـود

أشخاص سود آخرين في مكان قريب إلا أن أحدا منهم لم يخرج ٠٠ فتزايدت عنده الآمال في الهرب • ونزل السائق من العربة ووضع يديه تحت المقعد وفك قيود كونتا ثم أمسك بالطرف السائب من سلاسل كونتا باحــدى يديه بينما كان يسير متجهــا الى خلف الصندوق • ومع ذلك فان شيئا ما جعل كونتا يتمسك بالتراجع للخلف • فجذب الرجل الاسود سلاسل كونتا في حدة وصرخ ببعض الكلمات • وبينما كان الرجل الاسود واقفا يرقب في حذر أخذ كونتا يقاوم وهو ساجد على قدميه ورجليه ـ محاولا أن يبدو وكأنه أكثر ضعفا مما هو عليه حقيقة ـ وبدأ في الزجف للخلف في بطء وتثاقل بقدر ما يستطيع • وعندئذ حدث ما كان يتمناه كونتا !؟ اذ فقد الرجل الاسود صبره وانحنى بالقرب من كونتا ثم رفعه بذراع واحدة قوية لاعلى ثم فوق نهاية حافة العربة وقد ساعدت ركبته المرفوعة على اعاقة ارتطام كونتا بالارض •

وفي تلك اللحظة انطلق كونتا كالقذيفة لاعلى وتشبثت يداه بعنق السائق مثل فكي الضبع الساحقين للعظام • فسقطت الشعلة من يد الرجل الاسود بينما كان يترنح للخلف وهو يصيح صيحة مكتومة • الا أنه استعاد توازنه وهاجم كونتا بيديه الكبيرتين • ولكن كونتا قد وجد القوة التي تعينه على تشديد قبضة يده حول الرقبة بينما كان يتثنى بجسده في استماتة لكي يتفادى الضربات التي سددها السائق بيديه وقدميه وركبتيه والتي كانت تشــبه الهراوة في شدتها • ولم يخفف كونتــا من عنف قبضته على عنق الرجل الاسود الا بعد أن ترنح الرجل أخيرا للخلف ثم الى أسفل مع ظهور أصوات غرغرة عميقة منبعثة من فمه ثم ارتمى على الارض كالجثة الهامدة !

فقفز كونتا واقفا ٠٠ وانسل كالطيف مبتعدا عن الســائق الملقى على الارض وعن الشعلة المقلوبة ٠٠ وراح يجري وهو منحني لاسفل وساقاه ترتطمان في أعواد القطن المغلفة بالصقيع ٠٠وأخذت عضلاته التي ظلت غير مستخدمة لفترات طويلة تصرخ من الآلام ، الا أن تيار الهواء البارد فوق بشرته كان مريحا • وقد اضطر لأن يمنع نفسه من الصراخ طربا عندما شعر في ابتهاج شديد بجنون الحرية •

# ٤٣

وبدأت النباتات الشائكة والنباتات المتسلقة المنتشرة بين الشجيرات الصغيرة عند حافة الغابة كأنه يمتد نحو ساقى كونتا ويمزقها . واستمر كونتا فى الغوص فى الغابة الى أن أصبحت الاشجار أمامه رفيعة – أو ربما تخيل ذلك – بعد أن تحولت فجأة الى شجيرات . ثم فوجىء بوجود حقل قطن آخر شاسع ممتد أمامه وخلف ذلك الحقل يوجد منزل أبيض كبير آخر وتقع الى جواره أكواخ داكنة صغيرة . فأصيب بصدمة نفسية بالغة ثم قفز عائدا الى داخل الغابة بعد أن أدرك أن كل ما فعله هو أنه عبر امتدادا ضيقا من أراضى الغابات يفصل ما بين مزرعتين كبيرتين من مزارع التوبوب .

وعندما تعثر كونتا فى مشيته أثناء تراجعه فى عمق الغابة ، أدرك بعد فترة قصيرة أن عضلاته لن تقوى على حمله لمسافات أخرى بعيدة . وتأكد أنه ينبغى عليه أن يتراجع الى أكثر الاماكن كثافة فى الغابة ويختبىء فيها .

واستأنف الزحف الى أن استقر به المقام أخيرا لدى ظهور خيوط النهار الاولى فى مكان شديد الكثافة . وكان كل شىء ساكنا للغاية باستثناء أنفاس كونتا اللاهثة . وعندئذ تذكر نفسه عندما كان يقضى الليالى الطويلة فى حراسة حقول الفول السودانى ومعه كلبه الوولو . وفى نفس تلك اللحظة ترامى الى سمعه من مسافة بعيدة بنباح عميق لاحد الكلاب . فأعتقد أنه من المحتمل أن يكون ذلك النباح قد جاءه من داخل عقله فقط . ومع ذلك فقد شدد من يقظته وارهاف سمعه . ولكن النباح وصل الى مسمعه مرة أخرى – وعندئذ فقط أدرك كونتا أن النباح صادر عن اثنين من الكلاب . ولم يكن لديه متسع من الوقت

فركع فى اتجاه الشرق وصلى لله تعالى متضرعا لكي ينقذه . وما أن انتهى من الصلاة حتى سمع النباح العميق مرة ثانية وقد أصبح أكثر اقترابا فى هذه المرة . ثم تأكد له بعدئذ أنه سمع صياح الرجال خلف الكلاب . فأحس كونتا بالارتباك الشديد وبدأ

يجرى متعثرا في الشجيرات الشوكية · وفجأة سمع صوت انفجار فأحنت الصدمة ركبتيه وجعلت ساقيه تتباعدان عن بعضهما وتتشابكان مع النباتات الشوكيه ·

وبدأ الكلبان ينبحان عند نفس حافة المكان الملىء بالاشجار الكثيفة وبعد لحظات قليلة راح الكلبان يندفعان بين الشجيرات القصيرة نحوه مباشرة وفي لحظات هجم الكلبان عليه وأخذا يعضانه عضات سريعة فجائية · ثم قفزا فيتراجع استعدادا للهجومعليهمرة ثانية ، فراح كونتا ينبح هو الآخر مثل الكلب ويقاتل في جنون ليحمي نفسه منهما مستخدما يديه كالمخالب كما أخذ يراوغ ويقفز للخلف مبتعدا عنهما ! وبعدئذ سمع كونتا الرجال وهم يصيحون ثم صوت انفجار مدوى مرة أخرى · وبينما بدأ الكلبان يخففان من حدة هجومهما ،وسمع كونتا الرجال وهميسبون ويلعنون ويضربون بسكاكينهم في الشجيرات الكثيفة ليشقوا طريقا لهم ·

وخلف الكلاب النابحة ، رأى أولا الرجل الاسود الذى قام بخنقه · وكانت احدى يديه ممسكة بسكين ضخمة واليد الاخرى بها هراوة قصيرة وحبل · وكان يبدو عليه أنه قرر قتل كونتا · وبعدئذ رأى كونتاالتوبوب الذى أحضره الى هنا ومعه توبوب آخر لم يره من قبل · وهبطت ضربة ثقيلة على رأس كونتا أصابته بصدمة تخدير رحيمة · وبعدئذ احس فى غير وضوح بالحبل وهو يلتف حول جسده وكتفيه ويحز فى بشرته الدامية · ثم أحس بنفسه وهم يكادون يرفعونه من بين الشجيرات الشائكة ويدفعونه للمسير ! وعندما وصلوا أخيرا الى حافة الغابة ، رأى كونتا ثلاث دواب من النوع الذى يشبه الحمير مقيدة بجوار أشجار عديدة · وأثناء اقترابهم من الدواب ، حاول كونتا فجأة أن يلوذ بالفرار مرة ثانية ، الا أن جذبة فجائية شرسة من ناحية الطرف السائب للحبل جعلته ينقلب على الارض ـ ثم قام أحدهم بركله على ضلوعه ·

وبدأ التوبوب الثانى السير أمام كونتا وهو ممسك بالحبل وراح يجذبه ، وكونتا يتعثر ، نحو شجرة قريبة من الدواب المقيدة · ثم ألقى الطرف السائب من الحبل على طرف منخفض وراح الرجل الاسود يشدد من جذبه الى أن أصبحتقدما كونتا لاتكادان تلمسان الارض · وبدأ كرباج التوتوب يصفر فى الهواء وهو يلاحق ظهر كونتا بضربات متتالية · فتضور كونتا من الالم تحت وطأة السياط ورفض احداث أى صوت أو بكاء الا أنه كان يحس أن كل ضربة

سوط تكاد تشطره الى نصفين · وأخيرا بدأ فى الصراخ ومع ذلك استمر الضرب عليه بعنف !

وكان كونتا قد وصل الى مرحلة الاغمـــاء تقريبا عندما توقف الضرب · فأحس فى نوع من الغموض أن جسده يتم انزاله وسقوطه فى انهيار على الارض · وبعدئذ أحس بجســـده وهم يرفعونه ويضعونه على ظهر أحدى الدواب ثم شعر ببعض الحركة والاهتزاز ·

والشيء التالى الذى أدركه كونتا ـ دون أن تكون لديه أى فكرة عن طول الفترة الزمنية التى انقضت ـ هو أنه قد وجد نفســـه متمددا على ظهره وباسطا ذراعيه وقدميه فى أحد الاكواخ · وأنه مقيد من رسغيه ومعصميه بسلاسل ، وأن هذه السلاسل مثبتة فى أربعة أعمدة موجودة فى أركان الكوخ ·

وكانت أقل حركة تصدر عنه تسبب له آلاما مبرحة حتى أنه اضطر لفترة طويلة أن يظل مستلقيا فى ثبات دون حراك ، بينما العرق يتصبب من وجهه ·· وأنفاسه تتردد فى شكل شـــهقات ضحلة سريعة ·

وعندما ظهرت تباشير الغسق من خلال الفتحة المكشوفة فوقه ، سمع كونتا صوت نفير غريب آتيا من مكان قريب للغاية · وقبل أن ينقضى وقت طويل سمع أصوات أشخاص عرف من رائحتهم أنهم مجموعة كبيرة من أناس سود يمرون بالقرب من الكوخ الذى يرقد فيه · وبعدئذ شم رائحة طعام · وعندما اختلطت تشنجات جوعه مع الدق الموجود فى رأسه ومع آلام ظهره الشديدة وبخ نفسه لعدم انتظاره حلول الوقت الملائم للهرب وقال لنفسه أنه كان ينبغى عليه أن يتعمق أولا فى دراســـة ومراقبة هذا المكان الغريب وأهاليه الكفرة الوثنيين ·

وكانت عينا كونتا مغلقتين عندما فتح باب الكوخ واستطاع أن يشم رائحة الرجل الاسود الذى خنقه بيديه وهو نفس الرجل الذى ساعد على الامساك به فى الغابة · فرقد كونتا ساكنا · متظاهرا بالنوم الى أن نزلت على ضلوعه رفسة قوية جعلته يفتح عينيه على الفور · ثم وضع الرجل الاســـود شيئا ما على الارض أمام وجه كونتا مباشرة وألقى بغطاء فوق جسد كونتا وخرج مغلقا الباب فى عنف ·· ووجد كونتا نوعا من عصيدة الذرة واللحوم المكومة فوق اناء مستدير مسطح وبجوار الطعام توجد قرعة ماء · واستحال عليه

تناول الطعام بيديه نظرا لان معصميه كانا متباعدين عن بعضهما البعض • ولكن الوعاءين كانا قريبين على نحو يسمح له بمد فمه لتناول الطعام والماء • وكان على وشك أن يقضم قطعة من اللحم عندما شم رائحتها وأدرك أنها لحوم الخنزير القذرة • وعندئذ ارتفعت العصارة الصفراء من معدته لاعلى وراح يتقيأ فوق الطعام مباشرة •

وأخذ يغفو ويصحو عدة مرات طوال الليل ويتعجب من أمر أولئك السود الذين يشبهون الافارقة ومع ذلك يأكلون لحم الخنزير • فذلك معناه أنهم جميعا لا يعرفون تعاليم الله أو هم يعرفونها ولكنهم يكابرون ويتنكرون لها • وفى صمت راح يتوسل الى الله أن يغفر له مقدما فى حالة اذا ما لمست شفتاه أى لحوم خنزير بدون علم منه أو حتى اذا أكل من أى طبق سبق أن وضع فيه فى أى وقت قطع من لحوم الخنازير •

وفى صباح اليوم التالى وضع طعام جديد أمامه • ثم جاء التوبوب وأخبر كونتا بحركات تهديدية أنه سيعاقب بالضرب اذا رفض تناول الطعام • وبعد أن غادر التوبوب الكوخ حرك كونتا يده اليسرى وراح ينبش فى التراب فى نفس المكان الذى كان التوبوب يقف عليه • وجذب التراب بالقرب منه وأغمض عينيه بشدة وناشد الارواح الشريرة أن تلعن للأبد ذرية التوبوب وأسرته •



# ٤٤

وأحصى كونتا أربعة أيام وثلاثة ليال وهو موجود فى الكوخ • وكان كونتا يشعر بعاطفة خاصة نحو الشمس مع شروقها فى كل يوم • وتذكر الأقوال التى قالها الرجل العجوز فى السفينة الكبيرة الذى كان عمدة لاحدى القرى قبل اختطافه • ان الشمس التى تشرق مع كل يوم جديد سوف تذكرنا أنها أشرقت فى بلادنا افريقيا التى هى سرة البطن فوق جسد الارض •

وفى صباح اليوم الخامس دخل الرجال الاسود عقب نفخ بوق

الاستيقاظ بفترة قصيرة الى كوخ كونتا · وفك قيوده وخرج به من الكوخ · وبهرت القوة الكاملة لضوء الشمس عين كونتا حتى انه لم يستطع رؤية شيء في بادىء الامر · ثم بدأ يتبين طابورا من الناس السود يضم حوالى اثنى عشر بينهم بعض النســـاء ولاحظ انهم جميعا لا يلبسون حجابا للوقاية من الشر حول العنق أو الذراع ·· كما لاحظ انهم يحملون أشياء تشبه السكاكين الطويلة القوية ويتجهون نحو الحقول الشاسعة ووراءهم توبوب ممتطيا حصانا ·

وفجأة بدأ الرجل الاسود يتحسس صدر كونتا باصبعه ويقول « أنت – أنت توبى » ولم يفهم كونتا · وظهرت دلائل عدم الفهم عليه · لذلك فقد ظل الرجل الاسود يلكزه على صدره قائلا نفس الجملة مرات عديدة· وفي بطء أدرك كونتا أن الرجل الاسود يحاول أن يعينه على فهم عبارة يقولها بلغة التوبوب ··

وعندما استمر كونتا في الحملقة في صمت ، بدأ الرجل الاسود يلكز نفسه على صدره وهو يقول : «أنا سامسون · أنا سامسون» ثم حرك أصبعه التي يلكز بها مرة ثانية الى صدر كونتا وهو يقول : « أنت تو – بى · توبى · توبى · سيدى يقول أن أسمك توبى » ·· وعندما بدأ المعنى يتضح لكونتا تدريجيا ، بذل كل مالديه من ضبط النفس للسيطرة على طوفان الغضب الذى تأجج فى داخله وذلك لكيلا تظهر على وجهه أى دلائل تدل على أنه قد ادرك المعنى · وأراد أن يصيح فى وجهه قائلا ( أنا كونتا كينتا الابن الاول لأمورو الذى هو ابن الرجل المقدس كيرابا كونتا كينتا ) ·

وفقد الرجل الاسود صبره وأخذ يسب ويلعن ويهز كتفيه · ثم قاد كونتا الى كوخ آخر وأشار له بيديه لكى يغتسل فى حوض كبير به بعض الماء · وعندما انتهى كونتا من الاغتسال القى اليه الرجل الاسود بملابس توبوب اخرى ليغطى بها صدره وساقيه ثم القى اليه بقبعة مصنوعة من القش الاصفر · وقاده بعد ذلك الى كوخ آخر·فالقت اليه امرأة عجوز بطبق ملء بالعصيدة ،وبعد ذلك ذهبا الى كوخ ضيق دلت رائحته مقدما على نوعية استعماله · ثم اقتاده للحقول للعمل مع الاخرين فى حصد عيدان القمح · وأحس كونتا باحتقار شديد لهؤلاء السود ، حيث قد بدا عليهم انهم لا يعرفون هويتهم ولا نوع المهن التى كانوا يقومون بها فى أفريقيا · وعندما دوى البوق عقب غروب الشمس مباشرة معلنا انتهاء العمل سار جميع السود الى الانتظام فى طابور وعادوا الى اكواخهم · وما

أن عاد كونتا الى كوخه حتى سجد على الارض ولامست جبهته التراب فوق أرضية الكوخ في الاتجاه الذى تشرق منه الشمس وراح يصلي لفترة طويلة حيث كان عليه أن يؤدي صلاة الظهر والعصر ، علاوة على صلاة المغرب ٠

وبعد أن انتهى كونتا من الصلاة ، جلس منتصب القامة وتحدث بصوت منخفض لبعض الوقت بلغة « السيرا كانجو » السرية متوسلا لأجداده مساعدته على الصبر وتحمل ما الم به ٠ وللمرة الالف قفز الى ذهنه كابوس اختطافه ٠ لو كان الغصن الذى انكسر وحذره قد انكسر في وقت مبكر بخطوة واحدة لكان قد تمكن من القفز واختطاف رمحه ٠٠ وامتلأت عيناه بدموع الغضب ٠ وبدا له أن كل ما عرفه على مدى شهور لا نهاية لها هو اقتفاء أثره ومهاجمته والامساك به وتكبيله بالاغلال !

واستلقى على مرتبته ٠٠ وراح يفكر في والده ، ووالدته ، واخوته ٠٠ وفي جميع اهالى جوفيور وكل ما يتعلق بقريته وتلاحقت مناظر جوفيور متتابعة في ذهنه كالوميض على مدى النصف الاول من الليل الى ان ارغم نفسه على اغلاق عينيه فجاءه النوم أخيرا ٠٠

## ٤٥

ومن وقت لآخر كان التوبوب الذى أحضر كونتا الى هذا المكان وهو الرجل الذى يسمونه Massa أى السيد يتجول بحصانه في الحقول أثناء قيامه بالعمل ٠ وعندما كان يتحدث مع التوبوب الآخر الذى يسمونه Oberser أى المشرف على العمل ٠٠ كان ذلك المشرف يتملقه ويتودد اليه وكأن الناس السود ليست لديهم أى اهتمامات فى حياتهم سوى ادخال السرور والرضى على التوبوب الذى يلهب ظهورهم بالسياط ٠ ولم يستطع كونتا أن يفهم السر فى ذلك الشيء الذى حدث بحيث دمر عقولهم على هذا النحو المريع حتى انهم أصبحوا يسلكون مسلك الماعز والقرود ٠ ربما كان السبب انهم قد ولدوا فى هذا المكان وليس فى افريقيا ٠ لأن البيوت الوحيدة التى عرفوها طوال حياتهم هى أكواخ التوبوب المصنوعة

من كتل خشبية ملتصقة مع بعضها بالطين وشعر الخنازير . فهؤلاء الناس السود لم يدركوا مطلقا المعنى الكامن وراء بذلهم العرق تحت وطأة الشمس لا من أجل اسيادهم ولكن من اجل أنفسهم واهاليهم .

ولكن كونتا أقسم الا يصبح مثلهم مهما كانت مدة اقامته بينهم . وكان ذهنه في كل ليلة يعيد التفكير في الوسائل التي تعينه على الهرب من هذه الاراضي الحقيرة . ولم يستطع الامتناع عن توبيخ نفسه في كل ليلة تقريبا بسبب فشله في الهرب في المرة السابقة .. وعندما كان يسترجع في ذهنه الظروف التي واجهته بين الشجيرات الشوكية والكلاب الشرسة كان يدرك عندئذ انه ينبغي عليه أن يضع خطة افضل للهرب في المرة القادمة . فهو أولا ينبغي أن يصنع لنفسه حجابا للوقاية من سوء الطالع لكي يضمن لنفسه الأمان والنجاح وبعدئذ ينبغي عليه اما ان يصنع أو يعثر على نوع من السلاح . فلو انه كان يمتلك أثناء محاولة الهرب الاولى عصاة مدببة .. لكان قد تمكن من أستخدامها مثل الرمح ورشقه في بطن هذين الكلبين ولكان قدتمكن من الهرب بعيدا قبل أن يتمكن الرجال من اللحاق به . واخيرا يجب عليه أن يكون على معرفة بالمناطق الريفية المجاورة حتى يتمكن من البحث عن افضل الاماكن التي يتخفى فيها .

وأدرك كونتا أنه سيضطر الى أن يتعلم قدرا من لغة التوبوب اذا ما اراد لنفسه في أي وقت أن يفهم ويعرف قدرا كافيا من المعلومات عن التوبوب وعاداته .. لان ذلك سيساعده على الهرب منهم . وفي سرية تامة تعلم بعض الكلمات دون أن يدى اى شخص يعرف ذلك : خنزير ـ بطيخ ـ لوبيا ـ ملاحظ عمال ـ سيد . وتعلم بصفة خاصة تعبير « نعم ياسيدى » وهو يكاد يكون التعبير الوحيد الذى يقوله الناس السود لافراد التوبوب .

الا ان معظم كلمات التوبوب الاخرى التي كان يسمعها كونتا كانت تحيره . ولكنه كان يحاول فهم معانى تلك الكلمات . ثم بدأ تدريجيا يربط ما بين أصوات معينة وبين أشياء واعمال معينة . ومع ذلك فقد كان هناك صوت واحد حيره للغاية خاصة ـ رغم انه سمعه مرارا وتكرارا من التوبوب والسود على حد سواء وهم يصرخون به في كل يوم تقريبا . وكان ذلك الصوت هو كلمة Nigger أي زنجي فكان يسأل نفسه في تعجب: ترى ماذا يعنون بكلمة زنجي ؟

# ٤٦

وبعد الانتهاء من أعمال حصاد القمح بدأ ملاحظ العمال يكلف الرجال السود بالقيام باعمال متنوعة عقب النفخ فى البوق الصدفى فى فجر كل يوم • وفى صباح أحد الايام تم تكليف كونتا بقطف كميات كبيرة من القرع العسلى ونقلها فى عربة الى المخزن • وعندما انتهى كونتا من جنى محصول القرع العسلى وتخزينه •• أرسل مع كثيرين آخرين الى بستان ملىء بالاشجار حيث صدرت التعليمات لهم بهز اغصان هذه الاشجار لكي تسقط ثمار الجوز والبندق واللوز الموجود بها على الارض ليقوم اطفال صغار بالتقاطها ووضعها فى سلال وعندما انتهى ذلك صدرت الاوامر للرجال للعمل فى ترميم المبانى والاسوار التى تحتاج للاصلاح • ومع مرور الوقت بدأ كونتا يحس أن هؤلاء السود الكفار غير ميئوس منهم تماما • فهم على الرغم من الجهل الذى يسيطر عليهم كانوا يفعلون بعض الاشياء التى لها طابع افريقى محض دون أن يدركوا ذلك • فقد سمع منهم طوال حياته معهم نفس أصوات الصياح والتعجب وقد صاحبتها نفس حركات الايدى وتعبيرات الوجه كما أن الطريقة التى يضحكون بها بكل أجسادهم تشبه تماما طريقة ضحك الناس فى جوفيور •

كما ان النساء السوداوات قد ذكرن كونتا بافريقيا حيث يطلقن شعورهن ويربطنه فى خيوط على شكل ضفائر مشدودة للغاية وهى نفس الطريقة التى يستخدمها نساء افريقيا • كما لاحظ كونتا أن النساء فى هذا المكان يعقدن قطعا من القماش فوق رؤوسهن الا انهن لا تربطن هذه الاقمشة بالطريقة السليمة • كما كان غناء النساء والرجال ذا طابع افريقى تماما ••

ولكن الذى جعل قلب كونتا يلين بعض الشىء تجاه هؤلاء السود هو انه قد بدأ يلاحظ أن كراهيتهم له كانت تبدو فقط فى الاوقات التى يكون فيها الملاحظ أو « السـيد » قريبـا منهم • اما اذا كان كونتا متواجدا فى أى مكان لا يضم سوى السود انفسهم كان معظمهم يومئون برؤوسهم لتحيته على وجه السرعة •• وعندئذ كان كونتـا يلاحظ على وجوهم تعبيرات القلق والاهتمام بسبب تدهور الجرح

فى كعبه الايسر • وكان يحس أحيانا أن لديه الرغبة فى الرد على تحيتهم له •

وفى أحدى الليالى عندما استغرق كونتا فى النوم ثم جفل مستيقظا مرة اخرى مثلما كان يحدث له كثيرا ، واضطجع محملقا فى الظلام وهو يشعر ان الله تعالى قد اراد له على نحو ما ولسبب ما ان يتواجد هنا فى هذا المكان وسط القبيلة الضائعة لاسرة سوداء كبيرة ترجع جذورها الى الاجداد القدامى • الا ان هؤلاء السود فى هذا المكان ـعلى النقيض منهـ لم تكن لديهم أية معلومات عن هويتهم والمكان الذى جاءوا منه •

ونظرا لان كونتا قد أحس بطريقة غريبة بوجود جده المقدس متجسدا فى كوخه ، فقد مد يده فى الظلام • ورغم انه لم يجد شيئا الا انه بدأ يتحدث بصوت مرتفع الى الرجل القرآنى المقدس كيرابا كونتا كينتا متوسلا اليه لكى يوحى له بالهدف من وراء مهمته فى هذا المكان اذا كانت هناك أية مهمة ملقاة على عاتقه • ثم فزع لدى سماعه صوته الخاص به • فهو منذ أن وطئت قدمه ارض التوبوب لم يكن قد نطق مطلقا بصوت واحد موجها لاى شخص باستثناء تحدثه مع الله سبحانه وتعالى وباستثناء تلك الصيحات التى انتزعت منه لدى ضربه بالسياط •

وقد خطر على ذهن كونتا أن هؤلاء السود كانوا يخفون مشاعرهم الحقيقية تجاه التوبوب • اذ قد شاهد فى الآونة الاخيرة أكثر من مرة وجوه السود المبتسمة وهى تتحول الى الشعور بالمرارة بمجرد أن يستدير التوبوب برأسه • كما شاهدهم وهم يتعمدون كسر الالات التى يستخدمونها فى العمل •

كما بدأ كونتا يدرك أن هؤلاء السود يستخدمون فيما بينهم نوعا من التخاطب المعروف لديهم فقط وذلك على نحو شبيه بلغة السيراكانجو السرية المعروفة للرجال المندينكيين • ففى بعض الاحيان عندما كانوا يعملون فى الحقل كان كونتا يلمح حركة خاطفة بالجسم أو اليد أو فى شكل ايماءة من الرأس كما كان يسمع احدهم وهو ينطق بتعبير غريب مقتضب وبعدئذ يكرر نفس التعبير على فترات غير متوقعة شخص آخر •• وبعدئذ يكرره شخص ثالث وفى كل مرة كان يتم النطق بهذا التعبير فى حرص شديد لكيلا يسمعه التوبوب أثناء تجولهم فوق حصانه •

ويوميا كانت تتم لقاءات مسائية لها أسلوب عام • فعادة كانت المرأة الطاهية التى تطبخ فى المنزل الكبير هى التى تتحدث أولا

حيث كانت تقوم بتقليد الاشياء التى يقولها كل من « السيد » و « السيدة » زوجته تقليدا هزليا يثير الضحك · وبعدئذ كان الرجل الاسود الضخم سامسون يقلد «الملاحظ» بشكل هزلى · وكان كونتا يصغى لكل ذلك وهو جالس عند فتحة باب كوخه فى مساء كل يوم وكان يسمع ضحكات الآخرين بعد سماع ذلك التقليد الهزلى ·

ولكن عادة ما كان الضحك يتلاشى ·· وبعدئذ يجلسون متجاورين ويتحدثون مع بعضهم · وكان كونتا يسمع بعضهم وهم يتحدثون فى نغمة يائسة لاتخلو من القلق كما كان يسمع البعض الآخر وهم يتحدثون فى غضب وانفعال رغم انه كان لا يلتقط سوى قدر يسير من مناقشاتهم ·

وكان لديه احساس بانهم يسترجعون امورا حدثت لهم فى أوقات سابقة من حياتهم · وكانت بعض النساء تتحدثن وبعدئذ تنخرطن فى البكاء · واخيرا كان الحديث يتلاشى عندما تبدأ احدى النساء فى الغناء فينضم الآخرون اليها فى الانشاد ولم يكن باستطاعة كونتا فهم كلمات الاغنية التى تقول « لا أحد يعرف مدى الاهوال التى لا قيتها » الا انه كان يحس بنغمة الحزن التى تسود الغناء ·

# ٤٧

وكانت الاساور الحديدية مازالت موضوعة حول رسغى كونتا لمنعه من الهرب فأدى ذلك الى حدوث تلوث شديد فى الجرح الموجود فى كعب قدمه اليسرى · وقد أثار عرجه الشديد اهتمام الملاحظ ذات يوم فألقى نظرة فاحصة على قدمه ثم أصدر تعليماته لسامسون بازالة الاساور الحديدية ·

ومع أن كونتا كان لايزال يشعر بالآلام كلما رفع قدمه الا أنه شعر بسعادة غامرة بعد أن فكت قيوده · وفى تلك الليلة وبعد أن ذهب الآخرون للنوم وساد السكون كل شىء خرج كونتا من كوخه وانسل هاربا مرة أخرى · وبعد أن عبر حقلا فى الاتجاه المقابل للحقل الذى اجتازه أثناء هروبه فى المرة السابقة ، شق طريقه نحو

مكان كان قد عرف عنه أنه غابة عميقة ومتسعة تقع على الجانب الاخر : ثم وصل الى واد عميق ضيق وراح يتسلق بصعوبة فوق الجانب البعيد الآخر زاحفا على بطنه وعندئذ سمع أول صوت منبعث عن حركة مترامية من مسافة بعيدة · فرقد ساكنا وقلبه يدق في عنف أثناء سماعه أصوات وقع أقدام تقترب منه رويدا رويدا وأخيرا بدأ يسمع صـــــوت سامسون الخشن وهو يسب ويلعن وينادى « توبى ! توبى ! » فأمسك كونتا بعصا قوية كان قد شذبها على شكل رمح مدبب وأخذ يرقب في هدوء خيال الرجل الضخم وهو يتحرك بسرعة في هذا الاتجاه أو ذاك في الادغال عند قمة الوادى · وراح سامسون يتسلل في حذر مقتربا تدريجيا · وعندئذ تكور كونتا تماما بدون القيام بأي حركة · ثم جاءت اللحظة الحرجة ·· فسدد كونتا الرمح بكل ما لديه من قوة ولكن سامسون قفز جانبا متفاديا الرمح بشعرة واحدة · وحاول كونتا أن يجرى الا أن ضعف كعبيه جعله لا يقوى على مجرد انتصاب جسده · وعندما استدار ليقاتل هجم عليه سامسون وراح يصطدم به بجسده الهائل عقب كل ضربة الى أن تهاوى كونتا على الارض · فرفعه سامسون من على الارض وأخذ يدق جسده في عنف مسددا الضربات على صدره وبطنه فقط بينما كان كونتا يحاول أن يتلوى بجسده أثناء قيامه بتقوير العينين والعض والخربشة بأظافره · ثم هبطت على كونتا ضربة أخرى هائلة جعلته يسقط على الارض مرة أخرى دون أن يقوى على النهوض في هذه المرة · فقام سامسون بتقييد معصمي كونتا بحبل وأخذ يجر كونتا من الطرف السائب للحبل عائدا به الى المزرعة · وعندما وصلا أخيرا قبل حلول الفجر بوقت قصير اكتفي سامسون برفس كونتا وتركه مســــتلقيا ومتكوما على الارض في كوخه ·

وكان كونتا منهك القوى للغاية ومع ذلك فقد أخذ يعض ويمزق الحبل الذي يربط معصميه الى أن أحس بالآلام في أسنانه مثل لهيب النيران · ولكن الحبل انقطع أخيرا في نفس الوقت الذى دوى فيه البوق الصدفي · وعندئذ انخرط كونتا في البكاء · فقد فشل مرة أخرى · وأخذ يصلي لله تعالى ·

وفي احدى فترات ما بعد الظهر الباردة عقب مرور شهر تقريبا اتخذ كونتا طريقه عبر أحد الحقول ليساعد رجلا آخر في اصلاح أحد الاسوار · وأثناء سيره بدأ شيء يشبه الملح يتســــاقط من السماء فأثار دهشته البالغة ثم سمع كونتا السود القريبين منه يصيحون قائلين Snow أى الثلج فاعتقد أن ذلك هو الاسم الذى

يطلقونه عليه . ثم وصل الى زميله الاسود الذى كان منتظرا بجوار السور المنهدم . وبدأ الاثنان فى العمل حيث قام كونتا بمساعدة الرجل الآخر على تضفير دوبارة معينة . وبعد فترة وصلا الى مكان من السور يكاد يكون مختفيا وراء أعشاب طويلة . وبينما كان الرجل الآخر يشق طريقه فى الاعشاب بتقطيعها بالسكين الطويلة التى يحملها . كانت عينا كونتا تقيسان المسافة ما بين المكان الذى يقف فيه وأقرب الغابات . وأخذ كونتا يعمل بجد واجتهاد لكيلا تساور الرجل الآخر أدنى شكوك بشأن ما يدور فى ذهنه . الا أن أنفاسه تلاحقت أثناء وقوفه ممسكا بالدوبارة المعدنية ونظراته متجهة لاسفل نحو رأس الرجل المنحنى المنكب على عمله . وكانت السكينة قد تركت على بعد خطوات قليلة خلفهما فى المكان الذى توقف فيه قطع الشجيرات .

وفى صلوات صامتة ، قام كونتا بضم يديه بشدة ورفعهما لاعلى ونزل بهما على عنق الرجل من الخلف بكل ما لديه من قوة . فتهاوى الرجل دون أن يصدر عنه أى صوت كما لو أنه قد ضرب بفأس . وفى لحظات قام كونتا بتقييد معصمى ورسغى الرجل . وبعد أن التقط كونتا السكينة الطويلة على وجه السرعة كبت فى نفسه رغبة قوية فى أن يطعن الرجل بها . لان هذا الرجل لم يكن هو سامبسون البغيض . ثم انطلق نحو الغابات وشعر أنه يجرى فى خفة كأنه فى حلم .

وكان كونتا على استعداد للعيش فى الغابات مثلما تفعل الحيوانات . اذ كان قد عرف كثيرا من الامور فوق أرض التوبوب هذه علاوة على ما يعرفه عن افريقيا . فهو باستطاعته اصطياد الارانب وغيرها من الحيوانات القارضة بنصب الشراك لها وطهيها على نيران لا يتصاعد الدخان منها .

وبحلول وقت المساء أدرك كونتا أنه قد جرى مسافات طويلة ومع ذلك فقد واصل الجرى ولم يسمح لنفسه بالتوقف الا بعد أن أصبحت الدنيا مظلمة تماما . فخبأ نفسه فى بقعة كثيفة الشجيرات وأخذ يصغى بانتباه شديد لاصوات الكلاب أثناء استلقائه فى الظلام ، الا أنه لم يكن هناك سوى السكون الشامل . هل سينجح حقا فى هذه المرة ؟ وعندئذ فقط أحس برفرفة باردة فوق وجهه لقد بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى . وسرعان ما غطاه اللون الابيض كما غطى جميع المساحات فيما حوله فأحس كأن جسده يتجمد بالفعل فاضطر للقفز والجرى بحثا عن مكان أفضل يحتمى فيه .

وكان قد قطع مسافة أخرى طويلة عندما تعثر وسقط على الارض • ولم يصب بجروح • ولكنه عندما نظر خلفه تملكه الرعب لان أقدامه قد تركت أثارا على الثلج عميقة وواضحة للغاية بحيث يمكن تتبعه بسهولة • وأدرك أنه لا سبيل الى محو هذه الآثار كما أن موعد حلول الصباح ليس بعيدا • لذلك فقد كان الحل الوحيد هو أن يقطع مسافات أخرى • وبدأت تباشير الصباح في الظهور في جهة الشرق عندما ترامى الى سمعه من على مسافات بعيدة أمامه أصوات ضعيفة صادرة عن أبواق صدفية فغير مساره على الفور الا أن شجاعته بدأت تتخاذل وبدأ يخشى من عدم العثور على مكان يستريح فيه في أمان وسط هذه المساحات الهائلة المغطاة ببطانية بيضاء شاسعة •

وعندما ترامى الى سمعه نباح كلاب من على مسافات بعيدة غمرته موجات من الغضب على نحو لم يحس به من قبل على الاطلاق • فطفق يجرى مثل فهد مطارد الا أن صوت النباح ازداد وضوحا تدريجيا • وأخيرا عندما ألقى نظرة من فوق كتفه للمرة العاشرة رآها تعدو بسرعة للحاق به • وذهب في تقديراته الى أن الرجال ليسوا على مسافة بعيدة وراء الكلاب • وبعدئذ سمع صوت طلقة نارية فدفعه ذلك الى الاسراع أكثر في جريه • الا أن الكلاب لحقت به • وعندما صاروا على بعد خطوات قليلة من كونتا • استدار نحوها وربض أمامها وكشر فيها مزمجرا • وعندما هجمت عليه مكشرة عن أنيابها هجم هو عليها أيضا ممزقا بطن الكلب الاول بضربة واحدة جانبية من السكينة وفي لمحة خاطفة من ذراعه ضرب الكلب الثاني بالسكينة بين عينيه •

ثم قفز كونتا بعيدا وبدأ في الجرى مرة أخرى • الا أنه سرعان ما سمع الرجال فوق جيادهم يتخبطون بين الشجيرات خلفه • فقرر أن يغوص بين الشجيرات الكثيفة للغاية والتى يتعذر على الجياد السير فيها • ثم سمع طلقا ناريا آخر ثم طلقا ناريا آخر ـ وعندئذ أحس بوميض من الالم في ساقه فسقط على الارض متكوما الا أنه انتفض واقفا مرة أخرى وهو يترنح وعندئذ صاح التوبوب وأطلقوا النيران مرة أخرى فسمع الرصاصات وهى ترتطم في الاشجار فوق رأسه • فقال كونتا لنفسه : فليقتلوني • لانني عندئذ سأموت كما ينبغي أن يموت الرجال • وبعدئذ أصابت طلقة أخرى نفس ساقه التى أصيبت من قبل فأردته طريحا على الارض • وشاهد «الملاحظ» وتوبوبا آخر يسرعان نحوه • ووضع التوبوب الآخر فوهة بندقيته على رأس كونتا بينما قام الملاحظ بانتزاع ملابس كونتا بعنف الى أن وقف عاريا في الثلج • ثم قام الملاحظ بضرب كونتا بجماع يده

فالقاه على الارض بشدة على نحو كاد أن يفقده الوعى • وبعدئذ قاما بربطه فى شجرة كبيرة بحيث كان وجهه نحوها ومعصماه مربوطين على الجانب الآخر منها •

وبدأ الضرب بالسياط يقطع فى اللحم على كتفى كونتا وظهره • ولم يتأكد كونتا مما حدث بعد ذلك الا أن الشيء التالى الذى أدركه هو أنه أحس بأنه يتهاوى على الارض ثم أحس بعدئذ ببرودة الثلج على جسده وبعد ذلك أظلمت الدنيا فى عينيه •

وعندما أفاق كونتا وجد نفسه مكبلا بالاغلال مرة أخـــرى فى كوخه • فعاهد نفسه أن ينتقم من التوبوب مع محاولة الهرب مرة أخرى بمجرد أن تتحسن صحته • لان الموت أهون عليه من هــذه الحياة •

# ٤٨

وبعد أن شفى كونتا من جراحه خرج للعمـــل مرة أخرى مع السود وبدأ يظهر تعاونا فى العمل لكيلا تساورهم الشكوك فى أنه يرغب فى الهرب مرة أخرى • وعندما ينتهى العمل اليومى كان يعود من الحقل وهو يحمل معه أحزانه العميقة فى داخل نفسه الى كوخه الصغير المعتم المقبض للصدر • ومع احساس كونتا بمشاعر الوحدة والعزلة الموحشة بدأ يتحدث الى نفسه • وغالبا ما كان كلامه فى شكل محادثات خيالية مع أفراد أسرته • وكانت معظم محادثاته فى داخل ذهنه الا أنه أحيانا كان يتحدث بصوت مرتفع • فكان يقول « يا والدى : ان هؤلاء الناس السود لا يشبهوننا • فعظامهم ودماؤهم وأعصابهم وأيديهم وأقدامهم ليست هى الاعضاء الحقيقية الخاصة بهم • فهم يعيشون لا من أجل أنفسهم ولكن من أجل التوبوب • بل انهم لا يمتلكون أى شيء على الاطلاق •• ولا حتى أطفالهم اذ يتم اطعامهم وارضاعهم وتربيتهم من أجل الآخرين » •

وكان يقــول •• أماه : ان هؤلاء النســاء يرتدين أقمشــة فوق رؤوسهن الا أنهن لا تعرفن كيفية ربطها • كما أن معظم الاطعمة التى يقمن باعدادها تحتوى على لحوم الخنازير القذرة أو شحومها •

وكثيرات منهن ؟ قد إضطجعن مع التوبوب لانني أرى اطفالهن وقد لحقت بهن لعنة اللون البني الفاتح » •

كما كان يتحدث مع اخوته بصوت مرتفع قائلا لهم أن أحكم الحكماء بين الكبار لا يمكنه مطلقا أعطاؤهم الانطبـــاع الحقيقي عن خطورة التوبوب • لان أشد حيوانات الغابة شراسة ليست في نصف خطورة التوبوب •

ومرت الايام والشـــهور وحل موعد جنى القطن الذى يعد أحد المحاصيل الرئيسية في المزرعة • وكانت العربات تنقل محصـــول القطن الى مخزن موجود بجـــوار المزرعة • الا أن كونتا لاحظ أن العربات المكدسة بأوراق التبغ الذى تم حصاده فى الحقول الكبيرة المجاورة لحقله كانت تساق بعيدا الى مكان ما على الطريق الرئيسى ثم تعود العربات شاغرة بعد مرور أربعة أيام • كما رأى كونتـــا عربات أخرى محملة بالتبغ تابعة بالتأكيد لمزارع أخرى بعيدة وهى تتدحرج على الطريق الرئيسى على مسافة بعيدة ولم يعرف كونتا المكان الذى تذهب اليه هذه العربات الا أنه كان يدرك أنها تسافر لمسافات بعيدة •

انها قد تكون ذاهبة لمسافات بعيدة تكفى لنقله الى الحرية • ووجد كونتا صعوبة فى قضاء الايام العديدة التالية بسبب مشاعر الاثارالتى سيطرت عليه لدى استحواذ هذه الفكـرة الهائلة على ذهنه • وقرر الهرب مرة أخرى فى عربه من تلك العربات التى تنطلق على الطريق الرئيسى ليلا محملة بالتبغ • ورغـــم أنه كان يشمئز من هذا النبات الوثنى الا أنه كان يدرك فى يقين أن الله سيغفر له لمس هذا النبات لان هذه هى الوسيلة التى تعينه على الهرب •

## ٤٩

وفى احدى الامسيات عقب مرور فترة قصيرة ، قام كونتا باصطياد أرنب برى من الغابة المجاورة وقطعه الى شرائح رفيعة وراح يجفف الشرائح بالطريقة التى تعلمها أثناء فترة التدريب على الرجولة •

ثم استخدم حجرا ناعما في سن نصل السكين الصدئة المعوجة التي كان قد عثر عليها من قبل . الا ان الاهم من الطعام والسكين هو ذلك الحجاب الذي صنعه بنفسه .

ولم ينم كونتا طوال الليل وفي الصباح ذهب الى العمل كالمعتاد. وبعد أن عاد الى كوخه عقب تناول العشاء ارتعشت يداه وهو يضع في جيبه السكينة وشرائح الارنب المجففة . ثم قام بربط الحجاب بدقة حول الجزء الاعلى من ذراعه اليمنى . ثم انسل في هدوء خارجا بالليل تحت جنح الظلام . وعندما أحس أنه لا يوجد هناك أحد فيما حوله انحنى لأسفل وجرى بأقصى سرعته . وسرعان ما غاص بعد فترة قصيرة في غابة صغيرة كثيفة الاشجار أسفل المكان الذي ينعطف عنده الطريق الرئيسي مباشرة . وتوقف عن الجرى وهو يتنفس بصعوبة .

ثم سمع كونتا صوت عربة آتية قبل أن يرى أضواءها المتذبذبة بدقائق قليلة ، فشعر أنه على وشك الانهيار وبدت له العربة وكأنها تزحف على الارض الا انها وصلت اخيرا في محاذاته مباشرة وتجاوزته في بطء شديد . وكان يجلس على مقعدها الامامي هيكلان معتمان. فوثب كونتا من بين الشجيرات الكثيفة وهو يشعر برغبة شديدة في البكاء والصراخ وراح يهرول وهو منحنى لاسفل خلف العربة المترنحة التي تحدث صوتا رفيعا كالصرير منتظرا اجتياز العربة للمنطقة التالية غير الممهدة من الطريق . وبعدئذ أمسكت يده الممتدة بالباب الخلفى للعربة وكأنها مخالب . وفي لحظات وثب لأعلى فوق جبل التبغ ثم هبط في داخله . لقد أصبح فوق العربة . وفي توتر جنوني راح ينبش في التبغ لأن الاوراق كانت مضغوطة مع بعضها البعض بشدة على نحو لم يكن يتوقعه . الا أنه نجح أخيرا في اخفاء جسده وسرعان ما أدت الحركة الاهتزازية للعربة التي خفف من حدتها الاوراق الدافئة للغاية من حوله الى ارتمائه في أحضان النوم.

ولكنه استيقظ فجأة من نومه في ذعر وضيق واشمئزاز لدى سماعه صوت ارتطام وبدأت تساوره الشكوك عن احتمال اكتشاف أمره. والى أين كانت العربة ذاهبة وكم من الوقت ستقطع في سيرها الى أن تصل الى هدفها . وعندما تصل هل سيكون باستطاعته أن ينسل بعيدا دون أن يراه أحد ؟ وكلما فكر في هذا الامر ، ازدادت رغبته في ترك العربة على الفور . فباعد ما بين الاوراق بيديه على نحو يسمح باخراج رأسه . فشاهد حقولا لا نهائية وقرر تأجيل القفز لان القمر كان ناصعا مما يساعد على الامساك به .

وعندما فتح كونتا الثقب مرة أخرى أدرك أن الوقت يقترب من

الفجر فاتخذ قراره بضرورة مغادرة العربة على وجه السرعة لكيلا يواجه عدوه في وضح النهار .. فصلى لله تعالى وامسك بمقبض سكينته وبدأ يتلوى كالدودة خارجا من حفرته . وبعد أن خرج بكامل جسده أنتظر حدوث احدى التمايلات الفجائية التي تحدث للعربة من وقت لآخر . وانقضت فترة كأنها الدهر بأكمله . وأخيرا حدث الترنح الفجائي فقفز في خفة ـ واصبح على الطريق . في لحظات اختفى بين الشجيرات .

وعند اشراقة الفجر كان كونتا يشق طريقه في وحشية خلال الشجيرات متوغلا في أعماقها فأدرك انها بمثابة امتداد شاسع من الغابات . وكان الجو باردا ورطبا في الغابات الكثيفة كما كان للندى المتناثر ملمس مريح على جسده . وراح يطوح بسكينته ويزمجر في سرور مع كل حركة من يده الممسكة بالسكينة . وفي أوائل فترة ما بعد الظهر عثر بطريق المصادفة على جدول ماء تنساب منه المياه رائقة فوق صخور تكسوها نباتات طحلبية . وعندما توقف للشرب منه براحتي يديه قفزت الضفادع في رعب وهلع .

وبعد أن نظر كونتا فيما حوله وشعر بالامان جلس ليستريح لبعض الوقت على شاطىء الجدول وراح يأكل قطعة من لحم الارنب المجفف . وأحس بالسعادة لانه لم يضطر للجرى لمسافات طويلة مثلما فعل في المرة السابقة .

وواصل الجرى حتى غروب الشمس . فتوقف لتأدية صلاة المغرب ثم استأنف المسير لمسافات أبعد حتى أرغمه الظلام والتعب على التوقف لقضاء الليل . وقرر كونتا وهو مستلق فوق فراش من الاوراق والاعشاب أن يبني لنفسه مأوى من عصى متشعبة وله سقف من الاعشاب على النحو الذي تعلمه أثنــــاء التدريب على الرجولة . وسرعان ما استغرق في النوم الا أنه أوقظ أثناء الليل مرات عديدة بسبب البعوض فسمع الزمجرات التي تصدر عن الحيوانات المفترسة من على مسافات بعيدة أثناء قتلها بحيوانات أخرى .

ودخل كونتا عدة مرات أثناء النهار في مساحات كثيفة للغاية حتى أن سكينته لم تساعده على فتح ممر في بعض الاماكن فكان يضطر للعودة والبحث عن طريق آخر . ثم توقف للراحة مرة أخرى وأكل قطعا من لحم الارنب المجفف ثم شرب الماء المتجمع فوق الاوراق السفلية للنباتات . وفي تلك الليلة استراح كونتا بجوار جدول ماء آخر فاستغرق في نوم عميق .

ولم يبدأ كونتا في التفكير في المكان الذي يريد الوصول اليه قبل

حلول صباح اليوم التالى . لأنه تعمد منع نفسه من التفكير فى ذلك الأمر . ونظرا لأنه لم يكن باستطاعته معرفة المكان الذى يتجه اليه لأنه لم تكن لديه أي فكرة عن المكان الذى يوجد به فقد قرر أن يكون خط سيره الوحيد هو تجنب الاقتراب من أى كائنات بشرية ســـواء أكانت سوداء أو توبوب مع مواصلة الجرى فيإتجاه شروق الشمس . فخرائط أفريقيا التيرآها عندما كان ولدا قد أوضحت أن المياه الكبيرة تقع جهة الغرب ومعنى ذلك أنه يمكنه الوصول فيالنهاية الى أفريقيا اذا ما إستمر في السير تجاه الشرق . ولكنه عندما فكر فيما يمكن أن يحدث بعدئذ حتى فى حالة عدم الامساك به .. وعندما فكر فى طريقة عبور المياه الكبيرة حتى فيحالة حصوله علىزورق ، وعندما فكرفي كيفية العودة سالما الى الجانب الاخر حتى فى حالة معرفته الطريق . فانه بدأ يحس برعب شديد . وراح يلمس بأصابعه ـ فى غيرأوقات الصلوات الخمس ـ الحجاب المطلسم الموجود على ذراعه اليمنى حتى أثناء الجرى .

وفى تلك الليلة بينما كان يســتلقى مختبئا تحت شــجيرة وجد نفسه يفكر فى بطل الابطال المندينكى المحارب سونديانا الذى كان عبدا ثم هرب من سيدة واختبأ فى أراض موحلة حيث عثر على رجال آخرين هاربين فنظمهم وكون منهم جيشا منتصرا وانشأ امبراطورية ماندينكا الشاسعة .وراح يفكر وهوينطلق مرة أخرى في يومهالرابع: ربما يتمكن من العثور على رجال أفريقيــين هاربين هنــا فى أرض التوبوب وربما يكونون في أشد الاشتياق لان تلامس أقدامهم تراب بلادهم الافريقية مثله تماما . وربما يشترك عدد كاف منهم فى بناء أو سرقة سفينة كبيرة . وعندئذ ..

وأفاق كونتا من أحلام يقظته لدى سماعه صوتا رهيبا . فتوقف عن المسير مندهشا للغاية . لا . من المســتحيل أن يحدث ذلك .. ولكن الامر كان فى غاية الوضوح : لقد كان نباح كلاب الصيد .. فشق طريقه فى وحشية فى الغــابة الى أن وقع على الارض فجلس فى مكانه مصغيا وممسكا بمقبض سكينته . الا أنه لم يسمع شيئا . لا شيء سوى أصوات الطيور والحشرات . واستأنف الجرى لمسافات أخرى وشعر بالارهاق الشديد فقرر الخلود للراحة للحظات قليلة وأغمض عينيه .

واستيقظ كونتا وهو يتصبب عرقا فجلس على الفور معتدل القامة وكان الظلام الحالك سائدا حوله . لقد نام طوال فترات النهــار بأكملها . وبينما كان يهز رأسه محاولا معرفة السبب فى ايقــاظه سمع فجأة ذلك الشيء مرة أخرى : نباح الكلاب . وكان النباح فى

هذه المرة أقرب بكثير عن ذي قبل • فنهض وانطلق يجرى فى جنون حتى أنه قد انقضت عدة لحظات قبل أن يخطر على ذهنه كالوميض أنه قد نسى سكينه فرجع الى المكان الذى كان يرقد فيه • الا أن النباتات المتسلقة المرنة كانت كالمتاهات • ورغم أنه كان يدرك فى غيظ جنونى أن السكينة كانت بالتأكيد على بعد خطوات قليلة منه الا أنه لم يعثر عليها •

ومع تزايد اقتراب أصوات النباح بدأت معدته فى التقلص بعنف لأنه كان يدرك أنه اذا لم يعثر على سكينته سيقع فى الاسر مرة أخرى •

وبينما كانت يداه تتحركان فى كل مكان تحت قدميه أمسك أخيرا بحجر فى حجم قبضة يده تقريبا • فانتزعه وانطلق هاربا وهو يصيح فى يأس •

وأخذ يجرى طوال تلك الليلة ــ كمن تملكته قوى خارقة ــ متوغلا أكثر فأكثر فى أعماق الغابة • ولكن الكلاب ظلت تلاحقه مقتربة منه تدريجيا وأخيرا تمكن من رؤيتها من فوق كتفيه عقب بزوغ الفجر بقليل • وبدا الامر وكأنه كابوس متكرر • فاستدار وربض فى أرض شاغرة نسبيا واسند ظهره الى شجرة واستعد لملاقاتها • وكانت يده اليمنى ممسكة بغصن شجرة متين أما يده اليسرى فكانت ممسكة بالحجر بقبضة حديدية •

وبدأت الكلاب هجومها على كونتا ولكنه صاح فيها صيحة هائلة بشعة وراح يضربها فى وحشية فاضطرت الى التراجع والانكماش فى خوف ثم راحت تنبح الى أن ظهر توبوبان فوق جواديهما •

ولم يشاهد كونتا هذين التوبوبين من قبل • وسحب التوبوب الاصغر سنا بندقيته الا أن التوبوب الاكبر سنا منعه باشارة من يده بينما كان يهبط من على حصانه وبعدئذ سار نحو كونتا وهو شاهر سوطه الطويل •

وكان كونتا واقفا هناك وقد ارتسمت على عينيه الوحشية بينما جسده يرتعد وراح ذهنه يعج بذكريات كالوميض عن وجوه التوبوب فى غابة الاشجار القريبة من جوفيور وفى السفينة الكبيرة وفى السجن وفى المكان الذى بيع فيه وفى مزرعة الكفار الوثنيين وفى الغابات التى قبض عليه فيها من قبل وضرب بالسياط وأطلق عليه الرصاص ثلاث مرات • وبينما كانت ذراع التوبوب تتراجع للخلف بالسوط تحركت ذراع كونتا بسرعة للامام فى شراسة هائلة حتى أنه وقع على جانبه لدى انطلاق الحجر من يده كالقذيفة •

وسمع صراخ التوبوب ودوت رصاصة بجوار أذنه ثم هجمت عليه الكلاب • وبينما كان كونتا يتدحرج ويتشقلب على الارض ويهاجم

الكلاب فى وحشية لمح الدماء التى تسـيل من وجه أحد التوبوبين ٠ وراح كونتا يزمجر فى عنف مثل الحيـوان المفترس عنـدما أبعد التوبوبان الكلاب وتقدما نحوه وهما مصوبان بندقيتهما نحوه ٠ ثم قفز أحدهمـا للإمام للامسـاك به بينما أخذ الاخر يضربه بالبندقية مستخدمها كالهـراوة ٠ الا أنهمـا قد بذلا كل ما عندهما من قـوة للامساك به لأنه كان يتلوى ويقاتل ويئن ويصرخ باللغتين : العربية والمندينكية ٠ وبعد أن تمكنا من تمزيق ثيابه وربطه فى الشجرة ، شجع كونتا نفسه لكى يواجه الضرب حتى الموت ٠

الا أن التوبوب ذا الوجه الدامى توقف فجأة وبدت على وجهه نظرة غريبة تكاد تكون فى شكل ابتسامة ٠ ثم تحدث فى اقتضاب بصوت أجش مع التوبوب الاصغر سنا الذى ابتسم بدوره وأومأ برأسه ثم رجع الى حصانه وفك فأسا للصيد ذات مقبض قصير كانت مربوطة فى السرج ثم قطع جذع شجرة متآكل وجره الى جوار كونتا ٠

ووقف التوبوب ذو الوجه الدامى أمام كونتا ٠ ثم بدأ يقوم بحركات لها مغزى ٠ فأشار نحو الاعضاء التناسلية لكونتا ثم أشـار لسكينة الصيد الموجودة فى حزامه ٠٠ وبعدئذ أشار الى قدم كونتا ثم أشار بعد ذلك الى الفأس الموجودة فى يده ٠ وعندما فهم كونتا المعنى أخذ يعوى ويرفس ويتلوى ٠ فضرب بجسم البندقيـة مرة أخرى ٠ وعلى الفور صدر صوت من أعمـاق نخاعه معبرا فى صراخ عن ضرورة أن يكون للرجل أبناء ــ ولكى يكون المرء رجلا يجب أن يكون له أبناء ٠ فطارت يدا كونتا لأسفل لتغطى عضوه التناسلى ٠ وكان التوبوبان يضحكان فى خبث ونذالة ٠

وقام أحدهما بدفع جذع الشجرة تحت القدم اليمنى لكونتا بينما قام الثانى بربط القدم بالجذع فى احكام شديد حتى أن كل انفعالات الغضب فى داخل كونتا لم تمكنه من فك قيوده ٠ والتقط التوبوب ذو الوجه الدامى الفـأس ٠ وراح كونتـا يصرخ ويتخبط فى عنف عندما لمعت الفأس فى وميض لأعلى ثم لأسفل بسرعة خاطفة ــ ففصلت الجلد والاعصاب والعضلات والعظـــام لدرجة أن كونتا سمع صوت ارتطام الفأس فى جذع الشجرة ، بينما تسببت الصدمة فى سريان عذاب نفسى رهيب الى أعماق ذهنه ٠ وما أن سرت الآلام المتفجرة فى كل كيانه حتى انقبض الجزء العلوى من جسد كونتا فى انحناء للامام بشكل لا ارادى كما تحركت يداه فى اندفاع شديد لأسفل كما لو كانت تحاول انقاذ الجزء الامامى من قدمه الذى تهاوى الى الامام بينما الدماء الحمراء الفاقعة تندفع كالنافورة من مكان القطع أثناء انهماره فى ظلام دامس ٠

## ٥ ◆

وأفاق كونتا على آلام رهيبة تمزق كل كيانه • وحاول أن يتذكر ما حدث له فتلاحقت الصور في ذهنه : وجه التوبوب المشوه المحتقن خلف الفأس التي تلمع كالوميض وهي متجهة لأعلى ـ وصوت ارتطام الفأس بالقرمة الخشبية ـ ومنظر الجزء الامامي من قدمه أثناء سقوطه • وبعدئذ تدافع الخفقان في رأس كونتا بعنف شديد حتى أظلمت الدنيا في عينيه مرة أخرى • ومن رحمة الله أنه غاب عن الوعي مرة ثانية •

وعندما فتح عينيه في المرة التالية ، شاهد توبوبا طويلا لم يره من قبل حاملا معه حقيبة سوداء • وأمسك الرجل بمعصمه في خفة ، وعندما رأى مشاعر الالم الشديد على وجه كونتا نادى في حدة قائلا « بيل ! »

وسرعان ما جاءت الى الكوخ امرأة سوداء قصيرة قوية البنيان ذات وجه حازم في غير قسوة وقد أحضرت معها وعاء به ماء • فأحس كونتا بطريقة غريبة أنه قد رآها من قبل في أحد أحلامه تنظر اليه وبيدها رشفات من الماء • وتحدث معها التوبوب بأسلوب مهذب فأخذت شيئا من الحقيبة وراحت تحركه في الماء وساعدت كونتا على شرب الماء • فانساق في خفة مع تيار النوم • وعندما فتح عينيه بعد ذلك أحس كأن قدمه اليمنى مشتعلة بالنيران وانزلقت الى ذهنه صور وأفكار معتمة مشوشة بحيث كانت كل منها تنساب بعيدا عن ادراكه بنفس السرعة التي جاءت بها • وما أن لمح بنتا حتى قال لها أنه قد أصيب ولكن ينبغي عليها ألا تنزعج لأنه سيعود الى الوطن بمجرد أن يقدر على ذلك •

وحضرت بيل مرة أخرى لكي تمرضه ثم أضاءت شمعة في كوخه وانصرفت • وحملق كونتا في الشمعة الى أن انصهرت وما أن ساد الظلام حتى خطرت على ذهنه صور التآمر لقتل التوبوب عندما كان في السفينة الكبيرة • فتحرق شوقا لأن يكون محاربا ضمن جيش هائل من السود حتى يتمكن من ذبح أكبر عدد من التوبوب ولكنه أخذ يرتجف من الرعب بعد أن أحس أنه على وشك أن يلفظ انفاسه الاخيرة رغم أن ذلك كان يعني أنه سيكون الى جوار الله للأبد • ومع

ذلك فلم يحدث مطلقا أن عاد أى شخص من عند الله لكى يحكى عما كانت عليه الامور معه مثلمــا أن أحدا من الســود لم يرجع فى أى وقت الى قريته لكى يحكى عما كانت عليه الامور مع التوبوب •

وبعد انقضاء عدة أيام بدأ كونتا يسائل نفسه فى تعجب : ترى أين يوجد ؟ فالكوخ الذى يرقد فيه ليس كوخه بل استطاع أن يعرف من الاصوات الموجودة بالخارج أنه قد نقل الى مزرعة أخرى واستطاع وهو مستلق هناك أن يشم رائحة طهيهم وأن يسمع حديثهم وغناءهم وصلواتهم فى الاوقات الاولى من الليل • وبعد مرور ثلاثة أسابيع فك التوبوب ضمادته الكبــيرة وأحضر له عكازين قويين لكل منهمــا شعبة فى أعلاه وأوضح له طريقة استخدامهما •

# ٥١

وعندما استطاع كونتا الخــروج لأول مرة من كوخه على عــكازيه اكتشف أن السود فى هذه المزرعة يعيشون فى ظروف أفضــل من السود فى المزرعة السابقة •

وفى أحد الايام عندما كان كونتا خارج كوخه تصادف أن رأى عربة التوبوب وهى تتدحرج داخلة الى الفناء وقد جلس مع السائق الاسود على مقعد القيادة رجل له بشرة بنية مائلة للاصفرار • وبعد أن نزل التوبوب من العربة ودلف الى المنزل الكبير سارت العربة قليلا مقتربة من الاكواخ وتوقفت مرة أخرى • وشاهد كونتا السائق وهو يمسك الرجل البنى من تحت ذراعيه لمساعدته على النزول نظرا لأن احدى ذراعى الرجل كانت مصابة على ما يبدو • فسار كونتا بدافع من حب الاستطلاع الى كوخ الرجل البنى فوجده جالســا فى نفس مدخل كوخه • وتبادل كل منهما النظرات • فقال الرجل •• « ماذا تريد؟ » ولم يفهم كونتا هذه الجملة فاستطرد الرجل « انك واحد من الزنوج الافريقيين » فعرف كونتا كلمة « زنجى » ولكنه لم يفهم باقى الكلمات• فاكتفى بمجرد الوقوف فى مكانه • وعندئذ قال الرجل فى حدة :

ــ أغرب عن وجهى اذن •

فأحس كونتا بحدة الكلمات وفهم منهـا أن الرجل يطرده ، فعاد الى كوخه وهو يحس بالغضب والخجل من نفسه .

وفي عصر أحد الايام تقابل كونتا بطريق الصدفة مع نفس الرجل فأومأ برأسه لكونتا لكي يتبعـه الى كوخه • وجلس كلّ منهمـا على كرسى • وبعد مرور فترات قصيرة من الصمت بدأ الرجل البنى فى التحدث فقال :

ـ لقد سمعت أنك متهور الى حد الجنون • ومن حسن حظك أنهم لم يقتلوك • اذ كان باستطاعتهم قتلك والقانون يؤيدهم في ذلك • وقد حدث لي نفس الشيء عندما قام ذلك الرجل الابيض بكسر يدى لأنني سئمت من العزف على الكمان• والقانون ينص على أنه اذا تمكن أى شخص من الامساك بك أثناء محاولتك الهرب فمن حقه أن يقتلك دون أن تقع عليه أية مسـئولية فى ذلك • ويتم تلاوة نص هـذا القانون كل ستة شـهور فى كنائس الرجل الابيض • انتبـه الى ولا تجادل معى فى قوانين الرجل الابيض • فهناك قانون يحرم على الزنوج حمل البنادق بل وحمل عصاة تشـبه الهراوة • كما ينص القانون على ضرب أى زنجى عشرين جلدة اذا ضبط مسـافرا بدون الحصول على جواز سـفر ، وضربه عشر جلدات اذا حملق فى وجه النـاس البيض وضربه ثلاثين جلدة اذا رفع يده فى وجه مسـيحى أبيض • وينص القانون علىعدم اقامة جنازة لميت زنجىلأنهم يعتقدون أن الجنازة تشـكل نوعا من التجمهر • وينص القـانون على شنق الشخص الزنجى الذى يقوم بقتل شخص أبيض أما اذا قتل شخصا زنجيا آخر فيكتفى بمعاقبته بالضرببالسياط • والقانونينص على عدم تعليم أى زنجى القراءة والكتابة • كما ينص على تحريم قيام الزنوج بالدق على أى نوع من أنواع الطبول أو عمل أى شىء ذى طابع أفريقى »

وما أن أدرك كونتا أن هناك شخصا ما يتحدث معه حديث الانسان للانسان حتى أحس بالرغبـة فى الضحك والبـكاء في آن واحد • وتوطدت العلاقة تدريجيا بينهما • وقال الرجل لكونتا أنه يعزف على الكمان • ولذلك فهم يسمونه « فيدلر » وهي كلمة تعنى العازف على الكمان ثم بدأ يعطى كونتا دروسا لتعلم لغة التوبوب•

وعندما ذهب كونتا لزيارة عازف الكمان بعد ظهر أحد الايام وجد عنده زائرا آخر هناك • وكان ذلك الزائر هو الرجل العجـوز الذى يراه من وقت لآخر يعزق الارض فى الحديقـة القريبـة من المنزل الكبير •

وقال الرجل العجوز :
ـ لقد قال لى « فيــدلر » انك حاولت الهرب اربع مرات · وقد رأيت بنفسك النتائج المترتبــة على ذلك · فأنت اذا جريت وقطعت مسافة أبعد من ولايتين فانهم يكتبــون حادث الهــرب فى جرائدهم وبعدئذ يتم القبض عليك ، ولذلك لم يعد هنــاك شــخص يفكر فى الهرب · وأنا أنصحك ألا تبدد سنوات شبابك فى الهرب ـ مثلمــا فعلت أنا من قبل ـ وأنا الآن رجل عجوز وأقوم بالاعمال فى الحديقة · ولقد سمعت من « بيل » أن السيد سيكلفك بالعمل معى فى الحديقة اعتبارا من الغد ·

وبعد أسبوع ، بينما كان كونتا جالسا مع عازف الكمان ، حضر « لوثر » السائق الخاص بالسيد وولر ـ وهو صاحب هذه المزرعة ـ وقال كلاما لم يفهمه كونتا وانصرف · وبعــدئذ قام عازف الكمــان بشرح الموقف لكونتا مستخدما كلمات مختارة فقال له :

ـ ان لوثر السائق يقول ان السيد وولر قد قدم خدمة كبيرة لك عندما اشتراك من أخيه الذى سبق له أن اشتراك من المزاد العلنى فى بادىء الامر · ولذلك فأنت الآن ملك للسيد وليام ·

وأحس كونتا بالخجل من نفســـه بمجرد ســماعه أن أى انســان باستطاعته أن « يمتلكه » ومع ذلك فقد شعر بالارتيــاح الكبير لأنه كان يخشى أن يعودوا به ذات يوم الى المزرعة السابقه · وبعد قليل استطرد عازف الكمان قائلا :

ـ ان الزنوج يقولون أن السيد وليام رجل طيب · وانا شخصيا قد رأيت من هم اسوأ منه · فلا يوجد أحد من التوبوب يمكن وصفه بانه طيب لانهم جميعا يعيشون على حسابنا نحن الزنوج · فالزنوج هم أضخم شىء يمتلكونه » ·

## ٥٢

وفى كل يوم تقريبا ، كان كونتا لدى انتهائه من العمل في الحديقة يعود الى كوخه · وبعد تأدية صــلاة المغرب كان يقوم بنبش التراب على مربع صغير من أرضية الكوخ ثم يقوم برسم حروف اللغة العربية

ويظل يتأمل فيها لحين حلول موعد العشاء ثم يمحو الكتابة ويذهب
اختلاطه معهم تسير على ما يرام فهو بهـــذه الطـريقة قد بدا له انه
للجلوس مع الآخرين حيث يقوم عازف الكمـان بالتحــدث اليهم •
وكانت صلواته لله تعالى ودراســته للغـة العربية قد جعلت مســألة
باستطاعته الابقاء على شخصيته وطابعه الافريقي بدون أن يعزل
نفسه عنهم تماما •

وبدأ كونتا يحصى تتابع الزمن عن طريق وضع زلطة فى قرعة جافة في الصباح عقب انقضاء كل شهر جديد • ووضع زلطات في مقابل الـ ١٧ سنة التى وصل اليها قبل اختطافه من جوفيور واثنتى عشرة زلطة فى مقابل السنة التى امضاها فى المزرعة الاولى وست زلطات فى مقابل المدة التى امضاها فى المزرعة الجديدة • وعندما احصى جميع الزلطات تبين انه يسير فى سن التاسعة عشرة •

ومرض الجناينى العجوز وأصبح لايقوى على الذهاب للحديقة فاصبح كونتا هو المسئول الوحيد عن الحديقة • وكانت بيل التي تعمل طاهية فى المنزل تحضر يوميا للحديقة ومعها سلتها لتملأها بأنواع الخضار التى تريدها • وكانت تتجاهل كونتا كثيرا فكان يتجاهلها هو الآخـر • وبعد أن أسـقط كونتا الزلطة الثانية والعشرين فى قرعته الجافة حدث تغير فجائى فى نظرتها اليه فدعته الى الدخول الى مطبخها وناولته ساندوتشا مليئا بشرائح من لحم البقر البارد • ومع مرور الايام بدأت بيل تعطيـه أكثر مما يسـتطيع حمله من الاطعمة المختلفة • ولم يحدث لها مطلقا أن قدمت له لحم الخنزير مع انه لم يكن متأكدا من كيفية معرفتها انه يكره لحم الخنزير • وكان كونتا يقوم دائما بمسـح طبق الطعـام فى عناية بخرقة من القماش قبل اعادته اليها •

وفي يوم من أيام الآحاد وعقب تناول طعام العشاء نهض كونتا للنزهة وأخذ يتجول بالقـرب من كوخ عازف الكمان في تكاسـل ويربت بيده فوق بطنه وعندئذ شاهده عازف الكمان فصاح قائلا :

ــ اسـتمع الى • لقد بدأ جسـمك يمتلىء • وكان على حق • فكونتا منذ أن ترك جوفيور لم يبد عليه انه أحسن حالا من هذه الايام •

## ٥٣

ومرت عدة شهور وانتهى الصيف وبدأ موسم الحصاد • وماانتهت اعمال الحصاد حتى بدأ الجميع فى الاعداد والتجهيز « لرقصة الحصاد » وهى مناسبة هامة للغاية حتى أن السيد يحضرها بنفسه • وكانت الحفلة قد بدأت بالفعل عندما قرر كونتا الانضمام اليها • وكان عازف الكمان يعزف بنشاط على آلته عندما صاح شخص ما قائلا : Cahewalk أى رقصة « الكعكة » • وعندئذ أنطلق الراقصون كل أثنين مع بعض وأسرعوا فى الرقص أمام عازف الكمان • ولاحظ كونتا أن حركات أقدام الراقصين وأجسادهم كانت تقلد زرعهم للمحاصيل وقطعهم للاخشاب وجنى القطن وتطويح المنجل الكبير واقتلاع عيدان القمح والقاء التبن بالمذراه فى العربات • وكان كل شىء يشبه الى حد كبير رقصات الحصاد فى جوفيور حتى أن قدم كونتا اليسرى السليمة سرعان ما راحت تدق بخفة على الارض • ومنح السيد وولر جائزة لاحدى الفتيات قدرها نصف دولار وقد بدا على الراقصين والراقصات أنهم جميعا مستعدون للرقص طوال الليل •

ومع مرور كل يوم تزايدت برودة الهواء تدريجيا وأصبحت الأرض فى خلال فترة ضئيلة مغطاة بالثلوج مرة أخرى • وقبل أن ينقضى وقت طويل بدأ السود يتحدثون فى اثارة شديدة عن « الكريسماس » الذى كان قد سمع عنه من قبل • وقد بدى له أن الكريسماس له علاقة بالههم ولذلك فقد قرر البقاء وحيدا لحين انتهاء احتفالات الكفار الوثنيين •

ثم حل موسم ربيع آخر وكانت أعمال الحرث وبذر البذور والزراعة فى الحديقة تمر على كونتا مثل لحظات مشوشة مليئة بالعرق ابتداء من فجر كل يوم حتى حلول الظلام • وفى يوم الاحد الثانى من شهر يوليو سافر معظم السود لحضور اجتماع يعقد فى معسكر • واختفى كل شخص تقريبا على مدى الايام القليلة التالية مما يتيح له الفرصة للهرب مرة أخرى • الا أنه كان يدرك أنه بدأ

يتوافق بعض الشيء كما كان يعرف أنه لن يستطيع الهرب لمسافة بعيدة بدون أن يلقى القبض عليه واحد من صـــائدى العبيد مرة أخرى · وفي لأعماق نفسه كان يحس أنه لن يتمكن مطلقا من مشاهدة وطنه مرة أخـرى وكان يشـــعر بشيء غال ثمين لا يمكن أستعادته يموت تدريجيا فى داخله الى الابد · ومع ذلك فقد ظل الامل متواجدا في أعماقه : فهو رغم أنه قد لا يرى مطلقا أفراد أسرته مرة أخرى الا أنه قد يتمكن من تكوين أسرة خاصة به فى يوم من الايام ·



## ٥٤

ووصل عمر كونتا الى عشرين سنة · وذات يوم أحس انه يريد التعرف علىشخصية صديقه العازف بمزيد من العمق ·فذهب لزيارته وسأله :

ـ أين كنت قبل أن تجيء الى هذه المزرعة ؟

فحملق عازف الكمان فى كونتا للحظات طويلة ثم تحدث بصوت تهكمى لاذع :

ـ اننى أعرف أن كل زنجى هنا يضرب أخماسا فى أســـداس بالنسبة لى · ولن أقول شيئا لاى شخص · ولكنى سأقول لك لانك مختلف عن باقي الناس · وعليك أن تعاهدنى بعـــدم أخبار اى شخص بما سأقوله لك ·

فقال كونتا :

فقال عازف الكمان بصوت منخفض :

ـ ان السيد الذى كان يمتلكنى فى نورث كارولينا قد غرق فى الماء ولم يعرف أحد كيف حدث ذلك · وعلى كل حال فقد هربت فى نفس تلك الليلة · ولم يكن لهذا السيد زوجة أو أولاد صغار لكى يطالبوا بامتلاكي · فأختبأت عند الهنود الحمر الى أن تخيلت أن الجو قد أصبح أمنا بحيث يمكننى ترك مخبئى والمجيء الى هنا فى فرجينيا والاستمرار في العزف على الكمان ··

فتساءل كونتا :

ـ وما هى فرجينيا ؟

فقال له :

ـ أيها الرجل . انك حقيقة لا تعرف أى شيء . أليس كذلك ؟ ان فرجينيا هى المستعمرة التى تعيش فيها الآن اذا كنت تريد أن تسمى هذه حياة ..

وسأله :

ـ وما معنى مستعمرة ؟

فقال له :

ـ انك أكثر غباء مما يبدو . أن هذه البلاد تتكون من ثلاث عشرة مستعمرة . فالى جنوب المكان الذى نحن فيه توجد مستعمرة كاليناس وفى الشمال توجد ميرلاند وبنسلفانيا ونيويورك وعدد آخر من المستعمرات . ولم يسبق لى أن ذهبت الى هناك فى الشمال وكذلك معظم الزنوج . وقد سمعت أن عددا كبيرا من الناس البيض فى الشمال لا يؤمنون بفكرة العبودية ويبادرون الى منح الحرية للسود من أمثالنا . وأنا شخصيا أعتبر زنجيا شبه حر ولذلك ينبغى على أن أبقى فى كنف أحد الاسياد نظرا لان الدوريات تلقى القبض على باستمرار ..

ولم يفهم كونتا هذا الكلام ولكنه تصرف على نحو يوحى بأنه قد فهم المعنى خشية أن يسبه عازف الكمان مرة أخرى . وتساءل عازف

ـ ألم يسبق لك أن رأيت أشخاصا من الهنود الحمر ؟

فتلعثم كونتا وهو يقول :

الكمان :

ـ لقد رأيت بعضهم .

« لقد كانوا موجودين هنا قبل مجيء البيض . والبيض يقولون أن واحدا منهم يقال له كولومباس هو الذى اكتشف هذا المكان . ولكنه اذا كان قد عثر على هنود حمر هنا فهو بذلك لا يكون هو مكتشف هذا المكان أليس كذلك ؟ »

وبدأ الحماس يدب فى عازف الكمان أثناء تحدثه فى هذا الموضوع . « والرجل الابيض يعتقد أن أى أناس تواجدوا فى هذا المكان قبل مجيئه اليه ليست لهم أهمية . فهو يسميهم : المتوحشين

ـ أو الهمجيين » واستمر فى القــاء دروسه « ان بعض الهنود الحمر يكرهون الزنوج ولكن البعض الآخر يحبوننــا • وأهم متــاعب واهتمامات الرجل الابيض هى : الزنوج والاراضى • فالناس البيض يريدون الحصول على جميع أراضى الهنود الحمر ويكرهون الهنود الحمر لانهم يخبئون الزنوج عندهم » • وتفحصت عيناه وجه كونتا واستطرد قائلا « ان جميع الافريقيين وكافة الهنود الحمر قد وقعوا فى نفس الغلطة ـ وغلطتهم أنهم سمحوا للبيض بالذهاب الى الاماكن الخاصة بهم • فأنتم فى أفريقيا قدمتم لهم الطعام والشراب والمبيت فكان أول شىء يفعلونه هو القيام بقتلكم واصطيادكم » •

وبعد أن استأذن كونتا وعاد الى كوخه بدأ يشعر شعورا صادقا حقيقيا أنه قد « عرف » شخصا ما لاول مرة على مدى ثلاث سنوات منذ أن تماختطافه من أفريقيا •

٥٥

وقرر كونتا التعرف على شخصية كل من الجناينى العجوز وبيل بشكل أعمق فذهب ذات يوم لزيارة الجنــاينى العجوز فى كوخه وسأله فجأة :

ـ كم تبلغ من العمر ؟

فقال الجناينى :

ـ أكبر مما تظن ومما يظن أى شخص آخر « وراح يفكر فى شرود ثم استطرد :

ـ لقد سمعت ـ عندما كنت طفلا صغيرا ـ صيحات الحرب التى كان يطلقها الهنود الحمر

ثم أطرق الجناينى برأسه للحظات صامته وبعدئذ رفع رأســه وحملق فى كونتا وبدأ يغنى « اياه ياه ، تائير أومبام . بوواه كى لاى زى داى نيك أولاى ، مان لون دى نيك أولاى اه واى نيى » • وصعق كونتا من الدهشة ثم توقف الرجل العجوز عن الغناء وقال :

ـ لقد اعتادت أمي التغني بهذه الاغنية وقالت أنها حفظتها نقلا عن أمها التى جاءت من أفريقيا تماما مثلما جئت أنت من أفريقيا مباشرة الى هنا • أيمكنك أن تعرف من أصوات الاغنية المكان الذى جاءت منه جدتي ؟ » • فقال كونتا « ان الاصوات تشبه لغة قبيلة سيرير • ولكن لا أعرف معنى الكلمات »

وغير كونتا مجرى الحديث فسأله عن المكان الذى جاء منه وكيف انتهى به المطاف أخيرا فى هذه المزرعة • ولم يرد الجناينى على الفور ثم قال « اننى أعرف أن الزنوج قد عانوا كثيرا من الاهوال » • واستطرد قائلا « لقد كنت رجلا قويا فى يوم ما • اذ كان باستطاعتى لوى قضيب من الحديد على ساقى • وحمل زكيبة مليئة بالمحوم يعجز عن حملها بغل • ولكن تم استنزافى من كثرة الضرب والانهاك فى العمل الى أن أصبحت على حافة الموت • وبعدئذ قام السيد هنا بشرائى » وتوقف عن الكلام ثم استأنف « والآن أصبحت ضعيفا خائر القوى وكل ما أريده هو الخلود الى الراحة فى أيامى الاخيرة المتبقية من عمرى » •

ثم ذهب كونتا الى بيل وبدأ حديثه معها بالتساؤل عن السبب فى عدم زواج السيد ولر نظرا لأنه كان يعرف أن التحدث عن السيد ولر يعتبر هو الموضوع المفضل عندها • فقالت له :

ـ لقد تزوج هو والآنسة بريسكيلا فى نفس السـنة حتى جاء فيها الى هنا • وكانت زوجتـه جميـلة ضعيفة البنيـان وهذا هو السبب فى انها ماتت أثناء وضعها مولودها الاول • وكان المولود طفلة صغيرة ولكنها ماتت هي الاخرى• فحدثت تغييرات في شخصية السيد ولر ولم يعد يحتمل رؤية شخص مريض أو جريح • دون أن يبادر الى علاجه • وقد جن جنونه بسبب قطعهم جزءا من قدمك بل انه قد أضطر لان يشتريك من أخيه جون الذى كان قد أستعان بأفاقين من البيض للبحث عنك • ولقد قال هؤلاء الافاقين أنك قد حاولت قتلهم

وراح كونتا يفكر فى موطنه الاصلى ، وعندئذ تذكر شيئا كان يريد قوله لبيل منذ فترة طويلة •• وأحس أن اللحظة المناسبة قد جاءت ليقول لها ذلك الشيء • وعندئذ قال لها فى كبرياء انها تشبه المرأة المندينكية الجميلة فيما عدا لونها البنى •

ولم ينتظر ردود فعلها ازاء هـــذا المدح الكبير لجمالها ولكنها

قالت في غضب :

ـ ما هذا الكلام الفارغ ؟ انني لا أعـرف السـبب الذى يجعل البيض يداومون على الحصول على شحنات من السفن مليئة بالزنوج الافريقيين من أمثالك ؟

# ٥٦

ولم تتحدث بيل مع كونتا طوال الشهر التالى • وفي وقت مبكر من صباح أحد الايام اندفعت نحو الحديقة وقالت لكونتا فى اثارة :

ـ لقد سافر الشريف بعربته توا بعد أن قال للسيد انه كانت هناك اشتباكات حربية هائلة في الشمال فى مكان يسمى بوستن! فالناس البيض ثائرون الى حد الجنون بسبب الضرائب التى فرضها ملك انجلترا • وأمر السيد سائقه لوثر بالانطلاق به بسرعة بالعربة حتى يتمكن من حضور الجلسة في برلمان الولاية • وكان يبدو عليه القلق بشكل أكيد •• وعندما عادت عربة السيد عقب الشفق الاحمر بفترة طويلة أسرع السائق لوثر الى صف أكواخ العبيد ومعه مزيد من التفاصيل التى التقطتها أذناه •• انهم يقولون أن بعض الناس من بوستن قد جن جنونهم بسبب الضرائب التى فرضـها الملك فساروا نحو جنود الملك وبدأ جنود الملك فى اطلاق الرصاص فاصابت الرصاص زنجيا واحدا يسمى كرسيسوس آتوكس • وهم يطلقون على هذه الحادثة مذبحة « بوستن » •

وأستمرت الاخبار المتعلقة باحداث الشمال تتناقل خبرا وراء خبر طوال موسم الصيف وخلال الخريف • وبدأ لوثر يستمتع بالشعبية بين زملائه فى صف أكواخ العبيد لأنه يزودهم بالمعلومات •• وذات يوم قال لهم :

ـ لقد وقع الاختيار على السيد جورج وشنجتن ليقود الجيش وانه سـمع أيضـا أن بعض الزنوج فى نيو انجلند قد حرروا من

العبودية لكي يشتركوا في محاربة المعاطف الحمراء التابعين للملك ٠
فصاح عازف الكمان :

ـ لقد سمعت هذا الخبر ٠ ولكن الزنوج لن يجروا الى الحرب ويقتلوا فيها مثلما حدث في الحرب الفرنسية الهندية فما أن انتهت تلك الحرب حتى عاد البيض الى ضرب الزنوج بالسياط ٠٠

فقال لوثر :
ـ ربما لا يحدث ذلك الامر في هذه المرة ٠ فقد سمعت أن بعض الناس البيض ٠ فالزنوج الاحرار في الشمال مصابون بالخبل مناهضه للعبودية في فيلادلفيا واعتقد انهم لا يؤمنون بأن يكون الزنوج عبيدا ٠٠

فعلق عازف الكمان :
ـ وأنا أيضا لا أؤمن بأن يكون الزنوج عبيدا ٠
وقال لوثر .
ـ لقد أوقف الجنرال جورج وشنجتن عملية تعزيز الجيش بأى عدد آخر من الزنوج ٠ الا أن الزنوج الاحرار في الشمال يجادلون في هذا القرار ويقولون انهم جزء من هذه الدولة ويبدون رغبتهم في الاشتراك في القتال ٠٠

فقال عازف الكمان :

ـ ان الزنوج في الشمال لا ينتهزون هذه الفرصة الرائعة ٠ اذ يجب عليهم الا ينضموا للجيش وذلك لكي يهلك أكبر عدد من الناس البيض ٠٠ فالزنوج الاحرار في الشمال مصابون بالخبل والجنون ٠٠

وذات يوم قالت بيل :
ـ ان السيد وضيوفه يشعرون بالرعب والغضب حيث ترامى الى علمهم أن الآلاف من العبيد في جورجيا وساوث كارولينا وفرجينيا يهربون في جرأة كبيرة من مزارعهم للانضمام الى اللورد دانمور Dunmore الحاكم الملكى لفرجينيا والذى أعلن منح الحرية للزنوج الذين ينضمون لاسطوله الانجليزى ٠ وبعدئذ أصدر السيد تعليماته لبيل بأن تخبر العبيد بالانباء التى تقول أن دار الحقوق المدنية بفرجينيا قد اتخذت قرارا ينص على « عقوبة الموت بدون الحصانة الاكليريكية لجميع الزنوج والعبيد الآخرين الذين يتآمرون للقيام بثورة أو تمرد على السلطة »

وتسأل أحد المزارعين :
ـ ما معنى ذلك ؟
فأجاب عليه عازف الكمان :
ـ اذا قمت بالتمرد فان البيض لن يستدعوا الواعظ الدينى أثناء قيامهم بقتلك » ·
وذات يوم أسرعت بيل الى أكواخ العبيد ومعها أنباء جديدة سمعتها من ضيف كان يتناول غداءه فقالت انه قد صدر توا قرار أو رائدين » ·
فتساءل أحد المزارعين « وما هى مهمة الرائدين ؟ » ·
فقال عازف الكمان ·« مهمتهم أن يحاربوا فى المقدمة ويقتلوا »
ثم وصلت أنباء أخيرا تفيد أن الحرب انتهت لصالح جورج واشنجتن وقالت بيل « لقد بدأت الابتسامة تعود لوجه السيد لاول مرة منذ سنوات طويلة » ·
وبعد فترة قصيرة قال لوثر :
ـ أن السيد جفرسون وضع قانونا بشأن تحرير لعبيد · وينص هذا القانون على أن الاسياد لهم الحق فى تحرير عبيدهم ولكنى سمعت أن الكويكرز والناس المناهضين للعبودية والزنوج الاحرار فى الشمال يعترضون على نص هذا القانون ويقولون انه لا يوجد هناك شىء يرغم الاسياد على تحرير عبيدهم علاوة على أنهم لايرغبون فى تحرير عبيدهم » ·
وعندما سرح الجنرال جورج وشنجتن الجيش فى نوفمبر ١٧٨٣ منهيا بذلك رسميا ما درج الناس على تسميته « بحرب السنوات السبع ( قالت بيل لكل شخص فى أكواخ العبيد :
ـ ان السيد يقول ان السلام قد حل فى ربوع البلاد الآن ··
فقال عازف الكمان فى مرارة « لن يكون هناك سلام طالما أنه هو سلام الناس البيض فقط لانهم لا يحبون شيئا أكثر من حبهم للقتل وسفك الدماء ·· ومن رأيى أن الامور ستصبح أشد سوءا بالنسبة لنا نحن الزنوج » ·
وبعدئذ جلس كل من كونتا والجنايني العجوز وتحدثا فى هدوء · فقال الجناينى :
ـ لقد شاهدت بنفسك أحداثا كثيرة منذ أن جئت الى هنا · فما هى الفترة التى قضيتها منذ مجيئك ؟ » · ولم يعرف كونتا المدة التى قضاها فى أرض البيض وسبب له ذلك بعض الضيق والاضطراب · وعندما رجع الى كوخه فى تلك الليلة راح يحصى كومات الزلط فتبين له أنه قضى ١٧ عاما فى أراضى البيض · ومعنى

ذلك أنه قد وصل الى سن ٣٤ سنة · وبدأ يحس بالضياع فها هو الآن لا أولاد له ولا أسرة ولا قرية ولا أهالي ولا وطن ولا يوجد له ماض حافل حقيقى ولا يوجد أمامه مستقبل يتطلع اليه ·

xxxxxxxxxxxxxx

# ٥٧

ولم يضطر كونتا لان يفكر طويلا فى المستقبل · فبعد أيام قليلة وصلت أنباء اجتاحت المزرعة كالصاعقة · اذ جاءت بيل لاهثة الى صف أكواخ العبيد عقب وصول الشريف لعقد اجتماع سرى مع السيد وقالت :

ــ ان فتاة قد هربت وألقى القبض عليها فاعترفت تحت وطأة الضرب بالسياط أن الذى رسم لها طريق الهرب هو لوثر سائق السيد ·

وتوجه السيد وولر الى أكواخ العبيد وهو فى حالة هياج شديد ــ قبل أن يتمكن لوثر من الهرب واصطحبه معه وواجهه مع الشريف وسأله عما اذا كان ذلك قد حدث منه بالفعل ·· فاعترف لوثر وهو يرتعد من الخوف · وظل السيد وولر محملقا فى صمت للحظات ثم قال أخيرا فى هدوء شديد « يا شريف ، ألق القبض على هذا الرجل وأودعه السجن اذ ينبغى أن يتم بيعه فى المزاد القادم الخاص بالعبيد » وبدون أن ينطق بكلمة أخرى استدار وعاد الى منزله متجاهلا نشيج لوثر وبكاءه الاليم · وما أن بدأت التخمينات عمن سيتم تعيينه كسائق للسيد خلفا للوثر حتى جاءت بيل ذات ليلة وأخبرت كونتا أن السيد يريد أن يراه على الفور · فذهب كونتا برفقة بيل لمقابلة السيد ·

ــ اسمع يا توبى · اننى فى حاجة الى سائق للعربة · وأنت فى هذا المكان قد كبرت وأصبحت رجلا وأنا أعتقد أنك مخلص ·· ان بيل قالت لى إنك لاتشرب الخمر وأنا أحب هذه الصفة فيك · هذا بالاضافة الى أننى لاحظت الطريقة التى تدير بها شئونك ··

ثم توقف عن الحديث وعندئذ رمقت بيل كونتا بنظرة خاطفة · فقال كونتا على الفور :

ــ نعم ، يا سيدى ··

واستطرد السيد قائلا :
ـ حسنا ، ستبدأ في قيادة عربتي غــــدا حيث سأقوم بزيارة « نيوبورت » وسأرشدك على الطريق الى أن تتعلمه ..
ثم وجه حديثه لبيل اعطه الملابس التي تتلاءم مع عمله الجديد. وأبلغي عازف الكمان بأنه سيحل محل توبي في الحديقة .
ونظرا لان المرضى كانوا يستدعون السيد وولر في أية ساعة سواء بالنهار أو بالليل فانه بدوره كان يستدعي كونتا الذي كان يبادر الى سحب الجياد للقيام بالرحلات المهلكة الخطيرة الى منازل تقع أحيانا على مسافة أميال طويلة من المزرعة .
وفي صباح أحد الايام ذهب السيد وولر الى منزل أخيه جون وقام بتوليد زوجته ، ثم قال السيد لكونتا أثنــــاء عودتهما : انها ولدت طفلة وزنها خمسة أرطال ، كما قال أنهم سيسمونها «آن» .
وفي خلال الشهور الاولى من تولى كونتا مهمة قيادة عربة السيد كانت الطاهيات في المنازل الكبيرة المختلفة اللائى تقدمن الطعام لكونتا في مطابخهن ـ وخاصة الطاهية التي تسمى « حاتى ماى » التي تقوم بالطبخ في « أنفيلد » ـ تنظرن لكونتا بعيون فاحصة وهن شاعرات بنفوذهن على النحو الذى تشعر به بيل في منزل السيد وولر . ونظرا لان كونتا كان يعاملهن في وقار وتحفظ فان واحدة منهن لم تجازف باظهار التحدى له بشكل مباشر .
وفي إحدى الزيارات التي تمت أخيرا لـ « أنفيلد » ، وضعت الطاهية أصبعا على شفتيها وقادت كونتا الى داخــل غرفة صغيرة بعيدة في داخل المنزل الكبير وأشارت بيدها الى احدى الحوائط فرأى منظرا لشخص ممتطى جوادا . وأوضحت له درع النبالة لاسرة وولر وختمهم الفضي وسترتهم العسكرية ومسدساتهم الفضية وسيفهم الفضي وكتاب الصلوات الخاص بالكولونيل وولر المؤسس الاول لاسرة وولر . ثم قالت « ان الكولونيــل العجـوز قد شيد « أنفيلد » وقد دفن في نفس هذا المكان .. ثم سار الى جوارها لكي تريه القبر والشاهد المكتوب عليه الاسم . وبعد دقيقة من حملقة كونتا في شاهد القبر ، سألته بطريقة عرضية :
ـ أتريد أن تعرف الكلام المكتوب على شاهد القبر ؟
فأومأ كونتا برأسه . وراحت هي « تقرأ » على وجه السرعة العبارة التي حفظتها عن ظهر قلب منذ فترة طويلة « احياء للذكرى المقدسة لروح الكولونيل جون وولر ، جنتلمان ، الابن الثالث لكل من : جون وولر ومارى كي . استقر به المقام في فرجينيا في عام ١٦٣٥ وهو من نيوبورت باجنيل ، باكينجهام شاير » .

# ٥٨

وذات يوم عرض السيد وولر على صديق له أن يوصله بالعربه لاحد الاماكن وراح الاثنان يتحدثان سويا كما لو كان كونتا غير موجود معهما بالعربة • اذ قال ذلك الصديق :

ـ كان ينبغي علينا الا ندع الزنوج يحملون السلاح ضد الرجل الابيض أثناء الحرب • فنحن من الآن بدأنا نشاهد النتائج المترتبه على ذلك •• ثم راح يبين كيف أن بعض الجنود من العبيد السابقين عليهم قبل قيامهم مباشرة بثورة مدبرة محكمة الخطة • «واستطرد» وكان لديهم بنادق ومناجل كبيرة بل وكان لديهم رماح قاموا بصنعها بأنفسهم •• ويقال ان خطتهم كانت تهدف الى القتل واشعال الحرائق ليلا ونهارا •

ثم سمع السيد وولر وهو يقول فى وقار :

ـ ان أعمالهم هذه كانت ستؤدى الى فقدان الكثير من الاشخاص الابرياء وانه قد قرأ فى احدى الجرائد ان الزنوج قد قاموا بأكثر من ٢٠٠ ثورة منذ بدء احضار العبيد بالسفن • ولقد قلت مرارا ان أكبر خطر يتهددنا هو أن الزنوج يتزايدون بسرعة مما قد يؤدى الى أن يصبح عددهم أكبر من البيض » •

وكان هناك بعض السود من زملاء كونتا بالمزرعة يجتمعون سرا لمناقشة أى شيء سواء أكان حسنا أم سيئا يحدث للعبيد فى الاماكن الاخرى مع البحث فى الاجراءات التى يمكنهم أن يتخذوها لتقديم المساعدة • ولم توجه الدعوة مطلقا لكونتا لحضور الاجتماعات السرية لهؤلاء الناس • فاعتقد كونتا أنهم يحسون أن قدمه ستجعله عديم الفائدة فى حالة قيام ثورة حقيقية • وكان كونتا يتمنى لهم التوفيق من كل قلبه • الا أنه كان يعتقد أن أى تمرد أو ثورة لن يكتب لها النجاح بسبب المزايا الهائلة التى يتميز بها البيض على السود • فليس من المعقول أن يستخدم السود سكاكين المطابخ والبنادق المسروقة ويتفوقون على الجيوش الجرارة المزودة بالمدافع الخاصة بالبيض • وكان كونتا يدرك أنه قد فقد الحماس فى الهرب والقتال والجرى وبدأت تسيطر عليه الرغبة فى أن يترك وشأنه • فقد أصبح ضمن أولئك الذين لا يرغبون فى انهاء حياتهم بالموت •

## ٥٩

وبعد أن راح كونتا فى اغفاءة من النوم تحت ظل شجرة بلوط فى الفناء الخلفى فى احدى المزارع حيث كان السيد يقوم بمعالجة أسرة بأكملها أصيبت بالحمى ، استيقظ فجأة عندما دوى البوق الصدفى فى الفترة المسائية لاستدعاء العبيد من الحقول . فنظر كونتا اليهم أثناء مرورهم بجواره ودهش عندما شاهد أربعة منهم ـ رجل وامرأة وولدان فى سن المراهقة ـ من البيض .

وبعد دقائق قليلة تحدث مع الطاهية فى هذا الشأن فشرحت له الموقف بقولها :

ـ انهم يسمون البيض المتعاقد عليهم وهم عبارة عن أسرة جاءت من مكان ما فيما وراء المياه الكبيرة وقد دفع السيد ثمن نقلهم الى هنا بالسفينة ولذلك فانه ينبغى عليهم أن يسددوا ثمن نقلهم وذلك بالاشتغال عنده كعبيد لمدة سبع سنوات . وبعد انقضاء المدة يصبحون أحرارا مثل أى أناس بيض آخرين .

وقد لاحظ كونتا أن هؤلاء البيض العبيد كانوا أيسر حالاً من البيض الأحرار الفقراء الأفاقين الذين يصفهم الأسياد اصحاب المزارع بانهم « أناس بيض تافهون كسالى عديمو الحيلة لا قيمة لهم » . وحقيقة الأمر أن ذلك الوصف ـ وفقا لتقديرات كونتا ـ يحتوى على قدر كبير من المجاملة لوثنيين كفار قد بلغت بهم الوقاحة حدا كبيرا لدرجة أنهم يرتكبون كل اساءة يمكن تصورها ضد مبادىء الحشمة واللياقة والأدب التى رفع لواءها الدين الاسلامى . فهو قد لاحظ فى رحلاته مع السيد وولر الى المدن المجاورة أنهم يضحكون ويسخرون من بعضهم البعض وينفجرون بالغناء وهم سكارى ويصفرون وينادون بوقاحة على النساء المارات ويسبون بعضهم البعض بالفاظ بذيئة . وربما كان السبب فى اخلاقهم المنحطة ـ كما قال عازف الكمان له ـ هو أنهم محرومون من كل شىء بينما البيض الاغنياء لديهم الثروة والسلطة والممتلكات بما فى ذلك العبيد . ولكن كونتا لم يكن يحس بأى شفقة نحوهم بل وكان يحس نحوهم ببغض شديد منذ أن ارتفعت الفاس فى يد أحدهم

وهبطت على قدمه فقضت الى الابد على شيء أغلى من حياته ذاتها : الأمل فى تحقيق الحرية ٠

وفى أواخر صيف عام ١٧٨٦ عاد كونتا الى المزرعة من مجلس الولاية بانباء مثيرة ، اذ كان الناس البيض يلوحون بنسخ من من الجازيت ويتحدثون عن تزايد عدد « الكويكرز » الذين بدأوا فى تقديم المساعدات الفعلية للعبيد واخفائهم واعانتهم على الوصول فى أمان الى الشمال ٠ وفى وقت متأخر من تلك الليلة راح كونتا يقص على العبيد ما شاهده وأثناء تحدثه جاءت بيل وقالت انها قد سمعت توا السيد وولر وبعض ضيوفه يناقشون فى مرارة الاخبار التى تفيد ان العبودية قد الغيت بالفعل مؤخرا فى ولاية شمالية تسمى « ماساشوسيت » وأن هناك تقارير تفيد أن ولاية أخرى مجاورة ستحذو حذوها ٠

فتساءل كونتا « ما معنى كلمة ألغيت ؟ » ٠

وأجاب عليه الجناينى العجوز « معناها أننا جميعا نحن الزنوج ستصبح أحرارا فى يوم ما » ٠

## ٦٠

ولاحظ كونتا أن عازف الكمان أصبح قليل الكلام ولا يجلس كثيرا معه ومع باقى العبيد فسأل بيل عن السبب فى ذلك ٠ فقال له :

ـ ان عازف الكمان يجرى هنا وهناك فى أنحاء الولاية ليل نهار ليعزف للناس البيض ويحصل فى كل ليلة على دولار ونصف دولار ويأخذ منه السيد نصف هذا المبلغ أى أنه يحصل على ٧٥ سنتا ٠ وهذا هو السبب فى أنه لم يعد يهتم بالعزف للزنوج لأنه يخشى أن يعزف لهم فى مقابل خمسة سنتات » ورمقت كونتا بنظرة لترى عما اذا كان وجهه قد أشرق بابتسامة فرأت وجهه جامدا ٠ وكان ذلك أمرا طبيعيا فهى لم تشاهده مبتسما سوى مرة واحدة فقط وذلك عندما سمع أن عبدا صديقا له يعمل فى مزرعة مجاورة قد

نمكن من الهرب بنجاح ووصل الى الشمال • واستطردت بيل قائلة : « لقد سمعت أن عازف الكمان قد وضع خطة لتوفير النقود من العزف حتى يتمكن من شراء حريته من السيد » •

فقال كونتافي وقار شديد : « انه سيحتاج لوقت طويل للغاية لكي يجمع النقود اللازمة لشراء حريته • وعندما ينتهي من جمع المبلغ المطلوب • سيكون قد وصل الى سن الشيخوخة بحيث لا يستطيع مغادرة كوخه »

فانفجرت بيل في عاصفة من الضحك حتى أنها أحست بالخجل من نفسها •وذات يوم وجه والدا السيد وولر الدعوة لابنهما السيد وولر ولعدد كبير من الاسياد في فرجينيا لحضور الاحتفال السنوى الراقص الذى يقال بمناسبة عيد الشكر في « أنفيلد » • وما أن وصلا الى مكان الاحتفال حتى ترامي الى آذن كونتا صوت ذلك الشيء •• فمن مكان ما قريب للغاية كانت يدا شخص تدقان على آلة تشبه الطبلة تسمى «كوا — كوا » وكان يدق عليها في حدة وعنف مما جعل كونتا يدرك على الفور أن الموسيقار افريقي • فاندفع كونتا متجاهلا صيحات العبيد الساخطة أثناء شق طريقه بينهم نحو الدائرة المكشوفة وهناك كان يوجد رجل هزيل نحيل رمادي الشعر ذو بشرة شديدة السواد ويدق على آلة « الكوا — كوا » .وبينما كان السود يرمقون كونتا بنظرات قاسية بسبب مقاطعته الفجائية لهم ، تقابلت عيناه مع عيني الرجل • وبعد لحظة واحدة قفز كل منهما نحو الآخر وتعانقا في حرارة شديدة وأخذا يضحكان :

« — سالا ليوم — سلام »

« مالاكيوم — سلام »

وصدرت عنهما الكلمات كما لو أنهما لم يتركا افريقيا على الاطلاق • وقال كونتا (( انني لم أشاهدك هنا من قبل ))

فقال الرجل العجوز « لقد كنت في مزرعة أخرى وتم بيعي لأصحاب هذه المزرعة »

فقال كونتا : « أن سيدى هو ابن سيدك وأنا أقود له العربة »

وشعر كونتا بأن السود متضايقون فقال للرجل العجوز « سأعود اليك مرة أخرى » •

وعلى مدى الاسابيع التالية راح كونتا يفكر في هذا الرجل الافريقي العجوز وبدأ يتحرق شوقا لأن يقابله مرة أخرى •

وبعدئذ وفي أحد أيام الآحاد وعقب تناول الغداء قرر السيد وولر الذهاب الى انفيلد · فكاد كونتا يطير من الفرح · وما أن وصلا الى هناك حتى انطلق كونتا الى كوخ الرجل العجوز وطرق بابه · فرد الصوت الذى يتذكره كونتا « من الطارق ؟ »

فقال كونتا « آه ـ سالاكيوم ـ سلام » ثم سمع حركة سريعة مكتومة فى داخل الكوخ وبعدئذ انفتح الباب على مصراعيه ·

# ٦١

وجلس كل منهما القرفصاء على الارض بالطريقة الافريقية · وتحدث الرجل العجوز « لقد جئت من غانا وقبيلتى تسمى أكان والناس البيض يسموننى بومبى ولكن اسمى الحقيقى هو : بوتينج بيدياكو · ولقد أمضيت فترة طويلة هنا بعد اختطافى من افريقيا وأنا ولد صغير واشتغلت فى ست مزارع خاصة بالبيض وآمل أن تكون هذه المزرعة هى الأخيرة » ثم حدثه كونتا عن نفسه وقريته وقبيلته وظروف اختطافه ثم تساءل الرجل العجوز ·· كم تبلغ من العمر ؟ »

فقال كونتا انه قد بلغ ٣٧ عاما · ثم قال الرجل العجوز عن نفسه أنه قد بلغ ٦٦ عاما · ثم استطرد « وياليتنى قد تعلمت وأنا صغير ذلك الشئ الذى عرفته الآن بعد أن كبرت فى السن · ولكن نظرا لانك مازلت صغيرا فاننى سأقول لك ذلك الشىء : ان أهم شئ يحتاج اليه المرء لكى يعيش هنا هو الصبر والصلابة » ·

ومرت فترة صمت ثم قال الرجل الغانى « من المؤكد انه لايوجد شخص هنا يمكنه أن يتحدث مع شخص آخر مثلما فعلنا الآن · وفى كثير من الحالات نقول آلة الكوا ـ كوا ما يدور فى ذهنى · وأظن اننى كنت أتحدث معك من خلال آلة الكوا ـ كوا بدون ان ادرك انك كنت موجودا هناك » ثم أستطرد قائلا « اننى فى بلدى عندما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صديق لى كنت أقوم بصنع حلية

جميلة من فرع شجرة عن طريق الحفر ثم أقدمها له فى نهاية اللقاء وهذه عادة كانت منتشرة في « غانا » فقال كونتا أنه لو كان في جامبيا لكان قد نحت شيئا من بذرة مانجو كبيرة مجففة » واستطرد « ولقد تمنيت لو كان عندي بذرة مانجو لكى أزرعها وارعاها الى ان تنمو تصبح لكى تذكرنى بوطنى »

فنظر الرجل الغانى في وقار لكونتا ثم ابتسم وقال « انك صغير السن ومازال في ظهرك قدر كبير من البذور • وانت تحتاج فقط لزوجة تزرع فيها هذه البذور » فاحس كونتا بخجل وارتباك شديد ولم يعرف كيف يرد معلقا على ذلك • وهنا مد الرجل الغانى ذراعه اليسرى فتصافحت يداهما اليسرى بالطريقة الافريقيه كدليل على انهما سيلتقيان قريبا مرة أخرى •

« آه — سالاكيوم — سلام »

« مالا بيوم — سلام »

خرج كونتا مسرعا وهو يسأل نفسه عما اذا كان السيد قد خرج من المنزل الكبير باحثا عنه • ولكن السيد لم يخرج الا بعد مرور نصف ساعة أخرى • وبينما كان كونتا يقود العربة فى اتجاه العودة أحس أنه تجاذب أطراف الحديث مع والده العزيز أمورو • ولم يشهد كونتا طوال حياته ليلة لها نفس اهمية تلك الليلة •



# ٦٢

وقد أدى لقاء كونتا بالرجل الغانى الى هز كيانه بعنف • اذ بدأ يدرك فى وضوح أنه يعيش فى ضياع هائل مخيف وانه يفقد طابعه الافريقى الاصيل تدريجيا • وأخذ كونتا يسترجع فى ذهنه أسماء آل كينتا ابتداء من العشيرة القديمة في مالى القديمة وعبر الاجيال فى موريتانيا ثم فى جامبيا على طول التسلسل حتى وصل الى أخوته ونفسه • وراح يفكر فى كيف أن نفس هذه المعلومات القديمة عن أجداده كان يعرفها كل شخص من رفاقه الذين هم من نفس عمره •

وأدى هـذا بكونتا الى الرجـوع الى ذكريات الماضى المتعلقـة بهؤلاء الاصدقاء من رفقاء عمره • وعندما أكتشف انه نسى أسماءهم اعترته الدهشة فى بادىء الامر ثم أصيب بصدمة نفسية • الا أن ملامح وجوههم بدأت تعود الى ذهنه مصحوبة بذكريات عنهم • وأخيرا بدأت الاسماء تقفز الى ذهنه الواحد تلو الأخر : سيتافا سيلا صديقه الحميم ، وكاليليو كونث الذى طلب منه الكينتانجو الأمساك بالطائر بل وبدأت وجوه وأسماء الاشخاص الكبار تعود الى ذهنه : الكينتانجو وكان يسـمى سيلا باديبا وأمام القرية وكان يدعى كوجالى ديمبا • والمنادى وكان اسمه كارامو تامبا ثم تذكر كونتا حفل التخرج من المدرسة حيث قرأ آيات من القرآن الكريم بطـريقة جيدة للغاية وكان العريف اسـمه بريما سيساى •

وظل كونتا لفترات طـويلة منعزلا عن زملائه من العبيد بسـبب شعورهم بأنهم ليسوا على مستوى أصدقائه القدامى فى افريقيا وأحسوا هم بذلك وتضايقوا وقرروا أن يتركوه وشأنه • الا أن كونتا بدأ يحس بمشاعر الوحدة القاسية فقرر الذهاب الى عازف الكمان وطرق على باب كوخه •

ففتح له عازف الكمان الباب وسأله فى برود « ماذا يريد ؟ » فأحس كونتا بالخجل وقال : « لقد خطر على ذهنى أن أجىء الى هنا » ••

فقال عازف الكمان : « مادمت قد وصـلت الى هنا بالفعـل ، تفضـل بالدخول ولكنى أقول لك : اذا تصرفت معنا مرة أخـرى على ذلك النحو فاننا جميعا لن نتحدث معك مرة أخرى الى أن تصير رجلا عجوزا مثل « مثيو صلاح » • « وهو أحد البطارقة الذين ورد اسمهم فى التوراه » فكبت كونتا غضبه واذلاله وجلس فى الكوخ • وبعد مرور فترة صمت بينهما بدت لانهائية أرغم كونتا نفسه على التكلم فقال ان هناك اقتراحا بعودة جميع السود الى افريقيا •• فقال عازف الكمان فى برود أنه سمع عن هذه الفكرة منذ فترة طويلة للغاية وانه لا أمل فى تحقيق ذلك فى يوم من الايام •

وعندما شاهد عازف الكمان تعبيرات الالم واليأس على وجه كونتا رق قلبه بعض الشىء وقال « دعنى أقول لك شيئا أعتقد أنك لم تسمع عنه :

ــ هناك فى الشـمال فى نيويورك تكونت جمعيـة تسمى « جمعية تحرير العبيد »

وقد انشأت هذه الجمعية بالفعل مدرسة من أجل الزنوج المحررين الذين يرغبون في تعلم القراءة والكتابة والامور المتعلقة بالتجارة » .

وعندئذ أحس كونتا بسعادة غامرة لدى ادراكه أنه قد نجح في جعل عازف الكمان يتحدث معه مرة أخرى . وفي غمرة نشوته لم يتمكن من متابعة حديث صديقه القديم . وبعد دقائق قليلة توقف عازف الكمان عن الحديث للحظات وراح ينظر لكونتا نظرات تنم عن الاستفسار . ثم تساءل أخيرا « هل أتسبب الآن فى تعطيلك وتضييع وقتك ؟ » ..

فقال كونتا « هيه ؟ » حيث كان شاردا فى أفكاره الخاصة .
« لقد سألتك سؤالا منذ خمس دقائق »
« آسف ، فقد كنت أفكر في شيء ما »
«حسنا ! حيث انك لا تعرف كيف تصغي الى فسوف أريك كيف يتم ذلك » ثم جلس جلسة مريحة ووضع ذراعا على ذراع .

فتساءل كونتا « الن تستأنف الكلام في الموضوع الذى كنت تتحدث فيه ؟ »

« لقد نسيت الآن ما كنت أتحدث فيه هل نسيت أنت ما كنت تفكر فيه »

« ان ما كنت أفكر فيه ليس بالشيء الهام . مجرد شيء خطر على ذهني »

« يمكنك أن تعرض على شيئا مما يدور فى ذهنك »
« انه شيء لا يمكن مناقشته . فهو موضوع شخصى جدا »

وعندئذ ظهر بريق فى عينى عازف الكمان وقال : « لا تقل لى . ان الموضوع يتعلق بامرأة . أليس كذلك ؟ » .

فقال كونتا وقد احمر وجهه خجلا « انه ليس شيئا من هذا القبيل » ثم نهض واقفا للانصراف وقال : « شكرا لك على التحدث معى »
ـ « سأقول لك شيئا : دعنى أعرف عندما تريد أن تتحدث فى هذا الموضوع »

وساءل كونتا نفسه وهو فى طريقه الى الاسطبل « ترى كيف عرف ذلك ؟ فقد كان يفكر فعلا فى نصيحة الرجل الغانى بشأن ضرورة بذر البذور » .

## ٦٣

وكانت هناك أسباب كثيرة تؤدى الى عدم تفكيره في الزواج ٠منها أن مراسم الزواج تشتمل على « القفز على يد المقشة » أمام جمهور المشاهدين من العبيد وهو أمر يعد من وجهة نظر كونتا مثيرا للسخرية فى مثل هذه المناسبة الجادة ٠ وعلاوة على ذلك فانه كان قد سمع أن العروسين يرددان القسم وراء واعظ أبيض بحضور السيد والسيدة مما يجعل الاحتفال ذا طابع وثنى وليس اسلاميا ، كما أنه لم يشاهد فتاة سوداء صغيرة فى السن عاقلة فهن جميعا سخيفات بسبب مداومتهن على الانفجار فى الضحك أثناء الاحتفالات ٠ وفى أيام الآحاد وتضعن المساحيق على وجوهن مما يجعل منظرهن أشبه براقصات الموت فى جوفيور ٠ وفى احدى الليالى وبينما كان مستلقيا فى سريره محاولا الاستسلام للنوم خطرت على ذهنه فجأة فكرة كالسهم المضىء ٠٠ ان هناك امرأة اخرى يمكنه أن يفكر فى الاقتران بها ٠٠

« بيل »

وأعتقد أنه مخبول ٠٠ فقد كانت كبيرة فى السن للغاية حيث كان عمرها يتعدى الاربعين عاما ٠ وأحس أنه من السخف أن يفكر فى الاقتران بها ٠٠ ولكنه تذكر كيف انها قامت بتمريضه وتنظيفه من أوساخه عندما كان يرقد بين الحياة والموت عقب قطع جزء من قدمه ٠٠ وبالاضافة الى كل ذلك فهى قوية وبصحة جيدة وتطهى أصنافا من الطعام لا حصر لها فى آنيتها السوداء ٠

وذات يوم تحدث كونتا مع الجناينى العجوز وعازف الكمان لبعض الوقت ثم تساءل بطريقة عرضية :

ـ أين كانت بيل قبل أن تجىء الى هنا ؟ فنظرا لبعضهما البعض وقد أحسا أن فى الامر شيئا ٠

وقال الجناينى العجوز بعد دقيقة :

ـ حسنا ! اننى أذكر انها جاءت الى هنا قبل مجيئك أنت بحوالى

سنتين . الا أنها لم تتحدث على الاطلاق عن نفسها . ولذلك فان معلوماتى عنها لا تزيد عن معلوماتك ..

وقال عازف الكمان :

ـ ان بيل لم تتحدث معه مطلقا عن ماضيها .

وأخذ عازف الكمان يهرش فى أذنه اليمنى ثم قال

ـ انه لمن العجيب حقا أن تسأل عن بيل لأننى والجنايني كنا نناقش امركما منذ فترة قصيرة .

ثم رمق كونتا بنظرة فاحصة

وقال الجنايني :

ـ لقد قلنا أن كلا منكما يحتاج الآخر .

ونظر عازف الكمان نظرة خبيثة الى كونتا وهو لا يزال يهرش فى أذنه . ثم قال :

ـ انها قوية بحيث تكفى معظم الرجال .

فبدأ كونتا فى التحدث بغضب الا أن الجناينى قاطعه وقال له في حدة :

ـ استمع الى ... منذ متى لم تلمس امرأة ؟

فنظر كونتا شذرا، وعندئذ صاح عازف الكمان

ـ منذ عشرين سنة على أية حال .

فقال الجناينى :

ـ يا الهى يحسن بك أن تتزوج قبل ان ينضب ماؤك .

فقال عازف الكمان على الفور :

ـ هذا اذا لم يكن ماؤه قد نضب بالفعل .

فاحس كونتا انه عاجز عن الكلام وضبط مشاعره للحظات أخرى ثم قفز واقفا وانطلق خارجا وهو يدق الارض بقدمه في عنف . فصاح عازف الكمان :

ـ لا تقلق . فان مياهك لن تظل جافة لفترة طويلة عقب الزواج « منها » ..

## ٦٤

وعثر كونتا على كتلة خشبية ممتازة بجوار أسطبل الخيول فنقلها الى كوخه وراح يفحصها تحت ضوء الشمعة المتذبذب فوق منضدته ٠ وبدأ يرى فى داخل ذهنه الهاون ويد الهاون اللذين صنعهما أمورو من أجل بنتا ٠

وقال لنفسه بانه يمكن له استغلال جانب من أوقات فراغه ٠ ولذلك فقد بدأ فى الكشط فى الكتلة الخشبية مستخدما بلطة خفيفة حادة ليصنع شكلا تقريبيا للحافة الخارجية لهاون لطحن الغلال ٠ وبحلول اليوم الثالث راح يحفر الهاون من الداخل مستخدما مطرقة وأزميلا خشبيا وبعدئذ بدأ فى النحت مستخدما سكينة وبعد أسبوع دهش كونتا من أصابعه عندما رآها تكاد تطير من السرعة خاصة وانه لم يكن قد شاهد الرجل العجوز فى قريته أثناء قيامه بنحت أشياء كهذه منذ أكثر من عشرين عاما ٠ وبعد أن انتهى من صنعهما أهداهما الى بيل ٠ فترك أثرا عظيما فى نفسها ٠

وبدأت فكرة الزواج من بيل تلح باستمرار على ذهن كونتا ٠ فتزايدت لقاءاته المنفردة بها ٠ وذات يوم قالت له أثناء تناوله الطعام فى المطبخ بالمنزل الكبير :

ـ لقد اكتشفت أن السيد قد نص فى وصيته على انه اذا مات بدون أن يتزوج يئول ملكية عبيده الى الآنسة آن الصغيرة ابنة اخيه جون أما اذا تزوج فان زوجته هى التى تحصل على عبيده بعد وفاته ومن المؤكد ان هناك عددا كبيرا من الفتيات اللائى يرغبن فى الزواج من السيد الا انه لن يتزوج مرة أخرى ٠٠ واستأنف ٠٠ تماما مثلى ٠٠ فانا أيضا لا أرغب فى الزواج مرة أخرى ٠٠ فاصيب كونتا بصدمة شديدة لدى ادراكه أن بيل قد سبق لها الزواج ٠ لأنه من غير المعقول ان تكون الزوجة التى يرغب فيها غير عذراء ٠ فانطلق عائدا الى كوخه وكان يدرك أنه ينبغى عليه اعادة التفكير فى هذا الموضوع بمزيد من العمق ٠

ومر أسبوعان من الصمت . ثم وجهت بيل الدعوة لكونتا لتناول طعام العشاء في كوخها . وعندما ذهب في الموعد المحدد رحبت به وطلبت منه الجلوس على كرسي هزاز قريب من الموقد ففعل ذلك في حرص وعناية لانه لم يسبق له من قبل أن جلس على أحد هذه الاختراعات الجديدة .

وقالت بيل « لقد كنت مشغولة للغاية حتى انني لم أقم باشعال الموقد» فقفز كونتا من فوق الكرسي وقد أسعده أن يجد شيئا ما يفعله بيده . وراح يضرب حجر الصوان بعنف في قطعة الحديد فاشعل بذلك القطن الموجود تحت أغصان الصنوبر وخشب البلوط وسرعان ما امتدت النيران في الاخشاب . وفي خلال فترة قصيرة أعدت وجبة من الدواجن المطبوخة مع الزلابية وهي وجبة مفضلة لدى كونتا . وراح كونتا يتناول الطعام في نهم شديد . وقبيل انصرافه قال لها « لقد جاء الوقت الملائم الآن لتبادل قبلة بريئة » وبعد أن تم ذلك انطلق عائدا الى كوخه وهو يحس بفيض من السعادة .

وبدأ يتقابل معها كثيرا في كوخها لتناول العشاء معها وبدأت الشائعات تتردد بأن كونتا قد شوهد بالفعل وهو يبتسم بل وهو يضحك في مطبخ بيل . وكانت هناك أمور يرغب في مناقشتها مع بيل . ومن بين هذه الامور أنها تحتفظ فوق حائط غرفتها الأمامية بصورة « للسيد المسيح » وذات يوم سألها عن تلك الصورة فردت عليه على الفور « لا يوجد سوى مكانين لا ثالث لهما يذهب اليهما الانسان : الجنة أو الجحيم . وكل انسان مسئول عن المكان الذي سيذهب اليه » ولم تقل له أكثر من ذلك . وكان ذلك الرد المختصر من جانبها سببا في شعوره بالقلق في كل مرة يفكر فيها في ذلك الأمر . ولكنه قال لنفسه أخيرا أن لها الحق في أن تكون لها معتقداتها الدينية الخاصة بها مهما كانت هذه المعتقدات قائمة على أسس غير سليمة . تماما مثلما أن له الحق في الايمان بمعتقداته الدينية الخاصة به . وكان لديه ايمان عميق بأنه قد ولد في كنف الله وسوف يموت ويرجع الى جوار الله سبحانه وتعالى ، رغم انه قد أهمل بعض الشيء في الصلاة منذ أن بدأ يقابل بيل وقرر أن يعود الى المواظبة على الصلوات الخمس في أوقاتها وطلب من الله أن يغفر له .

وبعد مرور أسابيع قليلة ذهب كونتا اليها في كوخها وأخذ يشم رائحة الطعام الشهي الذي كانت تعده له الا أن مشاعر غريبة بدأت تسيطر عليه أثناء اطالتهما النظر لبعضهما البعض . وفجأة امتدت

يد بيل وأمسكت بيده ثم أطفأت الشمعتين . وعلى الفور أحس كونتا كأن ورقة شجر تنجرف بسرعة مع تيار مندفع من الماء أثناء اختراقهما سويا الستائر المعلقة فوق مدخل الغرفة الاخرى التى دخلا اليها . واستلقيا سويا على السرير فى مواجهة بعضهما البعض . وراحت هى تنظر نظرات عميقة فى عينى كونتا ثم مدت يدها لتشده نحوها فاقتربا من بعضهما البعض . ولأول مرة فى حياته التى وصلت الى ٣٩ عاما قام باحتضان امرأة بين ذراعيه .

# ٦٥

وحضر كل شخص فى صف أكواخ العبيد احتفال زواج بيل وكونتا . وكانوا جميعا مرتدين أفخر ما عندهم من ثياب . وكان يقف أمامهم فى الاحتفال السيد وولر والصغيرة آن ووالداها . الا أن ضيف الشرف الحقيقى من وجهة نظر كونتا هو صديقه الغانى الذى تكبد مشاق السفر قادما من أنفيلد . وبينما كان كونتا سائرا مع بيل نحو وسط الفناء أدار رأسه نحو عازف الكوا كوا وتبادلا نظرات طويلة قبل ان تخطو العمة سوكى خطوات للامام لكى تقود مراسم الاحتفال . وبعد أن نادت على جميع الحاضرين لكى يقفوا صفا واحدا قالت لهم « والآن فانى أطلب من كل شخص موجود هنا أن يصلى من أجل هذا الاتحاد الذى يتم بمشيئة الله . وأريد منكم جميعا أن تصلوا من أجل أن يعيش هذان الزوجان مع بعضهما البعض » وتلعثمت واستطردت « وأن تصلوا من أجل ألا يحدث شىء يؤدى الى تفريقهما عن بعضهما البعض بالبيع . وصلوا من أجل أن ينجبا أطفالا طيبين صالحين صحاء » وبعدئذ قامت العمة سوكى بتحريك كل من بيل وكونتا ليقفزا فوق يد المقشة .

وأحس كونتا أنه على وشك الاختناق . وكان لديه أمل كبير فى أن يغفر الله له هذه الاجراءات التى تصاحب مراسم زواجه وراح يؤكد لله فى داخل ذهنه أنه متمسك بالاسلام ولن يتزحزح عنه شبرا واحدا . وبعدئذ ترامى الى سمعه ــ كما لو كان من على مسافة

بعيدة ـ صوت العمة سوكي وهي تتساءل · والآن · هل أنتما متأكدان أنكما ترغبان في الزواج ؟ » فردا عليها بالايجاب· وبعدئذ قفزا مع بعضهما البعض على يد المقشة بنجاح · وراح المشاهدون يصفقون بأيديهم ويهتفون · ثم التفتت العمة سوكي ونظرت الى السيد وولر وقالت « سيدى، أتحب أن توجه كلمة فى هذه المناسبة ؟» » فقال السيد وولر بصوت هادىء » انه بزواجه من بيل قد حصل على امرأة ممتازة · وهى بزواجها من كونتا قد حصلت على ولد ممتاز وأفراد أسرتى هنا وأنا نتمنى لهما حظا سعيدا على مدى فترات حياتهما المتبقية » ثم دوت الهتافات العالية من الجميع · ثم انصرف جميع أفراد أسرة وولر وذهبوا للمنزل الكبير لكي يسمحوا للسود بمواصلة الاحتفال بطريقتهم الخاصة · فبدأ الجميع فى تناول الاطعمة والخمور ولم يشرب كل من كونتا والرجل الغانى الخمور وراح عازف الكمان يعزف فى جنون متواصل وسط جو من البهجة والسرور ·

وانتقل كونتا للعيش فى كوخ بيل الذى أصبح كوخهما · وتحسنت ظروف معيشته كثيرا عن ذى قبل ·

# ٦٦

وبعد أن تناولا عشاء ممتازا فى يوم من أيام الآحاد ، وضعت بيل يدها على كتف كونتا وقالت فى هدوء « ان ذهنى يموج بشىء أريد أن أقوله لك » ثم أحضرت نسخة من « فرجينيا جازيت » واستطردت في تلعثم « اننى أعرف القراءة بعض الشىء ·· واذا عرف سيدى ذلك فانه سيبيعنى قبل شروق شمس اليوم التالى » ثم راحت تحملق بشدة فى طرف أصبع السبابة ليدها وهو يتحرك فوق الصفحة الاولى من الجريدة وقرأت أخبارا متفرقة · ثم توقفت عن القراءة عندما أصابها الارهاق · فأعادت الجريدة الى مكانها · وجلست فجأة الى المنضدة كما لو كانت قد قررت شيئا · ثم سحبت من جيب مريلتها قلم رصاص وقطعة مطوية من الورق وراحت تكتب

بعض الحروف في بطء شديد · وتساءلت : « أتعرف ما هذا ؟ »
وقبل أن يجيب كونتا بأنه لا يعرف قالت هي « حسنا ! ان ذلك هو
اسمي بيل Bell » وحملق كونتا في الحروف بدهشة · ثم
راحت بيل تكتب حروفا أخرى · وقالت « وذلك هو اسمك
كونتا Kunta » ثم نظرت نحوه لأعلى بوجه مشرق · وانحنى
كونتا لأسفل لكي يدرس تلك الحروف الغريبة الا أن بيل نهضت
واقفة وكرمشت الورقة وألقت بها في جمرات النيران الخابية في
موقدها وقالت « ولا يجب مطلقا أن يرى أحد أي كتابات بخط
يدك » ·

أصيب كونتا ببعض التوتر لان السود المولودين في هذه المزارع
كانوا يسلمون جدلا ـ شأنهم في ذلك شأن أسيادهم البيض ـ بأن
أولئك الذين جاءوا من افريقيا مباشرة قد هبطوا على التو من فوق
الاشجار وبالتالي فليست لهم أية تجارب في مجال التعليم · ولذلك
ففي أحدى الامسيات عقب تناول طعام العشاء ركع كونتا أمام الموقد في
الكوخ وأخرج كومة من الرماد وراح يسوى سطحها بيديه ثم أخرج
من جيبه جذرا رفيعا وراح ينبش في الرماد به ليكتب اسمه باللغة
العربية بينما راحت بيل تنظر اليه في فضول شديد · ولم تصبر
بيل حتى ينتهي كونتا من الكتابة · اذ بادرت الى التساؤل « ماهذا ؟ »
فأخبرها كونتا · وبعد أن حقق ماكان يهدف اليه قام بارجاع الرماد
الى داخل الموقد وجلس على الكرسي الهزاز وانتظر لكي تسأله عن
كيفية القراءة والكتابة باللغة العربية · وما أن سألته حتى راح
يتحدث معها عن الحياة في جوفيور وعن عريف القرية ودروسه في
الصباح والمساء ثم راح يخبرها كيف أن الطلبة في جوفيور لكي
يتخرجوا من المدرسة لابد أن يكونوا قادرين على قراءة القرآن الكريم
قراءة جيدة · ثم قام كونتا بتلاوة آيات القرآن الكريم من الذاكرة
أمامها · فظهرت عليها دلائل الانبهار الشديد وكانت هذه هي أول
مرة تظهر فيها بيل الاهتمام بأي شيء يتعلق بافريقيا على مدى السنوات
التي عرفها فيها ·

وطرقت بيل على سطح المنضدة وتساءلت « وماهو الاسم الأفريقي
لكلمة منضدة ؟ » ورغم أن كونتا لم يكن قد تحدث باللغة المندينكية
منذ أن ترك أفريقيا الا أن كلمة « ميزو Meso انفلتت منه فجأة
وعندما ماج صدره بمشاعر الفخر والاعتزاز · فتساءلت بيل وهي
تشير الى الكرسي « وما اسم الكرسي ؟ » فقال كونتا « سيرانجو »

وأحس بالسرور الشديد من نفسه حتى انه نهض واقفا وبدأ يسير فى أرجاء الكوخ وهو يشير الى الاشياء المختلفة وطرق على الاناء وقال « كاليرو » ثم على الشنمعة وقال ( كانديو ) ولكز زكيبة الخيش وقال ( بوتو ) ثم وضع يده على سلة وقال ( لارانجو ) •

فصاحت بيل ـ رحمتك يا الهى ـ وكانت صيحتها تلك تدل على أنه قد نجح فى جعل بيل تنظر بعين الاحترام والتقدير لوطنه الأصلى افريقيا بشكل لم يكن يتوقعه •

ثم قال كونتا وهو يجلس فوق حافة السرير ويتأهب لخلع ملابسه « والآن لقد حان الوقت لأن نضع رأسينا على الكونجلارانج » فقطبت بيل ما بين حاجبيها ثم ضحكت ولفت ذراعيها حول كونتا • ولم يحس كونتا بمثل هذا القدر من السعادة منذ فترة طويلة •



# ٦٧

ومن وقت لآخر كان كونتا يجلس مع الجناينى العجوز وعازف الكمان ويتناقشون فى ظروف العبيد وأحوالهم • وكان يندهش كثيرا من المعلومات الغزيرة لديهما ولم يكن يتضايق كلما اكتشف مقدار جهله بالنسبة لهما طالما أنهما كانا يساعدانه على أن يصبح أقل جهلا • ولكن الذى كان يحزنه حقا هو أن معظم العبيد كانوا بدون أى مبالغة لا يعرفون المكان الذى يعيشون فيه ولا هويتهم • وعندما أثار كونتا هذا الموضوع فيما بعد مع بيل قالت له « أراهنك على أن نصف الزنوج الموجودين هنا فى فرجينيا لم يغادروا مطلقا مزارع أسيادهم وليس لديهم فكرة عن المكان الذى يعيشون فيه • فالبيض يحرصون على أن يظل السود جهلاء بالمكان الذى يعيشون فيه لأنهم يخافون من قيام الزنوج بأى ثورة أو اللجوء للهرب » •

وقبل أن يتمكن كونتا من الافاقة من الدهشة التى انتابته لدى سماعه مثل هذا الوعى والاستنارة من بيل ، استأنفت هى حديثها

فائلة : ـ هل تعتقد أنك ستحاول الهرب مرة أخرى اذا أتيحت لك الفرصة المناسبة ؟

وذهل كونتا من هذا التساؤل وظل لفترة طويلة عاجزا عن الاجابه ثم قال أخيرا :

ـ حسنا « انني لم أفكر فى ذلك الامر منذ فترة طويلة » .

فقالت بيل :

ـ انه لا يمكن لأحد أن يتخيل الاشـــياء التى أفكر فيها .. فمن وقت لآخر ينتابنى التفكير فى أن أصبح حرة طليقـة مثـل أولئك الناس الذين تمكنوا من شق طريقهم بنجاح الى الشمال فاصبحوا أحرارا » ثم رمقت كونتا بنظرات ثاقبة وقالت ( اننى لا يهمنى ان سيدى هنا رجل طيب . فأنا وأنت لو كنا أصغر من السن عما نحن عليه الآن لكناقد تركنا هذا المكان على الفور فى هذه الليـلة ) .. وبينما كان كونتا يستمع لها فى ذهول .. أستطردت « ولكنى الآن كبيرة فى السن ولم تعد لدى الجرأة التى تعيننى على ذلك » .

وبدا على بيل انها تقـرأ ما يدور فى ذهنـه من أفكار عن نفسه فى تلك اللحظة ، فأحس كأن شيئا يهبط عليه كالمطرقة . فهـو بالفعل قد أصبح عجوزا للغاية بحيث لا يمكنه المجازفة بالهرب مرة أخرى . وعادت الى ذاكرته كل الاهوال التى شهدها فى تلك الايام والليالى المرعبـة التى حاول فيهـا الهرب . وبدون أن يدرى أخذت موجات الاكتئاب الاسود تسيطر عليه . ونهضت بيـل فى هـدوء متجهة الى سريرها وهى تدرك أنها لم تكن تقصد اثارة هذه الكوامن السوداء فى داخله .

وبعد أن أدرك كونتـا أخـيرا أنها قد ذهبت ، احس انه كان قد اخرجها من تفكيره وقد آلمه انه قد نظر اليها والى باقى السود الاخرين نظرة غير سليمة ولم يقدرهم حق قدرهم . فهم يحسون بالضغوط الهـائلة الواقعة عليهم ويكرهون تلك الضـغوط من كل أعماقهم . وأراد أن يعبر لها عن مدى احساسه بآلامهـا وحبـه لها وللرابطة المقدسة بينهما . فنهض واقفا على وجه السرعة وذهب الى غرفة النوم وخلع ملابسه واستلقى على السرير وأمسك بذراعيها ..

# ٦٨

وفى ليلة من ليالى شهر سبتمبر عام ١٧٩٠ أنجبت بيل طفله • فأحس كونتا بالفخر الشديد لأن دماء آل كينتا التى انسابت عبر الأجيال مثل النهر المتدفق سوف تستمر فى الانسياب لجيل آخر •

وبعد ذلك تركزت أفكاره وهو واقف بجوار السرير على اختيار اسم ملائم لطفلته • وراح كونتا على مدى اليوم التـــالى يفكر فى اختيار اسم ملائم لابنته باللغة المندينكية أثناء تجواله وحيدا خارج الكوخ • فقفز الاسم الملائم الى ذهنه ، وعاد الى الكوخ وأخبر بيل بأنه سيتخذ اجراءات تسمية ابنته على الطريقة المندينكية • وأخذ الطفلة من بيل وانطلق خارجا بها من الكوخ • وتحت ضوء القمر والنجوم رفع كونتا الطفلة لأعلى وأدار جسدها الملفوف بالبطانية فى يديه بحيث تلامس أذنها اليمني شفتيه ثم راح يهمس فى أذنها الصغيرة فى بطء ووضوح باللغة المندينيكية ثلاث مرات قائلا :

ـ ان اسمك هو كيرى •• ان اسمك هو كيرى ان وسمك هو كيزى •

وأحس كونتا بافريقيا تتدفق فى عروقه وتنساب منه الى طفلته وسار خطوات قليلة أخرى ثم توقف وكشف عن وجه الطفلة الأسود الصغير ليواجه السماء • وفى هذه المرة تحدث اليها بصوت مرتفع باللغة المندينكية :

ـ انظرى ! انه الشىء الوحيـد الذى هو أعظم من نفسـك • • وعندما أعاد كونتا الطفلة الى الكوخ اختطفتهـا بيل منـه وراحت تتفحصها خشية أن يكون قد حدث لها أى شىء ناجم عن اجـراءات الشعوذة الافريقية وعندما لم تجد اى شىء فى جسدها وضعتها على السرير • وبدأت تتساءل « حسنا ! دعنى أعرف »

ـ « تعرفين ماذا ؟ »

ـ « الاسم ، أيها الافريقى • ماذا سميتها ؟ »

ـ « كيزى »

ـ كيزى ! ان أحدا لم يسمع اسما كهذا ٠٠

وراح كونتا يشرح لها فقال ان كلمة ( كيزى ) باللغة المندينكية معناها ( أنت تجلسين أو ( أنت تظلين فى مكانك ) وهذا يعنى بالتالى أن هذه الطفلة لن تباع مطلقا ٠

ومع ذلك لم تشعر بيل بالرضا وهدوء البال لأن البيض ينضايقون من الأسماء الافريقية وكل شيء ذي طابع افريقي فقالت له في اصرار ( انك تثير المتاعب ) ولكنها عندما أحست بموجات الغضب تتصاعد في داخل كونتا اعتقدت انه من الحكمة الاذعان لرأيه ٠ فقالت له أنها تذكر ان والدتها قد تحدثت معها عن جدة كان اسمها « كيبى Kibby » وهو اسم يقترب من كيزى من حيث الصوت وان ذلك هو على الأقل ما يمكن أن يقال للسيد اذ ما ساورته الشكوك ٠

وفى صباح اليوم التالى بذلت بيل كل مافى جهدها لتخفى قلقها عندما جاء السيد لزيارتها ـ بل انها أرغمت نفسها على الضحك بطريقة لطيفة لدى ذكر اسم الطفلة له ٠ فاكتفى بالتعليق بأن الاسم غريب للغاية ولكنه لم يعترض عليه ٠ وعندئذ تنفست بيل الصعداء وشعرت بالارتياح عندما اتجه خارجا من الباب ٠ وعندما عاد الى المنزل الكبير وقبل قيامه بزيارة مرضاه بالعربة بقيادة كونتا ، كتب السيد وولر فى سجل خاص بالمزرعة بخط جميل بالحبر الأسود « كيزى وولر مولودة فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٠ »



# ٦٩

وصاحت « آن » الصغيره « انها تشبه الدمية الزنجية الصغيرة تماما » وراحت تقفز وتصفق بيديها فى نشوة لدى رؤيتها كيزى لأول مرة عقب عودة بيل الى المطبخ ٠ ثم قالت « هل يمكننى الحصول عليها ؟ » فابتسمت بيل ابتسامة مشرقة وقالت ( حسنا ! انها خاصة بى وبوالدها ولكنها بمجرد أن تكبر فانه يمكنك بالتأكيد اللعب معها كل الألعاب التي تريدينها )

وهذا هو مافعلته آن • ففى معظم الأحيان كلما كان كونتا يذهب الى المطبخ لزيارة بيل كان يجد ابنة اخ السيد الصغيرة الحجم ذات الشعر الكستنائى والتى وصل عمرها آنئذ الى اربعة أعوام منحنية فوق كيزى تقبلها وهى تقول لها « انك جميلة للغاية وسنمرح كثيرا سويا بمجرد أن تكبرى ، هل تسمعيننى ؟ وعليك فقط بالاسراع فى النمو » وكان كونتا يشعر بالضيق لأن تلك الطفلة التوبوبية تتصرف كما لو ان كيزى قد جاءت الى الوجود لمجرد أن تكون لعبة تلعب بها • وبحلول فصل الصيف بدأت كيزى فى الزحف وعندئذ كان كونتا وبيل يقضيان الأمسيات فى كوخهما وهما يرقبانها فى متعة وهى تزحف على الارض • ولكن سرعان ما كانت الصغيرة آن تظهر أمامها مرة اخرى فتبدأ كيزى فى الزحف وراءها واللعب معها فى سعادة • وعندئذ كان كونتا يزم شفتيه ويظل طوال الليل مسحوبا الى داخله تماما مما كان يثير ضيق بيل الى حد بعيد • وكانت تخشى أن يظهر كونتا مشاعره علنا فيؤذى بذلك الى وقوعهم فى متاعب هائلة • ولذلك فانها حاولت آن تقنع كونتا بانه لن ينتج أى ضرر عن هذه العلاقة اذا قام باقناع نفسه بتقبل الأمر الواقع • وكثيرا ما قالت له أن الفتيات البيض ينشأن على الحب الصادق العميق لزميلاتهن من الفتيات السود • ثم قالت له ذات يوم « قبل أن تستند اليك مهمة قيادة عربة السيد ، حدث أن ماتت سيدة بيضاء أثناء وضعها مولودتها ولكن طفلتها الصغيرة ظلت على قيد الحياة فأرضعتها امرأة زنجية كانت قد انجبت طفلة فى نفس الوقت • فتربت كلتا الطفلتين كالاختين تقريبا بينما تزوج ذلك السيد من امرأة اخرى • وكانت الزوجة الجديدة تعارض بشدة تلك الصداقة العميقة التى نشأت بين الطفلتين ثم نجحت أخيرا فى اقناع السيد ببيع الطفلة الزنجية وبيع أمها فى آن واحد » وقالت أنه ما ان تم بيع الطفلة السوداء وأمها حتى أصيبت الطفلة البيضاء باكتئاب شديد حتى أنهم اضطروا لاستدعاء السيد وولر لعلاجها فقال لوالدها ان الطفلة ستصاب بمزيد من الضعف والهزال والاكتئاب حتى الموت اللهم الا اذا بادر الى البحث عن الطفلة السوداء واعادتها • « وكان ذلك السيد على وشك القيام بجلد زوجته الجديدة • ثم امتطى حصانه وتكبد مشاق هائلة فى البحث عن تاجر الزنوج الذى اشترى الطفلة وأمها وأخيرا تمكن من شرائهما من السيد الجديد • وبعد أن أحضر تلك الطفلة السوداء استدعى محاميا ليتخذ اجراءات تمليكها لطفلته البيضاء » واستطردت قائلة

« ولكن تلك الطفلة البيضاء ورغم مرور سنوات طويلة ورغم انهما صارت فى سن الامومة ، لم تسترد صحتها تماما على الاطلاق . وما زالت زميلتها السوداء تعيش معها وترعاها . وظلت كلتاهما بدون زواج حتى الآن » .

. وذهب كونتا فى تفكيره الى أن بيل اذا كانت تريد أن تكون قصتها هذه بمثابة حجة « ضد » قيام صداقات بين السود والبيض وليست حجة مؤيدة لتلك الصداقات فانها لاتكون بذلك قد قدمت حجة مقنعة

# ٧٠

ومنذ ولادة كيزى بدأ كل من كونتا وعازف الكمان يعود الى المزرعة ومعه أبناء من وقت لآخر عن جزيرة توجد فى المياه الكبيرة تسمى « هايتى » يقال ان عدد سكانها البالغ ٣٦ الفا من البيض الفرنسيين قد أصبحوا أقلية بعد أن وصل عدد السود فيها الى نصف مليون زنجى تم احضارهم اليها من افريقيا بالسفن ليكدحوا فى المزارع الضخمة التى يزرع بها قصب السكر والبن والكاكاو وضبغة النيلة . وبدأت القصص المرعبة تتداول عن أهالى هذه الجزيرة من بيض وملونين وسود على مدى شهور طويلة متتالية .

ولذلك فان كونتا لم يندهش عندما علم أثناء احدى رحلاته للمدينة خلال صيف عام ١٧٩١ أن العبيد السود فى هايتى قد قاموا بثورة وحشية دموية ،اذ قام الآلاف منهم بذبح البيض وضربهم بالهروات وقطع رءوسهم وشق بطون اطفالهم واغتصاب نسائهم واحراق المنازل الكبيرة فى مزارعهم الضخمة الى أن صارت المناطق الشمالية فى هايتى تعج بالنيران والدمار والأطلال . وكان السكان البيض يقاتلون لمجرد انقاذ حياتهم ويقومون بضرب أى شخص أسود يمسكون به ويقتلونه ويمثلون بجثته . الا أن هؤلاء البيض كانوا مجرد قلة قليلة تتناقص أعدادها تدريجيا أمام الثورة السوداء العارمة التى أخذت فى الانتشار بخطوات راسخة الى أن بدأت الآلاف

القليلة المتبقية من البيض على قيد الحياة ـ في نهاية شهر أغسطس ـ في اللجوء الى أماكن للاختباء فيها أو محاولة الهرب من الجزيرة٠

وسرعان ما بدأ كونتا يلاحظ بنفسه مدى الخوف الشديد الذى يسيطر على البيض فى كل مكان يذهب اليه فى المدن أو بالقرب من المحلات والدكاكين الواقعة عند مفارق الطرق أو فى الفنادق أو قاعات الاجتماع الملحقة بالكنائس حيث كانت وجوههم تتجهم وتحتقن بالدماء الحمراء كلما مر هو أو أى انسان أسود بالقرب منهم ٠ وفى خلال أسبوع بدأت الدوريات العسكرية التابعة لاسيتسلفانيا تجوب الطرق وتستوقف السود لمعرفة المكان الذى يقصدونه علاوة على الاطلاع على تصاريح السفر الخاصة بهم مع القيام بضرب وحبس أي شخص أسود توحى تصرفاته أو مظهره بأى نوع من الشكوك ٠

وعقب حصاد محصول القطن بوقت قصير بدأ كونتا يسمع اثناء رحلاته الى برلمان الولاية مع السيد أحاديث غاضبة بسبب تزايد ظهور الجمعيات « المناهضة للعبودية » التى ينظمها « خونة للجنس الأبيض » ليس فقط فى الشمال ولكن فى الجنوب ايضا ٠ ونظرا للشكوك العميقة التى ساورت كونتا ازاء ذلك الأمر فقد اخبر بيل بما سمعه فقالت له أنها قرأت فى الجرائد أن السبب فى تزايد هذه الجمعيات هو ثورة الزنوج فى هايتى ٠

واستطرد بيل « أننى أتابع الناس البيض عن كثب ٠ خذ مثلا هؤلاء البيض الذين يسمون « كويكرز » انهم يناهضون العبودية حتى قبل قيام تلك الثورة ٠٠٠ أقصد الثورة التى حدثت هنا فى فرجينيا بعد مجيئك الى هذه المزرعة بوقت قصير ٠ وقد بدأ الكويكرز فى الافراج عن عبيدهم ومساعدتهم للوصول الى الشمال٠ وطائفة البروتستانت تلى الكويكرز من حيث الاهمية فقد عقدوا مؤتمرا كبيرا فى بالتيمور وأصدروا بيانا أعلنوا فيه ان العبودية مناهضة للقوانين الالهية »

وبالرغم من حديث بيل عن البيض الذين يناهضون العبودية الا ان كونتا لم يسمع فى أى وقت من الاوقات رأيا واحدا من التوبوب الا وكان عكس ما قالته بيل تماما ٠ ففى خلال ربيع وصيف عام ١٧٩٢ ركب العربة مع السيد عدد من كبر وأغني الاسياد وتبين له ان حديثهم كان ينصب دائما على المشاكل التى يخلقها السود لهم٠

ودائما ما كانوا يقولون أن أى تهاون من جانب البيض من شـأنه أن يؤدى الى ظهور الخيانات والحيل الخادعة فى نفوس الاجناس البشرية المنحطة • وكان كونتا قد أستمع كثيرا لنفس هذا الهراء المتجاوز حدود الادب على مدى سـنوات طويلة حتى انه قد أصـبح بالنسبة له بمثابة سيل من الشكاوى المتكررة المتماثلة ولذلك لم يعد يهتم كثيرا بسماعها • ولكنه كان يسائل نفسه فى بعض الاحيان أثناء قيادته العـربة : لماذا لم يبادر أهاليه فى افريقيـا بقتل كل توبوب يضع قدمه على أرض افريقيا ؟ ولم يستطع مطلقا أن يقدم لنفسه اجابة شافية على هذا التساؤل •

# ٧١

وفى ظهر يوم خانق الحرارة فى أواخر أغسطس انطلقت العمة سوكى بسرعة نحو عازف الكمان الذى كان يعمل بالحديقة وقالت انها قلقة للغاية على الجناينى العجـوز لانها طـرقت على باب كوخه ونادت عليه بأعلى صوتها فلم يرد عليها مما أصابها بالذعر والهلع •

وقال عازف الكمان لكونتا فى تلك الليلة : « قبل أن أذهب الى هناك أدركت بطريقة ما الذى حدث » • وقال كونتا أنه كان غير قادر على تفسير ذلك الانقباض الذى هيمن على صـدره أثناء قيادته عربة السيد فى طريق العودة عقب ظهر نفس ذلك اليوم • ثم قال عازف الكمان « لقد كان الجناينى العجوز راقدا هناك فى سريره فى هدوء حقيقى وقد أرتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة » •

وبعد تناول طعام العشاء جلس جميع العبيد مع « الميت » الى وقت متأخر فى الليل • وبدأت المرضة ماندى فى التحدث بهدوء حيث تساءلت عما اذا كان هناك أحد يذكر أن الرجل العجوز قد تحدث فى أى وقت عن أسماء أى اقارب له • فقال عازف الكمان : « اننى اذكر انه قال لى منذ سنوات بعيدة انه لم يعرف والدته ولم يشاهدها على الاطلاق • وهذا هو كل ما سمعته بشأن أسرته » ولذلك فقد استقر الرأى على أنه لا يوجد هناك أى شخص قريب له

بحيث ينبغى ارسال برقية اليه لحضور المأتم . وقال أحد العبيد : هناك بعض الاغنياء البيض يقيمون جنازات رقيقة لدى وفاة العبيد عندهم بل ويدفنونهم فى مقابر البيض .. وعندئذ راح كونتا يفكر: يالها من مكافأة معبرة عن العطف ـ وان كانت متأخرة عن موعدها بعض الشيء ـ عن تلك الجهود المضنية طوال الحياة .

وبعد تناول طعام الافطار مباشرة فى صباح اليوم التالى قام عازف الكمان بادخال جسد الرجل العجوز فى البدلة القديمة التى سبق أن أعطاها له السيد وولر منذ سنوات طويلة . وبعدئذ قام كاتو بربط الجثة على خشبة عريضة . وبعد فترة قصيرة خرج السيد وولر من المنزل الكبير حاملا معه انجيله الضخم الاسود وسار متثاقلا خلف العبيد الذين يسيرون وراء الجثة المحمولة على عربة يجرها بغل . وكانوا ينشدون ترنيمة لم يسمعها كونتا من قبل « فى الصباح عندما أصل الى هناك سأقول للسيد المسيح : انني سعيد بالقرب منك .. » الى أن وصلوا الى مقابر العبيد . وعندما وقف السيد وولر على جانب القبر ووقف العبيد على الجانب الاخر فى مواجهته بدأت العمة سوكي في تأدية الصلوات وبعدئذ قامت امرأة تسمى بيرل بالتغنى باغنية حزينة :

« اسرعى الى ملاقاة ربك فى دار البقاء يا روحى المنهكة .. لقد سمعت من السماوات اليوم أن الله قد غفر لى ذنوبى وخطاياى » وبعدئذ تحدث السيد وولر وهو محنى الرأس فقال جوزيف : لقد كنت خادما طيبا ومخلصا .. طيب الله ثراك وشملك برحمته . آمين ..

وشعر كونتا بالاسى والدهشة البالغة عندما عرف أن الجناينى العجوز كان يسمى « جوزيف » وساءل نفسه فى دهشة : ترى ما هو الاسم الحقيقى للجناينى العجوز وما هى القبيلة التى كان ينتمى اليها ؟

وعندما أهيل التراب على وجه الميت انحرطت النساء فى البكاء .



# ٧٢

وذات يوم قالت بيل : « اننى لا أعرف يا كونتا كيف أقول لك ذلك الخبر . ولذلك فانا سأقول لك مرة واحدة وبصراحة . لقد قال لى السيد انه قد وعد آن الصغيرة أن يأخذ كيزى فى العربة الى منزل السيد وولر لدى مروره هناك غدا لكى تقضى يوما معها » .

وكان ذلك أمرا لا يمكن احتماله . اذ كان من الاجحاف الشديد أن يجلس مكتوف الايدى وهو يرى كيزى تتحول تدريجيا الى كلبة مهذبة تجلس فى حجر صاحبتها . ولكن ما أن تم لهم الاستيلاء عليها حتى بدأوا يطلبون منه تسليم تلك الكلبة الى صاحبتها الجديدة . فاغلق كونتا عينيه محاولا احتواء مشاعر الغضب فى داخله ثم قفز من كرسيه وانطلق خارجا من الباب وبينما كانت هى راقدة بدون نوم فى سريرها فى تلك الليلة كان هو جالسا بدون نوم تحت معدات الخيل فى الاستطبل . وكان كلاهما منخرطا فى البكاء .

وعندما توقفوا أمام منزل السيد جون وولر فى صباح اليوم التالى انطلقت الصغيرة آن لملاقاتها حتى قبل أن يتمكن كونتا من حمل كيزى لانزالها على الارض .

وفى وقت متأخر من بعد الظهر وبينما كان كونتا منتظرا لساعات طويلة خرج السيد من أحد المنازل الكبيرة الواقعة على مسافة عشرين ميلا على الطريق جاءه أحد العبيد وقال له ان السيد وولر سيضطر الى البقاء طوال الليل مع سيدتهم المريضة وان على كونتا ان يحضر اليه فى اليوم التالى .. فأطاع كونتا الأوامر وعندما وصل الى منزل جون وولر توسلت الصغيرة آن لأمها المريضة أن تدع كيزى تمكث لقضاء الليل عندهم وعندما رفضت والدتها أحس كونتا بالارتياح الشديد . وسرعان ما بدأ كونتا يتمايل فى العربة فى طريق العودة بينما كانت كيزى تهتز بشدة الى جانبه فوق مقعد السائق .

واثناء رحلة العودة خطر على ذهن كونتا أن هذه أول مرة ينفرد فيها تماما مع ابنته منذ تلك الليلة التى اخبرها فيها باسمها .. واحس بارتياح غريب متزايد اثناء انطلاقهما بالعربة تحت

ضوء الشفق الاحمر المتلاشى تدريجيا · وفجأة رفعها كيزى ووضعها فى حجرة · وراح يتحسس فى أرتباك ذراعيها وساقيها ورأسها بينما راحت هى تتملص من قبضته وتنظر اليه فى دهشة · ثم رفعها مرة أخرى محاولا معرفة وزنها · وفى وقار شديد وضع اللجام فى راحتى يديها الصغيرتين الدافئتين · وسرعان ما بدت له ضحكات كيزى المليئة بالسعادة كأنها أمتع صوت سمعه فى حياته

وقال لها أخيرا : « أنت طفلة صغيرة جميلة » فنظرت اليه بينما استطرد كونتا « انك تشبهين تماما أخى الصغير مادى » واكتفت هى بمداومة النظر اليه · فقال لها وهو يشير لنفسه « بابا » فنظرت الى اصبعه ·فأخذ يطرق على صدره وقال مرة أخرى « بابا » الا انها حولت نظرها نحو الحصانين · وراحت تجذب اللجام وتصرخ قائلة Giddduf أى انطلقوا بسرعة » وهى تقلد شخصا آخر سمعته يقول ذلك · وابتسمت له فى فخر ولكنه أحس أن مشاعره قد جرحت فتلاشت ابتسامتها بسرعة · ثم ظلا صامتين طوال المسافة المتبقية من الطريق ·

وبعد عدة أسابيع بينما كان كونتا عائدا بالعربة من زيارة أخرى لمنزل جون ولر انحنت كيزى نحو كونتا ووضعت اصبعها الممتلىء على صدره وقالت وهى تغمز بعينها « بابا » · فأحس كونتا بنشوة عارمة وقال وهو يأخذ اصبعها ويشير به نحوها · ايه تومو كيزى ليه ··

أى أن اسمك هو كيزى ·

ثم توقف عن الكلام وبدت هى تبتسم وهى تتعرف على اسمها قائلة « كيزى » ثم أشار هو الى نفسه قائلا ·· « كونتا كينتا » · ولكن كيزى ظهر عليها الارتباك والحيرة فاشارت اليه قائلة « بابا » وفى هذه المرة ابتسم كل منهما للآخر ابتسامة عريضة ·

وكان كونتا يحس بالاستياء بسبب تزايد الصداقة تدريجيا بين كيزى وآن الا انه مع ذلك كان مسرورا لان كيزى أخذت تستمتع بحياتها كثيرا كما كان يشعر أنه متفق فى الرأى مع بيل فى ان تحول كيزى الى قطة مدلله عند التوبوب يعتبر أفضل من قضاء حياتها فى العمل الشاق فى الحقول · ولكنه كان على يقين من أن البلاء والكرب الشديد ينجم دائما عن ثقة المرء فى التوبوب · ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة الاقدار المخبأة لكيزى بل والمخبأة لبيل

وكونتا . ولكن كونتا كان متأكدا من شيء واحد : وهو أن الله سبحانه وتعالى سينتقم انتقاما رهيبا من أي توبوب يلحق الضرر في أي وقت من الاوقات بابنتهما كيزى .

## ٧٣

وبعد أسبوع أو نحو ذلك ذكرت بيل كونتا بالاجتماع الجماهيرى الضخم الذى يعقد فى المعسكر والذى قررت هى حضوره فى أواخر يوليو وكان ذلك الاجتماع هو أهم الاحداث الصيفية الضخمة الخاصة بالسود والتى تعقد سنويا منذ أن جاء كونتا الى المزرعة . ونظرا لانه كان يجد فى كل سنة من السنوات السابقة حجة لتبرير عدم الذهاب معهم فقد دهش عندما ادرك ان بيل مازال لديها الاعصاب التى تعينها على أن تطلب منه الذهاب معها . وهو بالطبع كان يعرف القليل عما يدور فى هذه الاجتماعات الجماهيرية كما كان يعرف انها تتعلق بديانة بيل الوثنية . ومع ذلك فقد الحت عليه بيل للحضور فى هذه المرة وقالت فى تهكم « اننى اعرف مدى اشتياقك الشديد للذهاب معنا » واستطردت « وقد خطر لى أن أقول لك قبل الموعد المحدد بوقت كاف لكى تفكر فى الامر مليا » . ولم يكن كونتا مستعدا للدخول معها فى جدال ومناقشات . ولذلك فقد أكتفى بقوله « سأفكر فى ذلك الامر » ولكنه كان يعتزم عدم الذهاب .

وبحلول اليوم السابق على الاجتماع قال السيد عندما توقف كونتا بالعربة أمام الباب الرئيسى للمنزل الكبير عقب العودة من برلمان الولاية « اننى لن احتاج للعربة غدا ، يا توبى ، ولكننى قد أعطيت تصريحا لبيل والنساء الاخريات للذهاب الى اجتماع المعسكر ذاك غدا وقلت انه من الملائم ان توصلهن بالعربة الى الاجتماع »

وماج كونتا بالغضب بعد أن تأكد أن بيل هى التى وضعت هذه الخطة . وما أن شاهدته بيل حتى قالت له « لقد رأيت أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى تجعلك تحضر الى هناك لرؤية كيزى أثناء تعميدها »

« أثناء ماذا ؟ »

« تعميدها • وهذا يعنى انضمامها للكنيسة »

« أي كنيسة ؟ أهي الكنيسة التابعه لدين Ola wd الاله الخاص بكم ؟ »

« لا داعي لان نبدأ المناقشـــة مرة أخـرى • فليس لى دخل فى كل هذا • فكل ماحدث هو ان الصـغير ان قد طلبت من والديها أصطحاب كيزى الى كنيستهم فى أيام الآحاد ولكنها لا يمكنها الدخول الى كنيسه الناس البيض الا بعد تعميدها »

« اذن فهي ستذهب الى الكنيسة ! »

« انك مازلت غـير فاهم للمـوقف • أليس كذلك أيها الافريقي ؟ ان من حقهم السماح لها بالذهاب الى كنيستهم • فاذا رفضت أنت ذلك فانهم سيبادرون الى الحاقي والحاقك بالعمل فى الحقول لجنى القطن »

وانطلق كونتا بالعربة في صـباح اليوم التالى • ووصـل الى المعسكر ونزلت السيدات والفتيات وجلس كونتا خلف عربته يرقب ما يجرى أمامه • وبعد فترة قصيرة جلس جيع الرجال متلاصـقين بالقرب من قمة الربوة الموجودة هناك ــ باستثناء أربعة منهم كان يبدو عليهم انهم أكبر الحاضرين سنا حيث ظلوا واقفين •وبعدئذ قام الرجل الذى يبدو عليه أنه أكبر الاربعة سنا ــ وهو رجل شـديد السواد أحدب الظهر ذو لحية بيضاء ــ بالقاء رأسه للخلف وصاح بصوت مرتفع نحو المكان الذى توجد فيه النساء قائلا : « أقول لكم يا أبناء السيد المسيح ».

وراح كونتا يرقب النساء وهن يستدرن نحوه بسرعه ويصحن فى صوت واحد « نعم يا سيدى » ثم انطلقن مهرولات وهن تتدافعن بالمناكب من أجل الجلوس خلف الرجال المحتشدين • ودهش كونتا لان ذلك المنظر ذكره بتلك الطريقة التيىجلس بها الناس فى جوفيور أثناء اجتماعات « مجلس الكبار » التى تعقد مرة •• كل شهر ••

وصاح الرجل العجوز مرة أخرى « أقول لكم ــ هل أنتم جميعا أبناء الله ؟ »

« نعم • يا سيدى »

وبعدئذ تقدم الـرجال العجائز الثـلاثة الاخرون امام الرجل الرابع العجوز وراحوا يصيحون الواحد تلو الآخر : « سيجىء وقت نصبح فيه جميعا مجرد عبيد لله »

فصاح جميع الناس الجالسينعلى الارض « نعم يا سيدى »

« عليكم أن تستعدوا لذلك فالسيد المسيح مستعد على الدوام »
« نعم يا سيدى »
« أتريدون أن تعرفوا ما قاله لى الاب المقدس توا ؟ انه يقول : لا يوجد هناك أشخاص غرباء ! »

وعندئذ تصاعدت صيحات جماعية مدوية مما غطى على صوت أعجز الرجال الاربعة حيث اختفى صوته وسط ذلك الضجيج . وأخيرا هدأت صيحات الجماهير بحيث بدأ كوننا يتمكن من سماع ما يقوله العجوز ذو اللحية الشيباء .

« يا أبناء الله : توجد هناك أرض موعودة سيذهب اليها كل شخص يؤمن بالله . وأولئك الذين يؤمنون بالله سيعيشون هناك فى عالم الابدية والخلود » .

سرعان مابدأ العرق يتصبب بغزارة من الرجل العجوز وهو يقول: ولقد ورد فى الانجيل أن الحمل والاسد سيرقدان سويا » ثم القى برأسه للخلف ولوح بيديه نحو السماء واستطرد » ولن يكون هناك أسياد وعبيد على الاطلاق . ولكن سيكونون جميعا أبناء الله »

وبعدئذ قام أحد الرجال العجائز بقيادة الصلوات الاخيرة وعندما انتهى منها صاح الجميع فى آن واحد « آمين » ثم بدأوا جميعا يتغنون فى حماس هائل : « أنا عندى حذاء وأنت عندك حذاء وجميع أبناء الله لديهم أحذية ... وعندما نصل جميعا الى السماوات أضع حذائى فى قدمى واجوب جميع انحاء سماوات الله . سموات الله . سماوات الله . سماوات الله . وأى شخص يتحدث عن سماوات الله سيذهب الى هناك السماوات . السماوات . سأجوب جميع أنحاء سماوات الله ! » .

ثم اجتاز الجميع المروج الخضراء وراء الواعظ ذى الشعر الأبيض ووصلوا فى سيرهم الى ضفاف بحيرة تقع على الجانب الاخر . وبعدئذ التفت الواعظ لمواجهتهم ورفع يديه لأعلى وقد أحاط به العجائز الثلاثة الاخرون وقال : « الآن أيها الأخوة والاخوات لقد حان الوقت للمذنبين الذين لم يتطهروا ان يغسلوا ذنوبهم فى « نهر الاردن » فصاحت امرأة واقفة على ضفة النهر «نعم » واستطرد الرجل ( لقد حان الوقت لاخماد نيران جهنم فى المياه المقدسة الخاصة بارض المعاد )

فصدرت صيحة أخرى ( صدقت وبررت )

فاستطرد الرجل « أولئك الذين لديهم الاستعداد للغوص فى

فى الماء من أجل الله القدير والنهوض منها مرة أخرى مع الله ، يجب عليهم البقاءواقفين • أما أولئك الذين قد تم تعميدهم من قبل أو الذين غير مستعدين حتى الان لغسل ذنوبهم فعليهم بالجلوس على الارض »

فاخذ كونتا يرقب الموقففي ذهول حيث تلاحظ لهأنهلم يجلس على الارض سوى اثنا عشرأوخمسة عشر • وعندما اصطف الاخرون عند حافة المياه سار الواعظ ومعه أكثر الرجال الاربعة العجائز قوة فى مياه البحيرة ثم توقفا ونظرا خلفهما لدى وصول المياه الى ردفيهما •

ووجه الواعظ كلامه للفتاة المراهقة التى كانت تقف فى أول الصف وقال لها : « هل انت على استعداد أيتها الطفلة ؟ فاومأت الفتاة برأسها • فقال لها : « اذن تقدمى » • وامسك بذراعيها الرجلان العجوزان الباقيان وقاداها للسير فى البحيرة لكى تقابل الرجلين الاخرين الواقفين في وسط البحيرة • وبعد أن وضع الواعظ يده اليمنى على جبهة الفتاة وبعد ان امسك اقوى الرجال العجائز كتفيها بيديه من الخلف مع قيام الرجلين الاخرين بتشديد قبضتهما على ذراعيها ، قال : « يا الهي ، دع هذه الطفلة تغتسل من ذنوبها » ثم دفعها للخلف بينما راح الرجل الواقف خلفها يجذب كتفيها للخلف والى أسفل الىأن أصبحت تحت سطح الماء تماما •

وعندما ظهرت فقاقيع الماء فوق السطح وبدأت أطرافها تتحرك بعنف في الماء أخذوا يحملقون في السماء مع تشديد قبضتهم عليها• وبعدئذ أخذت الفتاة تركل فى عنف مع هز جسدها بشدة • ولكنهم أصروا على ابقائها تحت الماء وبعد لحظات قال « الآن » وعندئذ جذبوها من الماء لأعلى وراحت هي تشهق وتتقيأ وتقاوم في جنون أثناء حملهم اياها نحو الشاطىء لوضعها بين ذراعى والدتها المنتظرة•

وبعدئذ التفتوا نحو الشخص التالى فى الصف وهو شاب فى أوائل العشرينات من عمره وكان يرتعش بعنف حتى أنه لم يقو على المسير مما اضطرهم الى جذبه بقوة • وراح كونتا يرقب فى ذهول الاشخاص الواحد تلو الآخر وهم يساقون الى البحيرة ويتعرضون لنفس هذا العذاب الذى لايقبله العقل • لماذا يقومون بهذه الاعمال؟ ومن هو ذلك الاله القاسي الذى يطلب مثل هذه المعاناة الهائلة من أولئك الذين يؤمنون به ؟ وكيف يمكن أن يؤدى اغراق شخص فى الماء الى أن يكاد يهلك الى غسله من ذنوبه ؟ •• وماج ذهن كونتا

بالعديد من الاسئلة الى أن تم اخراج آخر شخص من الماء ، فاعتقد أن جميع المراسم قد انتهت :

الا أن الواعظ بدأ في التحدث مرة أخــرى « والآن هل يوجد بينكم من يرغب في تكريس أطفاله للسيد المســيح فى هذا اليوم المقدس ؟ » فوقفت أربع من النساء ـ وكانت بيل أولهن حيث وقفت ممسكة بيد كيزى ٠

وقفز كونتا بجوار العربة ٠ انهم لن يفعلوا ذلك بكل تأكيد !! الا أنه عندئذ رأى بيــل وهى تشق طريقهـــا أمام الاخريات نحو ضفاف البحيرة ٠ وعندما أشــار لها الواعظ بالمجيء انحنت لاسفل لالتقاط كيزى بين ذراعيها وسارت فى نشاط بخطوات واسعة فى الماء ٠ وهنا بدأ كونتا يجرى لاول مرة فى حياته منذ خمسة وعشرين عاما منذ ذلك اليوم الذى قطعت فيه قدمه ٠ وعنــدما وصل الى البحيرة أحس بالنبض والخفقان يدق فى الجــزء المتبقى من قدمه المبتورة ، ولكن بيل كانت قد وصلت الى وسـط البحيرة بجــوار الواعظ ٠ وأخذ كونتا يشهق محاولا التقاط أنفاسه وفتح فمه لكى يصرخ ٠ وفى نفس اللحظة التى بدأ يتكلم فيها الواعظ : « أحبائى الاعزاء ، اننا مجتمعون هنا لنرحب بدخول حمــل آخر الى حظيرة الايمان فى أحضان الكنيسة ٠ ما هو اسم الطفلة يا أختاه ؟ »

« اسمها كيزى ٠٠ أيها الاب المقدس »

فبدأ الواعظ كلامه وقد أغمض عينيه ووضع يده اليسرى تحت رأس كيزى « يا الهى ٠٠٠ »

فصاح كونتا بصوت مدو أجش « لا !! » فالتفتت بيل برأسها ونظرت اليه بعينين يتطاير منهما الشرر فوقف الواعظ حائرا يجول ببصره بينهما وبدأت كيزى فى البـكاء وأحس كونتـــا بالنظرات العدائية المحدقة به ٠ وظل كل شيء معلقا فى صمت ٠

فكسرت بيل جمود الصمت « كل شيء على ما يرام ، أيها الاب الورع ، انه ليس سوى زوجى الافريقى وهو لايفهم هذه الاجراءات ولذلك سأشرح له الامر فيما بعد ٠ وأرجو أن تستمر فى الاجراءات »

وشاهد كونتا ـ وقد عقدت الدهشة لسانه ـ الواعظ يهز كتفيه فى غير مبالاة ويبدأ فى التحدث مرة أخرى « يا الهى بهــذه المياه المقدسة بارك هذه الطفلة ٠٠٠٠ وما هو اسم الطفلة يا أختاه ؟ » ٠

« كيزى » ٠٠

« بارك يا الهى هذه الطفلة كيزى وخذها معك فى أمان الى أرض

المعاد تلك » وبعد أن انتهى الواعظ من هذه العبارة غمس يده اليمنى فى الماء ثم نثر قطرات من الماء على وجه كيزى وصاح « آمين » ثم استدارت بيل وحملت كيزى وعادت بها الى الشاطىء وخرجت فى تثاقل من الماء ونظرت كونتا لاسفل نحو قدمى بيل الموحلتين وهو يحس بالخجل من نفسه ووضعت بيل كيزى بين ذراعى كونتا . فقال كونتا وهو يربت بيده الخشنة على وجه كيزى « انها على ما يرام ولم يلحق بها سوى بعض البلل » .

ثم أمسك بيل بذراع كونتا وسارا فى بطء عائدين الى المروج الخضراء حيث توجد سلة الطعام الخاصة بهما فوق العشب تحت ظل احدى شجرات الجوز .

# ٧٤

وفى احدى الليالى قالت بيل لكيزى وهما فى الكوخ « أنت على وشك الوصول الى سن السابعة . والاولاد من نفس سنك يعملون يوميا هناك بالحقول ـ مثل ذلك الولد الذى يسمى نوح ـ ولذلك فأنت ستبدئين فى مساعدتى فى العمل بالمنزل الكبير » . ونظرا لان كيزى قد بدأت تدرك مدى حساسية كونتا ازاء هذه الامور فانها نظرت اليه فى تردد فقال لها « أطيعى والدتك » وكانت بيل قد ناقشت ذلك الامر معه واضطر لان يوافق على بدء كيزى فى انجاز بعض الاعمال أمام السيد وولر وذلك لكيلا تستمر فى القيام فقط بدورها كرفيقة فى اللعب مع « آن » . وبدأت كيزى تهتم بالدروس التى تلقنها لها أمها فى الشئون المنزلية . وبطبيعة الحال عندما كانت آن تحضر للزيارة لم يكن السيد بحاجة لاصدار تعليماته باعفاء كيزى من العمل طوال فترة تواجد « آن » بالمنزل الكبير . وعندئذ كانت الطفلتان تتجولان كالعادة هنا وهناك وتلعبان لعبة « القفز على الحبل » ولعبة « الاستغماية » بالاضافة الى العاب أخرى من ابتكارهما .

وكان كونتا يحرص دائما فى كل مرة يطلب منه فيها توصيل كيزى بالعربة الى منزل السيد وولر على عدم اظهار تلهفه على الانفراد

مع ابنته في العربة . وكانت كيزى قد بدأت تفهم ـ بوصولها الى هذه المرحلة من العمر ـ أن اى شيء يقال اثناء ركوبهما العربة فهو شيء خاص بهما فقط مما جعل كونتا يحس بمزيد من الامان الذي يعينه على تعليم ابنته الكثير من المعلومات عن وطنها الاصلى افريقيا بدون أن يخشى اكتشاف بيل لما يحدث .

ولذلك فقد بدأ يعلمها ـ لدى تدحرج العربة على طرق سيتسلفانيا المتربة ـ الاسماء المندينكية للاشياء التي يمران بجوارها ، فكان يقول لدي مرورهما بجوار شجرة « يبرو » ثم يشير الى الطريق ويقول « سيلو » والى البقرة ويقول « ننسموزو » وعندما مرا بجوار كوبرى صغير قال لها « سالو » وعندما تساقط عليهما المطر فجأة صاح كونتا ملوحا بيده لاعلى « تيلو » . وكانت كيزى ترقب فمه في إنتباه شديد وهو ينطق كل كلمة ثم تقلد ما رأته شفتيها وبعدئذ تكرره مرات عديدة الى أن تنطق بطريقة سليمة . وسرعان ما بدأت تشير بنفسها الى الاشياء وتطلب منه ذكر أسمائها المندينكية . وما أن كادا يغادران المنزل الكبير ذات يوم حتى همست قائلة « وماذا تسمى رأسي ؟ » فرد عليها كونتا في همس « كونجو » ثم جذبت شعرها فقال لها « كونتينيو » فقرصت أنفها فقال لها « ننجو » ثم اعتصرت أذنها فقال لها « تولو » . وبعدئذ انخرطت كيزى في الضحك وطرقت على الاصبع الكبيرة في قدمها فصاح كونتا « سنكومبال » فامسكت كيزى باصبع السبابة في يدها فقال كونتا « بلوكوندنج » وعندما لمست فمها قال لها « دا » وبعدئذ أمسكت باصبع السبابة في يد كونتا واشارت اليه فصاح قائلا « فا » وأحس نحوها بمشاعر حب جارفة .

وبعد فترة قصيرة أشار كونتا الى جدول ماء صغير وقال « وذلك يسمى بولونجو » ثم قال لها انه في وطنه كان يعيش بجوار نهر يسمى « كامبى بولونجو » . ثم تساءلت كيزى فجأة « هل أنا لى جدة ؟ » .

« لك جدتان : أمي وأم والدتك »

« وما السبب في أنهما لا تعيشان معنا ؟ »

فقال كونتا « لانهما لا تعرفان المكان الذى نوجد فيه » ثم تساءل بعد لحظات « وهل تعرفين أنت المكان الذى نوجد فيه ؟ »

فقالت كيزى « نحن نوجد في العربة »

« أقصد : ما هو المكان الذى نعيش فيه ؟ »

« في منزل السيد وولر »

« وأين يوجد منزل السيد وولر ؟ »

فقالت وهي تشير في اتجاه الطريق « في ذلك الاتجاه » ثم أحسست بعدم الارتياح لموضوع الحديث فقالت «حدثني عن ذلك البق والاشياء الأخرى التي توجد في المكان الذي جئت منه » .

« حسنا ، انه نوع من البق الكبير الاحمر اللون الذي يعرف كيف يعبر الانهار فوق أوراق الشجر ويدخل في المعارك ويسير في شكل جيوش عسكرية ويبني تلالا يعيش فيها يصل ارتفاعها الى أطول من قامة الانسان »

« يبدو أنها مخيفة . وهل تستطيع أن تخطو فوقها ؟ » .

« لا أسير بقدمي عليها الا اذا اضطررت لذلك . فكل مخلوقات الله لها الحق في العيش مثل أي انسان .. بل ان العشب نفسه يعتبر كائنا حيا له روح شأنه في ذلك شأن الآدميين » .

« اذن فأنا لن أسير بعد اليوم فوق العشب . وسأضطر للبقاء في العربة » . فابتسم كونتا وقال « لم تكن هناك عربات في المكان الذي جئت منه . فنحن هناك ننتقل من مكان لآخر سيرا على الاقدام . وفي احدى المرات مشيت على قدمي طوال أربعة أيام مع والدي على طول الطريق من جوفيور الى قرية عمي .

« وما هي جو ـ فاه ـ ري ؟ »

« لقد سبق أن حدثتك عنهـــا مرات عديدة . وهي المكان الذي جئت منه » .

« لقد كنت أعتقد أنك جئت من افريقيا . فهل جامبيا التي تتحدث عنها موجودة في أفريقيا ؟ » .

« ان جامبيا دولة في افريقيا . وجوفيور قرية في جامبيا » .

« حسنا ! فأين توجد جوفيور وجامبيا وافريقيا يا والدي ؟ »

« في الجانب الآخر المقابل عبر المياه الكبيرة » .

« والى أي حد تبلغ ضخامة هذه المياه الكبيرة ؟ » .

« انها شاسعة للغاية حتى أن عبورها يســـتغرق حوالي اربعة اقمار » .

« أربعة ماذا ؟ » .

« أربعة أقمار مثلما تقولون أربعة شهور » .

« وما السبب في أنك لاتقول ( شهور ) ؟ » .

« لان الاقمار هي الكلمة التي أعبر بها عن ( شهور ) » .

« وماذا تسمي « السنة » ؟ » ٠
« سميها ( مطرا ) » ٠
« مطرا » ٠ واستغرقت كيزى في التأمل والتفكير لبعض الوقت ٠ ثم قال « وكيف عبرت المياه الكبيرة ؟ » ٠
« في سفينة كبيرة » ٠
« أكبر من زوارق التجديف تلك التى شاهدنا الرجال يصطادون بها ؟ » ٠
« كبيرة للغاية بحيث تستوعب مائة من الرجال » ٠
« وما السبب فى أنها لم تغرق في الماء رغم كبر حجمها ؟ » ٠
« لقد كنت أتمنى أن تغرق فى الماء ؟ » ٠
« ولماذا ؟ » ٠
« لاننا جميعا تعرضنا للمرض الشديد بحيث كان يبدو علينا أننا سنموت بأى شكل من الاشكال » ٠
« وما السبب فى أنكم أصبتم جميعا بالمرض الشديد ؟ »

لقد مرضنا بسبب الاستلقاء والبول والغائط والقىء الناجم عنا ، حيث كنا راقدين فى صفوف فوق بعضنا البعض ٠
« ولماذا لم تذهبوا الى دورات المياه ؟ » ٠
« لان التوبوب قد كبلونا فى الاغلال »
« ومن هم التوبوب ؟ »
« هم الناس البيض »
« وما السبب فى تكبيلك فى الاغلال ؟ هل ارتكبت خطأ ما ؟ »

« لقد كنت فى الغابة بالقرب من المكان الذى أعيش فيه ــ وهى قرية جوفيور ــ حيث كنت أبحث عن قطعة من الخشب لاصنع منها طبلة فأمسكوا بى واقتادونى معهم بالقوة » ٠
« وكم كان عمرك فى ذلك الوقت ؟ »
« سبعة عشر عاما » ٠

« هل كانوا سيطلبون من أمك وأبيك أن تذهب معهم فى حالة رفضك الانصياع لهم ؟ » فنظر اليها كونتا فى ذهول وهو لا يكاد يصدق أذنيه وقال لها « انهم كانوا سيقبضون عليهما أيضـــا اذا أتيحت لهم الفرصة لمشاهدتهما ٠ وحتى الآن لا تعرف أسرتى المكان الذى أعيش فيه » ٠
« هل لك اخوة وأخوات ؟ » ٠

« لدى ثلاثة من الاخوة ٠ وربما وصل عددهم الآن الى أكثر من

ذلك . وعلى أية حال فهم جميعا كبار الآن وربما يكونون متزوجين ولديهم أطفال من نفس عمرك » .

« وهل سنذهب لزيارتهم في يوم ما ؟ »

« اننا لا نستطيع الذهاب الى أى مكان »

« ولكننا ذاهبان الآن الى بعض الاماكن »

« نحن ذاهبان الآن الى منزل السيد جون وولر فقط . فاذا لم نصل الى هناك فانهم سيطلقون الكلاب للبحث عنا مع غروب الشمس » .

« لانهم قلقون علينا ؟ » .

« لانهم يمتلكوننا مثلما يمتلكون الجياد التى تجر العربة التى نركبها » .

« تماما مثلما أن والدتى تمتلكنى ؟ » .

« ان الامر هنا يختلف لانك ابنتنا » .

« الفتاة آن تقول لى انها تريد منى أن أكون ملكها » .

« أنت لست دمية تمتلكها آن وتلعب بها » .

« انني العب معها ايضا ولقد قالت لى أنها أعظم صديقة لى » .

« لا يمكن لك أن تكونى صديقة لاحد وعبدة له فى آن واحد » .

« لماذا يا والدى ؟ » .

« لان الاصدقاء لا يمتلكون بعضهم البعض » .

« أليست والدتى وأنت تمتلكان بعضكما البعض وفى نفس الوقت فانتما صديقان ؟ » .

« ان الامر هنا يختلف فنحن نمتلك بعضنا البعض أو ننتمى لبعضنا البعض لاننا ( نريدان ) ذلك حيث أن كلا منا يحب الآخر »

« حسنا ! انني أحب الفتاة آن ولذلك فانا اريد ان انتمى اليها ويمتلك كل منا الآخر » .

« من المستحيل أن يحدث ذلك » .

« ماذا تعنى ؟ » .

« لانكما لن تكونا سعيدتين بذلك عندما تكبران » .

«معنى ذلك أنك ووالدتى الآن وانتما كبيران لاتشعران بالسعادة»

« أنت على حق فى ذلك بكل تاكيد » .

« أواه ياوالدى . انني لن أتركك ولن اترك والدتى مطلقا » .

« كذلك أنا ووالدتك لن ندعك تتركيننا فى أى وقت من الاوقات يا طفلتى العزيزة » .

## ٧٥

وفى وقت متأخر من بعد ظهر أحد الايام قاد كونتا العربة لتوصيل السيد وولر لحضور حفل العشاء الذى يقيمه والداه فى « أنفيلد » تكريما لرجل أعمال شهير من رتشموند وبعض الشخصيات الهامة الاخرى • فوصل كونتا بالعربة عقب حلول الظلام بوقت قصير • وبدأت الطباخة جاتى ترسل الخادمات التابعات لها بالاطباق المختلفة المليئة بالاطعمة الشهية لوضعها على المنضدة الكبيرة أمام الضيوف • وكلما فرغ أحد الاصناف قامت الخادمات بنقل الصنف الذى يليه • وعندما عادت احدى الخادمات الى المطبخ قالت لكونتا والطباخة جاتى:

« ان الضيوف يتحدثون فى موضوع الزنوج الاحرار • ويقولون أن عددهم أصبح كبيرا للغاية وأن عددهم فى فرجينيا وحدها يبلغ ١٣ ألف زنجى • ويقول أحدهم أنه وجميع البيض يؤيدون فكـرة تحرير الزنوج الذين يقومون بأعمال مرموقة مثل أولئك الذين أثبتوا كفاءة فى القتال الى جوار أسيادهم البيض أثناء تلك الثورة ، أو أولئك الذين قاموا بابلاغ البيض عن خطط التمـرد التى وضـعها الزنوج أو مثل ذلك الزنجى الذى اخترع ذلك الدواء العشبى الذى اقتنع به الجميع من حيث أنه يشفى جميع الامراض تقريبا • ويقول آخر أن الاسياد لهم الحق فى أن ينصوا فى وصاياهم على تحرير الزنوج المخلصين الكبار فى السن ولكنه يقول أيضا أنه وكل الناس يقفون تماما ضد أولئك الكويكرز والآخرين الذين يطلقون سراح عبيدهم بدون مقابل » ثم اردفت قائلة « وهم يقولون أنه ستصدر فى القريب قوانين جديدة لفرض بعض القيود على ذلك الحق » •

ثم سألت الطباخة جاتى كونتا ما رأيك فيما يقوله ذلك السيد الذى يسمى الكيساندر هاملتون والذى يعيش فى الشمال فى أن جميع الزنوج الاحرار ينبغى أرســالهم الى أفريقيــا لان الــزنوج والبيض لا يمكنهم أن يتأقلموا مطلقا مع بعضهم •• فقال كونتا « أنه على حق فهذا هو رأيى أيضا • ولكن البيض يقولون هذا الكلام ويستمرون فى نفس الوقت فى احضار المزيد من الاشخاص من افريقيا »

فقال جاتى« السببفى ذلك انهم يريدون مزيدا منالزنوجليعملوا

فى جورجيا وكارولينا الشمالية والجنوبية من أجل زراعة القطن الذى حقق أرباحا هائلة منذ السنوات القليلة الماضية • وهناك سبب آخر وهو أن الكثير من الاسياد هنا يبيعون زنوجهم الى أصحاب المزارع فى الجنوب بأسعار تصل الى ضعف أو ثلاثة أضعاف الثمن الذى أشتروهم به » • •

فقال كونتا « لقد قال لى عازف الكمان أن كبار الاسياد فى الجنوب لديهم ملاحظو عمال من البيض الافاقين الذين يدفعون الزنوج للعمل فى قطع الاشجار من الارض لتحويلها الى حقول جديدة للقطن »

فقالت حاتى « نعم • وهذا هو السبب فى أن الجرائد فى الفترات الاخيرة قد امتلات بالاعلانات عن الزنوج الهاربين »

وعندئذ وجد كونتا نفسه يتذكر اعلانا عن عبدة هاربة كانت بيل قد قرأته له منذ فترة قصيرة من الجريدة • وكان نص الاعلان كالآتى: « امرأة عاهرة • طويلة القامة • مولدة من أب أبيض وأم زنجية • لها ثديان كبيران للغاية • وثديها الايمن به ندبة غائرة عميقة • تتميز بالخبث والدهاء واللصوصية وقد تبرز لمن يقبض عليها تصريحا كبيرا مزورا نظرا لان مالكها السابق قد اتاح لها فرصة تعلم القراءة والكتابة أو ربما تدعي لمن يقبض عليها أنها زنجية محررة»



وأصبح بمقدور كونتا الانفراد بابنته كيزى لمدة ساعتين فى فترة ما بعد الظهر فى بعض ايام الاحاد • فكان يصطحبها معه للنزهة بحذاء السور المغطى بالنباتات المتسلقة وهو نفس المكان الذى سار فيه منذ تسع سنوات لاختيار اسم « كيزى » لابنته • وذات يوم قرر أن يحكى لها قصة السلحفاة البحرية التى تحدثت مع الفهد الغبى واقنعته أن يدعها تركب على ظهره لتوصيلها لمسافة معينة وذلك بعد أن أدعت انها مريضة للغاية بحيث لا تقوى على المسير ». ونظرا لانه قد قص عليها فى مرات سابقة قصة التمساح والولد الصغير علاوة

على قصص أخرى كثيرة فقد سألته بعد أن ان انتهى من سرد قصة التمساح « اين سمعت كل هذه القصص التى تحكيها ؟ »

فقال كونتا « سمعتها عندما كنت فى نفس عمرك من جدة عجوز حكيمة تسمى تيوبوتو ٠ وكانت تحبنا نحن الاطفـال كأننا أولادها الصغار »

« الم يكن لها أطفال صغار ؟ »

« كان لها طفلان صغيران عندما كانت صغيرة للغاية فى السن قبل ان تجىء الى جوفيسور بوقت طويل ، وقد تم الاسـتيلاء على طفليها أثناء معركة دارت رحاها بين قريتها وقبيلة أخرى ٠ وأعتقد انها لم تفق من هذه الصدمة على الاطلاق » وخيم الصمت والذهول على كونتا حيث راح يفكر : ولكن الم يتم انتزاعه هو بل وانتزاع جميع الناس الذين كبلوا بالاغلال الى جواره بالسفينة الـكبيرة من أحضان امهاتهم ؟ كذلك الم يفقد الالاف الاخرون الذين لا حصر لهم والذين أحضروا الى ارض التوبوب قبله وبعده امهاتهم ؟

وسمع نفسه وهو يتكلم فى غير تبصر « لقد أحضرونا الى هنا عرايا كما ولدتنا امهاتنا » ونظـرت كيزى اليه محملقـة الا انه لم يستطع منع نفسه من التحدث فاستطرد « بل وانتزعوا منا اسماءنا الحقيقية ٠ وأولئك الذين ولدوا هنا مثلك لايعـرفون أى شىء عن عائلاتهم وقبائلهم الاصلية ٠ ولكنك لحسن الحظ تعرفين عائلة آل كينتا جيدا مثلى ٠ ويجب عليك أن تذكرى ذلك دائما : لقد كان أجدادنا تجارا ورحالين ورجال دين ــ على مدى مئات السنين الموغلة فى القدم فى تلك الاراضى التى تسـمى « مالى القديمة » ٠ أتفهمين ما أقول لك يا طفلتى العزيزة ؟»

فقالت كيزى فى امتثال وطاعة « نعم يا والدى »الا أنه كان يدرك أنها لم تفهم ماقاله ٠ وخطرت على ذهنه فكرة ٠ فالتقط غصنا وراح يسوى مساحة من التراب وبدأ يكتب بعض الحروف باللغة العربية ٠

ثم قال وهو يشير فى بطء باصبعه الى الحروف « هذا هو اسمى : كونتا كينتا » فحملقت فى انبهار وقالت : « والآن أكتب يا والدى اسمى »٠فكتب اسمها باللغة العربية وعندئذ ضحكت وتساءلت«أهذه الحروف تقول كيزى ؟ » فأومأ كونتا برأسه ٠ وبعدئذ تساءلت كيزى : « هل ستقوم بتعليمى الكتابة باللغة العربية على هذ النحو الذى تعرفه ؟ »

فقال كونتا في حزم : « لن يكون هذا ملائما »
فتساءلت كيزي وقد أحست ان مشاعرها قد جرحت « ولم لا ؟ »
« في افريقيا ،الاولاد فقط هم الذين يتعلمون القراءة والكتـابة أما البنات فالقراءة والكتابة لاتنفعهن في شيء · ولا تنفعهن هنا أيضا »
« اذن فما السبب في ان والدتي تعرف القراءة والكتابة ؟ »

فرد عليها في وقار « لا تقولي هذا الكلام · أتسمعينني؟ ولا تتدخلي في شئون الاخرين · فالناس البيض لايرغبون في ان يتعلم أحد منا القراءة والكتابة »

« ولكن ما السبب في ذلك ؟ »

« لانهم يعتقدون انه كلما قلت معرفتنا بالقراءة والكتابة ، قلت المتاعب التي نثيرها »

فقالت في استياء « ولكن القراءة والكتابة لا تثير المتاعب »
« اذن لم نسارع بالعودة الى الكوخ ستثير والدتك المتـاعب معي ومعك »



# ٧٧

وفي صـيف عام ١٨٠٠ ابلغ السـيد وولر بيل بانه ذاهب الى فردريكسبورج لمدة اسبوع لانجاز بعض الاعمال وأن أخاه جون سيحل محله أثناء غيابه ليدير الاعمال · وخلال اليومين التاليين عقب غياب السيد وولر سـارت الامور على ما يرام كالمعتاد · وفي ضحى اليوم الثالث جاء رجل ابيض ممتطيا حصانا لاهثا وطلب مقابلة السيد وبعد دقائق قليلة غادر الرجل المنزل الكبير بنفس السرعة التي وصل بها · وبعدئذ صرخ السيد جون مسـتدعيا بيل وأمرها باسـتدعاء جميع العبيد في الفناء الخلفي · فتجمعوا ووقفوا في صف واحد وقد توترت أعصـابهم من الخـوف · وعندئذ فتح جـون وولر الباب الخلفي ذا الاسلاك وانسل خارجا نحوهم وقد وضع في حزامه مسدسا لافتـا للانظار · وبعد أن تصفح وجوهم في قسوة شديدة للحظات قال :

« لقد جاءني توا نبأ يفيد ان الزنوج في رتشموند يتآمرون لاختطاف الحاكم وذبح البيض في رتشموند واحراق المدينة » فحملق العبيد في بعضهم في ذهول . بينما استطرد هو قائلا : « ونحمد الله . فقد قام عدد قليل من الزنوج الاذكياء باكتشاف المؤامرة وبادروا الى ابلاغ اسيادهم في الوقت المناسب قبل بدء تنفيذ الخطة وتم سحق المؤامرة والقاء القبض على معظم المشتركين في المؤامرة وتسير دوريات مسلحة حاليا على الطرق بحثا عن باقي الزنوج الهاربين .وسوف اتأكد بنفسي من عدم لجوء أحد الهاربين الى هنا لقضاء الليل . وممنوع مغادرة أحدكم المزرعة وممنوع التجمهر وممنوع الخروج من الاكواخ عقب غروب الشمس » . واستطرد « واى واحد منكم يحاول التمرد سأطلق عليه الرصاص على الفور بين عينيه . والآن انصرفوا الى عملكم »

ولم يحس العبيد بالقلق على كونتا نظرا لانه سيكون آمنا برفقة السيد وولر وانما كان قلقهم منصبا على عازف الكمان الذي كان قد غادر المزرعة في اليوم السابق للعزف في حفل راقص كبير في رتشموند .

وكان عازف الكمان مازال متغيبا بينما عاد كونتا والسيد قبل الموعد المحدد لعودتهما بثلاثة أيام بسبب ظهور التمرد . وبعد ان انفرد كونتا مع زوجته في الكوخ قال لها : « لقد تعرض المتمردون السود الذين قبض عليهم للتعذيب الشديد الى ان أرشدوا عن باقي المشتركين في الخطة .

وقد اعترف احدهم ان زعيم الثورة يسمى جبرييل بروسار وقد نجح في تجنيد ٢٠٠ من خيرة الرجال ودربهم لاكثر من سنة. ولايزال بروسار هاربا . ويقوم الحرس الوطني بتمشيط المناطق الريفية بحثا عنه وعن باقي الهاربين » .

وعندما لم يعد عازف الكمان في اليوم التالى ايضا كتب السيد رسالة للشريف ليخطره بذلك وطلب من كونتا توصيل الرسالة الى مقر حكومة الولاية فقام كونتا بتوصيلها . وفي طريق العودة قاد كونتا العربة ببطء وراح يحملق في اكتئاب في الطريق الممتد امامه ويسائل نفسه عما اذا كان سيتمكن من رؤية عازف الكمان مرة أخرى . وبينما هو على هذا الحال سمع فجأة صوتا يقول : « هاى ! أيها الزنجى » ثم سمع نفس الصوت يقول « الى اين انت ذاهب

بحق الجحيم ؟ » فاوقف الحصانين ونظر فيما حوله الا انه لم يشاهد أحدا ولكنه سمع فجأة نفس الصوت « أيها الولد انك لا تحمل تصريحا بالسفر ولذلك ستتعرض لمتاعب جمة » وعندئذ شاهد عازف الكمان وهو يخرج من حفرة ممزقا وأشعث وجريحا ومليئا بالكدمات الزرقاء ومغطى بالطين وحاملا في يده صندوقه المحطم ومبتسما ابتسامة عريضة ، فصرخ كونتا صائحا وهو يقفز هابطا من مقعده وفي لحظات راح هو وعازف الكمان يقبلان بعضهما البعض ويدوران حول بعضهما ويضحكان ٠

ثم ظهر على كونتا الوقار وسأله « أكانت الاحداث سيئة يافيدلر ؟»

فقال عازف الكمان « لقد كنت على وشك أن أعزف « دويتو» مع الملائكة لولا أن تمكنت من الافلات والهرب » ٠ وبعد أن تسلق الاثنان العربة استطرد عازف الكمان « لقد كان الحفل الراقص في فترة الراحة التي تفصل النصف الاول عن النصف الثاني من البرنامج عندما وصلت الانباء الاولى عن التمرد ٠ فراحت السيدات تصرخن وتولولن اما الاسياد فقد صوبوا بنادقهم ومسدساتهم علينا نحن الزنوج الواقفين فوق منصة الجوقة الموسيقية ٠

وأثناء هذه الفوضى العارمة والضجيج الجنوني تسللت الى المطبخ واختبأت في صفيحة الزبالة الى ان انصرف جميع الناس من الحفل ٠ وبعدئذ هربت من النافذة وسرت في الشوارع الجانبية ٠ وعندما وصلت الى مشارف المدينة سمعت فجأة صراخا خلفي وبعدئذ سمعت وقع أقدام كثيرة تجرى في نفس الاتجاه الذى أسير فيه ٠ فانطلقت باقصى سرعة نحو المنعطف التالي على الطريق ولكني سمعتهم يتقدمون للحاق بي ٠ وفجأة رأيت فراندة منخفضة فزحفت للاختباء تحتها ٠

« وكان المكان ضيقا للغاية تحت الفراندة ٠ ورحت أزحف في عناء شديد للتخفي أكثر تحتها ٠ وعندئذ سمعتهم يجرون بسرعة ومعهم مشاعل مضيئة ويقولون ( امسكوا ذلك الزنجي ) وبعدئذ ارتطم جسمي بشيء ضخم لين وشعرت بيد تربت على ثم سمعت صوت رجل زنجي يقول : (لاتدخل بدون استئذان في المرة التالية) ٠ واتضح لى أنه خفير لحراسة المخازن وقد شاهد هذا الخفير بعيني رأسه الغوغاء وهم يمزقون صديقا له اربا اربا فعقد العزم على عدم

الخروج من مخبئه الى ان تهدأ الثورة حتى ولو اقتضى الامر بقاءه حتى فصل الربيع القادم !

وبعد فترة قصيرة تمنيت له حظـــا سعيدا وخرجت من مخبئى وتوجهت مباشرة نحو الاحراش • وكان ذلك منذ خمسة أيام مضت وكنت أتمنى أن أسير على الطـــريق ولكنى كنت أعرف أن هنـــاك دوريات كثيرة فوق جميع الطرق ولذلك التزمت بالسير فى الأدغال وتناولت ثمار التوت ونمت فى الأحراش مع الارانب وسارت الأمور على خير مايرام معى حتى البارحة حيث وصلت الى موقع يبعد أميالا قليلة شرق هذا المكان وعندئذ أمسك بى بعض البيض الأفاقين فى مساحة مكشوفة خالية من الأشجار •

« وهم يجدون متعة هائلة فى ضرب الزنوج بالســـياط بل ويبادرون أحيانا الى شنقهم بالحبال • وأمسكوا بتلابيبى وراحوا يهزوننى ويسألوننى عن اسم الســـيد الذى يمتلكنى وعن المكـــان الذى أقصده ولـكن بدون أن يســـتمعوا باهتمـــام لاجاباتى على أسئلتهم ـ فقلت لهم اننى عازف على الكمان • فتوقفوا عن الضرب • وقال أحدهم ( حسنا • دعنا نستمع الى شىء من عزفك ) • فعزفت لهم لحن « ديك رومى فى القش » فراحوا يصـــفقون ويصرخون ويدقون الارض بأرجلهم • ولم أتركهم الا بعد أن شبعوا من اللحن • فأفرجوا عنى وأمرونى بالاسراع فى العودة الى منزلى • وكلمـــا رأيت عربة آتية على الطريق كنت أتخفى فى احـــدى الحفر الى أن جاءت عربتك وها أنذا موجود أمامك »

وبينما كانا يتدحرجان بالعربة نحو الطريق الفرعى المؤدى الى المنزل الكبير ترامى الى سمعهما صياح وضجيج وبعدئذ شاهدا جميع العبيد وهم يهرولون لملاقاتهما • فقال عازف الكمان « ربمـــا كانوا يشعرون ان شخصا ما كان غائبا عنهم » ورغم أنه قال هذه العبارة وهو يبتسم الا ان كونتـــا قد أدرك أن الرجل كان متـــأثرا الى حد بعيد • وابتسم كونتا هو الآخـــر وقال « يبدو انك ســـتضطر لأن تقص الحكاية من أولها لآخرها مرة أخرى »

## ٧٨

وذات يوم قال كونتا لكل من عازف الكمان وبيل : «هناك عائلات زنجية بأكملها كانت تعيش هنا فى هذه المنطقة وتم بيعهـا بمعرفة أسيادهم لتجار العبيد الذين يسحبونهم للعمل فى الجنوب

فقال عازف الكمان فى استياء لقد أصبح تجار العبيد فى مدينة فردريكسيبورج شيئا لايطاق • فقد رأيت بنفسى زنجيـا عجـوزا أشيب اللحية يباع ب ٦٠٠ دولار • الا أنه لم يذعن لهم فى هدوء فأنزلوه بالقوة من فوق خشبة المزاد فراح يصرخ بأعلى صوته قائلا :

« أنتم جميعا أيها البيض قد حولتم أرض الله الى جحيم فى وجه أهالى من الشعب الأسود • ولكننى متأكد أن عدالة السماء ستتحقق ذات صباح وعندئذ سينقلب الجحيم فوق رؤوس جميع أولئك الذين خلقوا هذا العذاب الجنونى حيث لاينفع الندم ولا التوسل ولا الهرب من المصير الأسود وحيث لاجدوى من المدافع ولا فائدة من الأدوية أو الصلوات وحيث لامفر من الهـلاك المحتوم » وما أن فـرغ من صراخه حتى جروه من فوق خشبة المزاد • ويبدو أن هـذا الرجل يشتغل بالوعظ أو بشىء من هذا القبيل •

وبعد شهور قليلة كان كونتا يقود العربة بالقرب من احد مزادات العبيد • وفجأة قال له السيد « أوقف العربة ، يا توبى » • وما أن وقفت العربة حتى سمع كونتا المنادى فى المزاد يقول « انه تيس ممتاز وباستطاعته العمل بكفاءة على ماكينات الغزل والنسيج كما يستطيع جنى ٤٠٠ رطل من القطن فى أى يوم • وهو تيس ممتاز ــ ويمكن استخدامه اذا كانت النساء العبدات لا تحملن ولا تلدن كل سنة كما ينبغى •• وتم بيع هذا الشاب بمبلغ ١٤٠٠ دولار •

وبعدئذ اقتيدت امرأة حبلى صفراء البشرة لتقف على رصيف المزاد وبدأ المنادى يقول « ستدفع ثمن واحدة وتحصل على شخصين أو ستدفع ثمن واحدة وتحصل على ثلاثة أشخاص اذا أنجبت هى توأما • مع العلم بأن الطفل الرضيع الزنجى يبلغ ثمنه فى هذه الايام مائة دولار بمجرد نزوله من بطن أمه » وتم بيعها بألف دولار • وامتلأت عينا كونتا بالدموع •

أصبح المنظر لا يطاق عندما جاء الدور على من يليها وكانت فتاة صغيرة يتم جذبها من سلاسلها ـ وعندئذ كاد كونتا يسقط من فوق مقعده · فالفتاة الصغيرة المراهقة كانت صورة طبق الاصل من كيزى مع فارقا واحد وهو أنها كانت أكبر من كيزى بعض الشيء في السن· وأحس كونتا وكأنه قد ضرب ببلطة وهو يسمع المنادى قائلا : خادمة منزل مدربة تدريبا جيدا ··· ثم استأنف وهو ينظر اليها في شبق ويغمز بعينيه : « أو هي فتاة صغيرة لانجاب الاطفال بالدرجة الاولى اذا كنت تريدها لهذا الغرض » ثم دعا الجمهور لفحصها عن كثب وقام بفك رباط الشوال الذى ترتديه فسقط الشوال عند قدميها فراحت تصرخ وتضع يديها لاسفل محاولة ستر عورتها أمام نظرات الناس الشهوانية ·

وعندئذ قال السيد وولر « هذا يكفي · فلنغادر هذا المكان » · وعندما عاد كونتا مع السيد بالعربة الى المنزل أحس كونتا ببصيرته بوجود شيء غير طبيعي · فذهب على الفور الى المطبخ لمقابلة بيل فأخبرته أن أحد تجار العبيد قد حضر فى الفترة الصباحية وسأل عن السيد فقالت له انه يقوم بمعالجة الناس فى الخارج وعندما سألها عن السيدة قالت له انها مدفونة فى الجبانة فترك بطاقة عليها اسمه والصرف ·



# ٧٩

وكانت أذن كونتا منتبهة للحوار الدائر بين السيد وابن عمه الجالسين في مؤخرة العربة المتدحرجة على الطريق الى منزل السيد فى احدى الايام ·

فسمع السيد يقول « منذ أيام رأيت فى احد المزادات عمليات بيع العبيد وقد دهشت لان الاسعار تصل الى ثلاثة أضعاف الاسعار التى كانت متداولة منذ سنوات قليلة مضت · وقد قرأت أيضا في الجريدة أن أسعار العبيد الحرفيين تصل الى ٢٥٠٠ دولار للفرد الواحد » ·

فقال ابن عمه « لقد ارتفعت أسعار العبيد بسبب ظهور تلك المحالج الجديدة لحلج القطن . ولقد وصل عدد العبيد فى الدولة الى أكثر من مليون شخص ومع ذلك فان السفن لاتكف عن احضار المزيد من الزنوج لتوفير العمالة فى تلك الاراضى فى عمق الجنوب وذلك حتى يمكن مواجهة مصانع النسيج فى الشمال » .

وقال السيد « ان عملية بيع العبيد الموجودين فى فرجينيا للعمل فى الجنوب مسألة غاية فى الغباء » .

« الغباء ؟ ان فرجينيا يوجد بها عدد من الزنوج أكثر مما تحتاج . كما أن تكاليف الانفاق على الزنوج تزيد عن قيمة انتاجهم » .

فقال السيد وولر « ربما يكون الامر كذلك فى هذه الايام ولكن كيف يمكن لنا أن نعرف احتياجاتنا فى الخمس أو العشر سنوات القادمة ؟ كما أنني لا أوافقك على أن تكاليف العبيد تزيد على القيمة الفعلية لانتاجهم فهذا الكلام غير دقيق . كما أن العبيد الحرفيين يدرون أموالا كثيرة على مالكيهم . وأنا أعتقد أن العبيد والاراضى - وفق ذلك الاسلوب المعمول به حاليا - يعتبران أفضل الاستثمارات فى هذه الايام . فهما يعتبران العمود الفقرى لنظامنا الاقتصادي » .

فقال ابن عمه « ان العبيد هنا فى فرجينيا يثيرون متاعب هائلة ونحن جميعا لن ننسى ذلك التمرد الاخير فى رتشموند » .

فقال السيد وولر « هذا صحيح . ولكنني مازلت أعتقد أننا اذا أصدرنا مزيدا من القوانين الصارمة التى تلزم العبيد بالبقاء فى أماكنهم واذا قمنا بمعاقبة مثيرى الشغب بحيث نجعلهم عبرة للآخرين فان الامور ستسير على ما يرام . وأنا شخصيا لا أفكر فى بيع عبيدى . ولقد تضايقت جدا عندما ترك أحد تجار العبيد بطاقته فى منزلى أثناء غيابى بالخارج » .

وبعد أن وصل كونتا الى المنزل راح يقص على العبيد المغتبطين صورة طبق الاصل من الحوار الذى سمعه . وساد الصمت للحظات ثم تساءلت المرضة ماندي « كيف استطاع الرعيل الاول من الزنوج الاحرار فى الشمال تحرير أنفسهم ؟ » فقال عازف الكمان « حسنا ! ان عددا كبيرا من الاسياد بالمدن يتيحون الفرصـــة لعبيدهم بتعلم الحرف ثم يأجرونهم للعمل فى أماكن مختلفة ويعطونهم جزءا من الايراد مثلما يفعل السيد هنـــا معى . ولذلك فان الزنجي يوفر الاموال ويشترى حريته من سيده » .

فتساءل كاتو « وهل هذا هو السبب فى أنك مشغول للغاية فى العزف على الكمان فى الحفلات ؟ » ·
فقال عازف الكمان « اننى لا أفعل ذلك من أجل أن أرى البيض وهم يرقصون » ·

« هل وفرت المبلغ الذى يكفى لشراء حريتك ؟ » ·
« لو كنت قد وفرت المبلغ المطلوب لما كنت موجودا هنا أمامك لتوجه الى هذا السؤال » فانفجر الجميع فى الضحك ·

« حسنا ! ولكن ماذا ستفعل عندما تستكمل المبلغ المطلوب ؟ » ·
« عندئذ ، يا أخى العزيز ، سأنطلق بسرعة الريح الى الشمال · فقد سمعت أن بعض الزنوج الاحرار فى الشمال يعيشون حياة أفضل من البيض · وهذا ما أتلهف لتحقيقه · فأنا أتطلع الى السكن بجوار الاغنياء والتحدث بأسلوب راق وارتداء الملابس الحريرية والعزف على القيثارة وحضور الاجتماعات التى تناقش الكتب وزرع الورود وأشياء من هذا القبيل » · فانفجر الجميع فى عاصفة من الضحك مرة أخرى ·

وبعد شهر تقريبا قام كونتا بزيارة عازف الكمـان فى كوخه · فقال له عازف الكمان فى سرية شديدة :
« لقد استكملت المبلغ المطلوب لشراء حريتى · وقد استلزم الامر منى العزف فى أكثر من ٩٠٠ حفلة للناس البيض · لقد استكملت أيها الافريقى المبلغ المطلوب وهو ٧٠٠ دولار حيث قال لى السيد منذ سنوات بعيدة أنه ينبغى على أن أوفر هذا المبلغ وأدفعه له لكى يطلق سراحى » · وصعق كونتا وعقدت الدهشة لسانه فظل صامتا فى ذهول · ثم قام عازف الكمان بتمزيق مرتبته وتفريغ محتوياتها من النقود على أرضية الكوخ فانتشرت مئات الاوراق المالية من فئة الدولار عنـــد أقدامهما ثم سحب زكيبة من تحت السرير وأفرغ محتوياتها فوق الدولارات فشاهد كونتا مئات العملات المعدنية من كل فئة ·

« حسنا أيها الافريقى · هل ستقول شـــيئا أم أنك ستكتفى بالوقوف على هذا النحو فاغرا فاك ؟ » فقال كونتا « اننى لا أعرف ماذا أقول » ·
« هل ستهنئنى على ذلك ؟ » ·
« ان الامر يبدو رائعا للغاية حتى أننى لا أكاد أصدق أنه حقيقة »
« ولكنه حقيقة واقعة أمامك الآن · لقد قمت بعد هذه النقود آلاف

المرات . فوجدت أن المبلغ يكفى لشراء حريتى وشراء حقيبة من الورق لى » .

ثم ركع عازف الكمان وأخذ يجمع النقود وقال « استمع الى . لا تتحدث مطلقا فى هذا الموضوع حتى صباح اليوم التالى . اننى سأذهب غدا الى السيد لاقول له أن ثروته قد زادت بمبلغ ٧٠٠ دولار . أستكون مسرورا مثله لدى رؤيتي وأنا ذاهب اليه ؟ » .

فقال كونتا « سأكون مسرورا من أجلك ولست مسرورا من أجلى » .

« اننى سأعمل على شراء حريتك أيضا . ولكن عليك أن تنتظر لفترة من الوقت . فأنا لكى أحصل على حريتى قمت بالعزف المتواصل لمدة ٣٣ سنة » .

وعندما ذهب كونتا الى كوخ عازف الكمان في صباح اليوم التالى وجد الكوخ شاغرا ولذلك فقد ذهب الى بيل ليسأل عما اذا كان عازف الكمان قد قابل السيد وولر .

« لقد جاء لمقابلته وغادر المنزل . وكان يبدو عليه كأنه قابل عفريتا . فماذا كان يريد من السيد ؟ » .

فسألها كونتا « وماذا قال عازف الكمان وهو خارج من المنزل ؟ »

« لم يقل شيئا ولم ينتبه الى وهو يمر بجوارى »

فبحث عنه كونتا فى كل مكان وفي كل كوخ دون جدوى . ثم انطلق الى السور الخارجي وقطع مسافة طويلة ثم ترامى الى سمعه نغمات حزينة باكية فأسرع الخطى ثم شاهد شجرة بلوط مطلة على جدول ماء بالقرب من حدود ممتلكات السيد وولر . وعندما ازداد اقتراب كونتا شاهد حذاء عازف الكمان ممتدا من خلف الشجرة . وعندئذ فقط توقف العزف وتوقف كونتا في سيره بعد أن أحس أنه اقتحم على عازف الكمان خلوته .

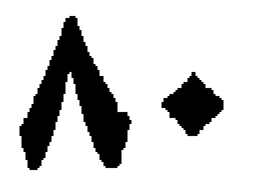
فوقف كونتا ساكنا منتظرا استئناف « فيدلر » للعزف الا أن طنين النحل وخرير جدول الماء كانا هما الاصوات الوحيدة التي تكسر جمود الصمت . وأخيرا تحرك كونتا في ارتباك وخجل حول الشجرة وواجه عازف الكمان . ومن نظرة واحدة أدرك كونتا ما حدث ـ اذ كان وجه صديقه خاليا من الاشراق كما كانت عيناه خاليتين من البريق .

وقال عازف الكمان بصوت متصدع « أتريد أن تحشو احدى المواتب بالنقود ؟» ولم يرد كونتا . وبدأت الدموع تنهمر على وجنتى عازف الكمان ثم اندفع قائلا « لقد قلت له اننى وفرت أخيرا المبلغ

المطلوب لشراء حريتى بالتمام والكمال • فراح يتلعثم للحظات ونظر الى السقف ثم هنأنى على توفير هذا المبلغ الكبير • الا أنه قال لى بعدئذ أننى اذا كنت أصر على اكتساب الحرية فانه سيأخذ منى ال ٧٠٠ دولار كمبلغ تحت الحساب لانه عندما فكر فى هذا الموضوع من الناحية التجارية وضع فى اعتباره ارتفاع أسعار العبيد فى الآونة الاخيرة• ثم قال لى أنه لن يقبل منى أقل من ١٥٠٠ دولار كثمن لعازف ممتاز مثلى • كما قال انه اذا باعنى لاى شخص آخر الآن فانه سيطلب ٢٥٠٠ دولار ثمنا لى • ثم قال بأنه آسف غاية الاسف وأضاف بأنه ينبغى على أن أقدر موقفه لان العمل التجارى لا تدخل فيه العواطف والمجاملات •• فهو يجب عليه أن يحصل على مكسب كبير من وراء استثمارى » •

وبدأ عازف الكمان يبكى بصوت مرتفع ، واستطرد « ثم تمنى لى التوفيق فى أن أتمكن من توفير المبلغ الباقى فى حالة اصرارى •• ونصحنى بمداومة الاخلاص فى العمل •• وطلب منى أن أبلغ بيل لتحضر له فنجانا من القهوة » •

وتوقف عازف الكمان عن الحديث • وظل كونتا واقفا الى جواره فى ذهول • وبعدئذ صرخ عازف الكمان فجأة قائلا « هذا الرجل ابن الكلب » ثم رفع ذراعه للخلف وألقى بالكمان فى جدول الماء •



وبعد ذلك بشهور قليلة عندما عاد كونتا مع السيد ليلا أحست بيل بالقلق لانهما كانا مرهقين للغاية حتى أنهما لم يستطيعا تناول العشاء الجيد الذى أعدته لهما • اذ كانت هناك حمى غريبة منتشرة فى البلاد مما جعل الرجلين يستيقظان فى وقت مبكر فى كل صباح ويعودان فى وقت متأخر فى كل ليلة حيث كان السيد يبذل جهودا متواصلة لمحاصرة الوباء المنتشر •

وارتمى كونتا فى اعيـــاء فوق الكرسى الهزاز وراح يحملق فى شرود نحو نيران الموقد • ولاحظت بيل مدى اعيائه الشديد •فقالت له « يجب عليك أن تذهب للنوم الآن على الفور » •

« دعيني وشأني . فأنا على ما يرام » .

فقالت بيل في حزم « لا . انك مرهق للغاية » ثم أمسكت بذراعه وساعدته على النهوض من الكرسي الهزاز . فجلس كونتا على حافة السرير بينما قامت هي بمساعدته على قلع ملابسه . ثم استلقى على السرير متنهدا . وقامت بتدليك ظهره لبعض الوقت . وبعدئذ أطفأت الشمعة واستلقت الى جواره .

ولكنها عندما قدمت طعام الافطار للسيد في صباح اليوم التالى قالت له أن كونتا غير قادر على النهوض من سريره . فقال السيد محاولا اخفاء قلقه « ربما أصيب بالحمى وأنت تعرفين ما ينبغي عمله لعلاجه . وينبغي ان ترشحى لى سائقا آخر لقيادة العربة نيابة عنه » .

فقالت « نعم يا سيدى » وفكرت للحظات ثم استطردت « ألديك اعتراض على ذلك الولد الذى يسمى نوح ؟ فهو قد أصبح كبيرا في الايام الاخيرة ويستطيع أن يقود الجياد بكفاءة أيضا » .

« ما عمره الآن » ؟

« حسنا ! نوح يكبر كيزى بعامين ولذلك فعمره الآن يصل الى ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاما على ما أظن » .

فقال السيد « انه صغير للغاية . أخبرى عازف الكمان أن يحل محل كونتا فى قيادة العربة . فهو فى الآونة الاخيرة لم يعد يعمل باخلاص لا فى الحديقة ولا فى العزف . دعيه يحضر لى العربة الآن فورا » .

ونظرا لان حالة كونتا كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم رغم كل ما فعله السيد وولر وبيل من أجل شفائه ، فقد تزايدت صلوات بيل وتضرعها لله من أجل انقاذ حياة كونتا . وكانت بيل تنسى تماما أساليب كونتا العنيدة الغريبة الصامتة أثناء جلوسها فى كل ليلة الى جوار سريره بينما كان هو مستلقيا فى العرق والانين والتوجع والهذيان تحت الالحفة المكومة فوقه . وكانت تمسك يده الساخنة فى يديها وتساورها المخاوف من أنها قد لاتتمكن مطلقا من اخباره بأنه كان رجلا ذا قوة حديدية وشخصية جبارة وأنها لم تشاهد مثيلا له من قبل فى حياتها وأنها تحبه حبا جنونيا أسطوريا . وتعرض كونتا لغيبوبة استمرت ثلاثة أيام ، واثناءها جاءت آن لزيارة السيد وولر فوجدت كيزى فى الكوخ مع بيل والممرضة ماندى والعمة سوكى وقد انخرطوا جميعا فى البكاء والصلوات . فراحت تبكى

هي الاخرى وعادت الى المنزل الكبير وأخبرت السيد وولز أنها تريد أن تقرأ شيئا من الانجيل من أجل شفاء والد كيزى • ثم قالت له أنها لا تعرف الآيات المناسبة التى يمكن قراءتها وطلبت منه أن يحدد لها الآيات الملائمة • واســتمع السيد وولز باهتمام لابنة أخيــه الحبيبة ونهض من فوق الاريكة وفتح دولابه وأخرج انجيله الضخم• وبعد أن فكر للحظات راح يقلب فى الصفحات ثم أشار بأصبعه الى الفقرة التى ينبغى عليها قراءتها •

وعندما انتشر الخبر في أكواخ العبيد بأن آن ستقرأ شيئا من الانجيل تجمع العبيد بسرعة عند كوخ كونتا وبدأت هى فى القراءة :

الله هو الراعى • كل شيء بارادته • هو قادر على أن يجعلنى أنام فى مراع خضراء • وهو يقودنى الى جوار المياه الساكنة ؛ ويسترد روحى ويقودنى فى طريق الحق والصواب اعلاء لاسمه نعم • رغم أننى أسير فى الوادى الخاص بظلال الموت الا أننى لن أخشى أى شر ، لانك معى يا الهى » • ثم نظرت فى غير ثقة الى الوجوه التى ترقبها •

وأحست الممرضة ماندى بالتأثر الشديد ولم تستطع منع نفسها من الصياح : « يا الهى استمع لهذه الطفلة ! لقد كبرت وتعلمت القراءة الجيدة » !!

ووسط صيحات الاعجاب من الآخرين قالت آدا أم نوح فى تعجب « لقد كانت هــــذه الطفلة بالامس تجرى وتلهو كم تبلغ من العمر الآن » ؟ فقالت بيل فى فخر كما لو كانت آن ابنتها « هى تزيد قليلا عن الرابعة عشرة • لو سمحت اقرئى لنا قدرا آخر قليلا ياحبيبتى»•

فأحست آن بالخجل بسبب الثناء عليها وقرأت الآية الاخيرة من المزمور الثالث والعشرين •

وبعد أيام قليلة مليئة بالعلاج والصلوات بدأت دلائل الشفاء تظهر على كونتا • وهمست كيزى فى أذنه قائلة له أنها قد وضعت زلطة جميلة فى قرعته الجافة فى صباح الشهر الجديد المنصرم فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه كونتا المتهالك • وبعدئذ استيقظ كونتا ذات صباح على صوت العزف بجوار سريره فقال وهو يفتح عينيه « اننى أحلم بالتأكيد » • فقال عازف الكمان « لن تحلم أكثر من ذلك » واستطرد « لقد سئمت من قيادة العربة بالسيد فى جميع أرجاء جهنم • وقد امتلأ معطفى من الخلف بالثقوب النـــاجمة عن نظراته الحارقة الثاقبة فى ظهرى • ويجب أن تنهض الآن من فراشك أو تنتقل لرحمة الله أيها الزنجى » •

## ٨١

وفي صباح اليوم التالى . سمع كونتا أثناء جلوسه على السرير في غرفة النوم صوت كيزى وهى تدخل الكوخ برفقة آن . وأخذت الفتاتان تضحكان وتثرثران ثم جلستا فى الغرفة الامامية .

وتساءلت آن فى حزم وهى تمثل دور المدرسة « هل استذكرت دروسك يا كيزى » ؟ فضحكت كيزى ضحكات خفيفة وقالت « نعم » وبدأت آن تراجع معها حروف اللغة التبوبوية وتساعدها على تكوين بعض الكلمات من الحروف .

وتكررت الدروس . وكانت كيزى مهتمة كثيرا بتعلم اللغة قراءة وكتابة . فكانت تجلس عقب انصراف آن في كل ليلة من ليالى الدروس ، منحنية على المنضدة وتقوم بنسخ وتقليد الكلمات من الكتاب الذى أعطته لها آن . وكانت بيل تساعدها على التعلم وتشرح لها من وقت لآخر . وبعد مرور أسابيع قليلة قالت بيل لكونتا ذات مساء بعد أن استغرقت كيزى فى النوم « لقد أصبحت كيزى أقوى بكثير منى فى اللغة . وأدعو الله أن تسير الامور بدون متاعب » .

وعلى مدى الشهور التالية استمرت كيزى وآن فى زيارة بعضهما البعض فى معظم أجازات نهاية الاسبوع . وبعد مرور بعض الوقت بدأ كونتا يتوقع حدوث فتور فى صداقتهما مع استقلال كل منهما تدريجيا بشخصيتها خاصة وأن « آن » قد بدأت تتفجر بالانوثة نظرا لانها تكبر كيزى بأربعة أعوام .

وقبل حلول موعد الاحتفال بعيد ميلاد « آن » السادس عشر بثلاثة أيام انطلقت آن المتهورة الى منزل السيد وولر وقالت للسيد وولر وهى تبكى أن والدتها المريضة تدعى الصداع المستمر فى محاولة منها لالغاء الاحتفال بعيد ميلادها . وتوسلت اليه لكى يوافق على اقامة الاحتفال بمنزله . فوافق على الفور وبينما كان السائق روسبى يجوب البلدان ليبلغ عشرات الفتيات المراهقات المدعوات للحفل بتغيير العنوان ، كانت كل من بيل وكيزى تساعدان

( آن في انجـاز اللمسـات الاخيرة على وجـه السرعة • وانتهت الاستعدادات في الوقت الملائم وراحت كيزى تساعد آن على ارتداء ثوب الاحتفال والنزول بها على الدرج لتحيى ضيوفها •

وبمجرد وصول أول عربة عليها فتيات من المدعوات راحت آن تتصرف فجأة كما لو أنها لاتعرف مطلقـا كيزى المرتدية مريلتهـا والتي ظلت تحوم وتدور بين الفتيـات حاملة بين يديهـا صينيات مليئة بالمرطبات • وعندما عادت كيزى الى كوخهـا في تلك الليلة انخرطت في البكاء فقالت لها بيل « لقد كبرت « آن » وأصـبحت آنسة صغيرة ياحبيبتي •وذهنها الآن متعلق بذلك النوع من الأمور• وهي لاتنظر اليك الآن نظرة أقل عن ذى قبل ولم تقصد الاسـاءة اليك مطلقا • فهذا الذى حدث يحدث دائما بين الطفـلات السود اللائى تربين مع طفلات بيض • فما أن تكبر الفتاة البيضـاء حتى تذهب في طريق وتذهب الفتاة السوداء في طريق آخر » •

واستمرت الآنسة آن في زيارة منـزل السـيد وولر وان كان بمعدل أقل كثيرا عن ذى قبل وذلك منذ أن بدأ الشـبان الصـغار يشغلون وقتها • وكانت آن تقابل كيزى في كل مرة تحضر فيها الى منزل السيد وولر وتقضيان بعض الوقت في التحدث في هدوء في الفناء الخلفي بالقرب من صف أكواخ العبيـد ثم تعـود آن الى منزلها وعادة ما كانت كيزى تنظر الى ظهـر آن لدى انصرافهـا ثم تسارع بعدئذ الى كوخها وتدفن نفسـها في الدراسـة حيث تظل تكتب وتقرأ لحين حلول موعد طعام العشاء • وقد رحب كونتـا بذلك لكي تشغل وقتها بعد أن تدهورت الصداقة بينها وبين آن •

وقد لاحظ كونتا أن ابنته كيزى بدأت تقترب هى الاخـرى من سن المراهقة • وعندما عاد كونتـا الى الـكوخ ذات يـوم أدرك عن طريق حاسة الشم أن كيزى تعانى لأول مرة من الدورة الشهرية • ولكنها بعد انقضاء يومين في الفراش عادت لعملها في المنزل الكبير وبدأ كونتا يلاحظ التغييرات الفجائية التي طرأت على جسد كيزى بعد أن تكور ثدياها وردفاها • وبدأ كونتا يفكر في اختيـار زوج مناسب لكيزى • وهداه تفكيره الى ان نوح شخص مناسب • فهو يبلغ من العمر خمسة عشر عاما حيث أنه يكبر كيزى بسنتين فقط علاوة على أنه يتميز بالنضج والحزم وتحمل المسـئولية والقوة والرجولة • ولكن المشكلة أنه لم يبد أى اهتمام شخصي بكيزى وهي ايضا لم تكن تهتم به • وراح يفكر : ألا يمكنه أن يفعل شيئا بحيث

يدفعهما للاهتمام ببعضهما البعض ؟ ولكنه فضل عدم التدخل فى هذه الأمور . وعندما سمع بيل تقول ذات يوم ان العصارات بدأت تموج في كل من كيزى ونوح اللذين يعيشان عن كثب فى صف أكواخ العبيد اخذ يطلب من الله العون لكى تتخذ الأمور مجراها الطبيعى بالزواج بينهما .

ولدى أقتراب كونتا من باب كوخه ذات يوم ترامى الى سمعه بطريق الصدفة صوت بيل وهى تتحدث مع كيزى وتقول لها « استمعى الى يا ابنتى . اذا سمعت عنك أنك تترددين الى ذلك الولد الذى يسمى نوح مرة أخرى فاننى سأبادر الى معاقبتك فورا .. ان عمرك لم يصل بعد الى السادسة عشرة . وماذا سيقول والدك اذا علم بهذه التصرفات التى تقومين بها ؟ » .

وعلى مدى الأسابيع التالية بدأ كونتا يلاحظ ان كلا من نوح وكيزى يومئان بالتحية ويبتسمان لبعضهما البعض صراحة امام جميع الناس الآخرين وهو أمر لم يكن يحدث بينهما من قبل . ولكنه كان واثقا من أنهما يتميزان بالشرف وقوة الشخصية .

وفى أوائل الربيع اتجه نوح نحو كونتا الذى كان واقفا بجوار الحظيرة وقال بدون تردد « انك الشخص الوحيد فى المزرعة الذى أشعر نحوه بالثقة . وقد رأيت أن أفضى بسرى لشخص ما فاخترتك أنت : اننى قررت الهرب » . فأصيب كونتا بذهول شديد حتى أنه لم يعرف ماذا يقول . فوقف فى مكانه محملقا فى نوح .

وأخيرا عثر كونتا على بعض الكلمات فقال « اننى لا أوافق على أن تهرب كيزى معك الى أى مكان » .

« اننى لا أريد أن أعرضها للمتاعب » .

فأحس كونتا بالخجل من نفسه . وبعد برهة قال ( اننى أعتقد ان كل شخص يجىء عليه وقت يحس فيه بالرغبة فى الهرب ) .

فتفحصت عينا نوح عينى كونتا وقال ( لقد قالت لى كيزى أن بيل قالت لها أنك حاولت الهرب أربع مرات ) . فأوما كونتا برأسه وتزاحمت على ذهنه الصور المختلفة عندما كان فى نفس سن نوح حيث كانت فكرة الهرب تسيطر عليه فى الحاح مستميت . وخطر على ذهنه أن كيزى سوف تتحطم تماما لدى اختفاء حبيبها فجأة خاصة وأنها قد سبق لها أن صدمت صدمة قوية لدى انهيار الصداقة الوطيدة بينها وبين الفتاة التوبوبية . واعتقد أن صدمتها

الثانية ستكون أمرا لا مفر منه · كما اعتقد أنه ينبغي عليه ان يتوخى الدقة فى اى كلام يقوله لنوح ·

واخيرا قال كونتا فى وقار شديد : « اننى لا أنصحك بالهرب أو عدم الهرب · ولكنك اذا كنت غير مستعد لمواجهة الموت فى حالة الامساك بك فان هذا معناه أنك غير مستعد للهرب »

فقال نوح « لقد وضعت خطتى بحيث لا أقع فى قبضتهم · وقد سمعت أن أهم شيء هو اتباع النجم الشمالى · كما يوجد هناك العديد من الكويكرز والزنوج الاحرار الذين يساعدون الهاربين ويخفونهم لديهم فى أوقات النهار · وبمجرد أن يصل الشخص الهارب الى ولاية « أوهايو » فانه يصير حرا طليقا ·

وراح كونتا يفكر : ان معلومات نوح قليلة للغاية · لان الهرب ليس أمرا يسيرا الى هذا الحد · كما انه لم يذهب من قبل الى أى مكان بعيد عن مزرعته ، شأنه فى ذلك شأن معظم عمال الحقول · وهذا هو السبب فى أن معظم الهاربين من عمال الحقول سرعان ما يتم القاء القبض عليهم بعد أن يتعرضوا للموت جوعا بين الاحراش والاشواك والمستنقعات المليئة بالحيات والثعابين السامة · وتتابعت على ذهن كونتا صور عن الجرى والهرب والبنادق والكلاب والسياط والفأس ·

فقال بصوت أجش « أيها الولد · انك لاتعرف ما تتحدث عنه !! » وقد أحس بالاسف بمجرد ان نطق بهذه الكلمات · فاستدرك قائلا « أقصد أن أقول لك ان الامر ليس بالسهولة التى تتصورها · أتعرف أى شيء عن كلاب الصيد التى يستخدمونها فى الامساك بالهاربين ؟ » · وعندئذ انسلت يد نوح اليمنى الى جيبه واستل سكينا وضغط على زر فامتد نصلها · وكان النصل لامعا وحادا · ثم قال « أعتقد ان الكلاب الميتة لا تعض أحدا » وكان كاتو قد وصف كونتا بأنه شخص لا يعرف الخوف على الاطلاق · واستطرد نوح « اننى لن أدع أى شيء يعوق تقدم مسيرى » ثم أغلق سكينه وأعادها الى جيبه ·

فقال كونتا « حسنا ! اذا كنت مصمما على الهرب فتوكل على الله » فقال نوح « اننى لا أعرف بالضبط متى أهرب · وكل ما أعرفه هو أنه يجب على أن أهرب »

فقال كونتا مؤكدا « ولكن يجب الا تورط كيزى معك فى هذا الشأن » . فقال نوح « أؤكد لك أننى لن أورطها معى ولكننى عندما اصل الى الشمال سأجتهد في العمل واقتصد النقود لكى اشترى حريتها » والتقط انفاسه .. ثم استطرد « أستقول لها شيئا عن هذا الموضوع ؟ »

فتردد كونتا بعض الشيء وقال أخيرا « هـذا الامر يكون بينك وبينها » فقال نوح « سأقول لها فى الوقت المناسب » .

وفي تهور واندفاع أمسك كونتا بيد نوح ووضعها في يديه وقال « آمل أن تحقق هذه المعجزة » .

فقال نوح « حسنا ! الى اللقاء » واستدار عائدا نحـــو صف أكواخ العبيد .



## ٨٢

وبعد انقضاء اسبوع على عيدميلاد كيزى السادس عشر وفىصباح يوم الاثنين الاول من شـــهر اكتوبر وبينما كان العبيـــد يجتمعون كالمعتاد من أجل الذهاب الى عملهم اليومي بالحقول ، تساءل أحد العبيد فى تعجب : « أين نوح ؟ » وتصادف أن كان كونتا واقفا عن كثب يتجاذب اطراف الحديث مع كاتو فأدركعلى الفور أن نوح قد هرب . ورأى رؤوس الناس وهى تحملق فيما حولها ورأى كيزى تحملق هى الاخرى مع الآخرين وادرك ان كيزى تبذل جهودا لكى تبدو عليها هى الاخرى علامات الدهشة البالغة وتقابلت عيناه مع عينى كيزى فاضطرت لان تشيح بوجهها بعيدا . وراح كاتو يدق بقبضة يده على باب كوخ نوح المغلق، وهو نفس الكوخ الذى كان يشغله من قبل الجناينى العجوز ثم ورثه نوح مؤخرا لدى وصوله الى سن الثامنة عشرة . وهز كاتو باب الكوخ فى عنف الى أن انفتح على مصراعيه وخرج من الكوخ وقال « لا يوجد له أثر » ثم أمر جميع العبيد بالانطلاق بسرعة وتفتيش جميع الاكواخ ودورات الميـــاه والمخازن والحقول .

وانطلق جميع العبيد فى كل الاتجاهات وتطوع كونتا بالبحث في الحظيرة وراح ينادى بأعلى صوته « نوح · نوح » لكى يسمعه الآخرون رغم أنه كان يعرف بالطبع أنه لا داعى للبحث عنه ·

وفى قلق شديد أمر كاتو عمال الحقـــل بالذهاب الى عملهم واخبرهم أنه هو وعازف الكمان سيلحقان بهم بعد فترة قصيرة · وكان عازف الكمان قد تطوع للعمل في الحقل نظرا لان ايراده من العزف في الحفلات قد تناقص كثيرا · وهمس عازف الـــكمان قائلا لكونتا وهما واقفان فى الفناء الخلفى « انني أعتقد أنه قد هرب بالفعل » وبعدئذ قالت بيل « انه لم يسبق له أن تغيب فى أى وقت ولم يسبق له أن انسل خارجا بالليل لبضع ساعات كما يفعل غيره من العبيد » ·

وتقرر ان تخبر بيل السيد وولر بما حدث عقب تناوله طعام الافطار · وانتظرت بيل لحين تناوله فنجانه الثانى من القهوة ·

وابتلعت ريقها في تلعثم « سيدى ، سيدى · لقد طلب منى كاتو أن أخبرك أن ذلك الولد الذىيسمى نوح غير موجودفى صباح هذا اليوم ! »

فوضع السيد فنجان القهوة · وظهر عليه التجهم وقال « اذن أين يوجد ؟ · أتحاولين أن تقولى لى أنه سكران فى مكان ما أو واقع فى بعض المتاعب فى مكان ما وانه سيتمكن من العودة اليوم أم أنك تحاولين أن تقولى لى انه قد فر هاربا ؟ »

فارتجفت بيل وقالت « اننا جميعا نقول انه غير موجود هناك وقد بحثنا بأنفسنا فى كل مكان » ·

فراح ينظر فى تامل فى فنجان قهوته ثم قال « سأعطيه مهـلة حتى حلول الظلام في هذه الليلة ـ لا · سأعطيه مهلة حتى صباح الغد · وبعدئذ سأتخذ اجراءاتى » · ثم استطرد « واذا اتضح لى انه قد حاول الهرب فسأجعله يندم على ذلك طوال حياته » · ثم انطلقت بيل نحو الفناء واخبرت الآخرين بما قاله السيد · ولكن ما ان ذهب كل من كاتو وعازف الكمان الى الحقول حتى استدعى السيد وولر بيل مرة أخرى وطلب العربة ·

وطوال ذلك كان كونتا يموج بالسعادة أثناء قيادته العربة تنقل السيد من مكان لآخر لعلاج المرضى كما أدرك ان نوح قد انطلق الى الشمال · الا أنه كان يتعرض من وقت لآخر للاكتئاب الاسود كلما فكر فى الاشواك والكلاب والسياط · وأحس أن كيزى تعـــانى بالتأكيد من انفعالات مماثلة ·

وعندما تجمع العبيد فى مساء ذلك اليوم راح كل شخص يتحدث صراحة وبصوت مرتفع . فقالت العمة سوكى « لقد هرب ذلك الولد بالفعل . فقد لاحظت ان التصميم على الهرب يشع من عينيه في الآونة الاخيرة » .. وقالت الممرضة ماندى » انه ليس من النوع الذى ينسل الى مكان ما لاحتساء الخمر وانا متــــأكدة من ذلك » وكانت آدا أم نوح مبحوحة الصوت نتيجة لبكائها المتواصل طوال اليوم « أؤكد لكم أن ابنى نوح لم يتحدث معى مطلقا عن رغبته فى الهرب . يا الهي ! اتعتقدون أن سيدى سيبادر الى بيعه ؟ » ولم يجرؤ أحد على الرد على تساؤلها .

وعندما جاء صباح الثلاثاء بدون ظهور أى أثر لنوح أمر السيد وولر كونتا بتوصيله بالعربة الى مقر الولاية ثم ذهب مباشرة الى سجن سيتسلفانيا . وبعد نصف ساعة خرج ومعه الشريف وأمر كونتا فى جفــاء بربط حصان الشريف خلف العربة والانطــلاق الى المنزل ثم قال « نحن سنوصل الشريف الى منطقــة « طريق كريك » وراح الشريف يتحـــدث منذ بدء انطلاق العربة « لقد تزايدت حالات هرب الزنوج فى هذه الايام ... ونحن نجـــد صعوبة فى تعقبهم واقتفاء أثرهم .... وبعض الزنوج يفضلون الهرب الى الغابات لانهم يخشون من بيعهم وارسالهم للعمل فى الجنوب » .

فقال الســيد وولر « اننى لا أبيع أى عبد من عبيدى الا فى حالة خرق القوانين التى وضعتها لهم . وهم يعرفون ذلك جيدا »

فقال الشريف « ولكنك تعــرف أن الزنوج نادرا ما يقدرون الاســياد الممتازين من أمثالك يا دكتور . لقد قلت لى أن ذلك الولد الهارب يبلغ من العمر ١٨ عاما . حسنا !! اننى أعتقد أنه قد حاول الوصول الى الشمال شأنه فى ذلك شأن معظم عمال الحقول الذين هم من نفس هـــذه السن » وأحس كونتا بتصلب جسده . واستطرد الشريف « والزنوج الذين يعملون فى الحقول عادة لا ينجحون فى الهرب وهذا بعكس الزنوج الذين يعملون فى المنازل . فزنوج المنازل ينجحون فى كثير من الاحيان لانهم يتصفون باللباقة فى الحديث والثبات والرزانة ويدعون أنهم زنوج محررون أو يخبرون الدوريات على الطرق أنهم مكلفون بانجاز مهمات لأسيادهم وضاعت منهم تصاريح السفر ويدعون أنهم سيستخرجون بدل فاقد من ريتشموند أو من أى مدينة أخرى كبيرة حيث يمكنهم

التخفى بسهولة بين الاعداد الهائلة من الزنوج فى المدن بل وقد يلتحقون ببعض الاعمـــال والمهن » . وتوقف الشريف عن الكلام للحظات ثم استطرد « هل هذا الولد الهـــارب له أقارب آخرون غير والدته التى تعيش معه عنـدكم موجودون فى أماكن أخـــرى بحيث يمكن القول أنه حاول الهرب للذهاب اليهم ؟ »

« ليس له أقارب فى أى مكان »

« حسنا ! هل ترامى الى علمك أنه سبق له التعرف على فتاة فى مكان ما نظرا لان هؤلاء التيوس الصغار عندهم شبق يدفعهم أحيانا الى ترك العمل فى الحقول والانطلاق وراء نزواتهم ؟ »

فقال السيد « اننى أعرف عنه انه لم يتعرف على أى فتاة خارج مزرعتى . الا انه توجد فتاة عندى وهى ابنة الطـــاهية فى منزلى وتبلغ من العمر خمسة عشر عاما أو ستة عشر عاما . ولكننى لا أعرف مدى ماوصلت اليه العلاقة بينهما .

وكاد كونتا يلفظ انفاسه الاخيرة .

فضحك الشريف بصوت مدو وقال « لقد سمعت أن الفتـــاة الزنجية تمارس الجنس وتظهر عليها أعراض الحمـــل وهى فى سن الثانية عشرة ، وكثير من الفتيات الزنجيات فى هذه السن يقمن علاقات مع الرجال البيض ومع الفتية الزنوج » . فقال السيد وولر « اننى لا أتصل كثيرا بعبيدى . ولذلك فأنا لا اعـــرف شئونهم الشخصية ولا أهتم بمعرفتها » ثم استطرد « ويجب ان تضع فى اعتبارك ايضا ان ذلك الولد ربما يكون قد انسل بعيدا لمقابلة فتاة فى مزرعة أخرى .. وربما يكون قد تشـاجر فى مكان ما وسقط جريحا بين الحياة والموت . بل وربما يكون قد سرقه أحد البيض الافاقين الفقراء الذين يسرقون الزنوج . وهذا الامر يحدث كثيرا هنا كما تعرف .. ويشترك فى عمليات السرقة هذه بعض تجار العبيد الذين لا ضمير لهم » .

وبدأ الشريف يظهر مزيدا من الاهتمام بالموضوع فتســاءل : « أقلت لى أنه قد ولد فى مزرعتك ولم يسافر كثيرا ؟ » فقال السيد « أعتقد أنه لايعرف الطريق الى رتشموند وبالتالى فانه يتعذر عليه الوصول الى الشمال » .

فقال الشريف : « ومـع ذلك فالزنوج يزودون بعضهم البعض بالمعلومات . فقد سبق لنا الامساك بزنوج هاربين وضربناهم الى

أن اعترفوا ان لديهم في عقولهم خرائط توضح الاماكن التى ينبغى عليهم السير فيها بسرعة .وكذلك الاماكن التى ينبغى عليهم التخفى فيها . كما أن الكويكرز والبروتستانت يساعدون الكثير من الهاربين ولكن نظرا لان هذا الشاب لم يسبق له الذهاب الى اماكن بعيدة فانى اعتقد انه سيعود رغم أنفه بعد ان يتعرض للهـــلاك بسبب الجوع والرعب .. خاصة أن الزنوج لايستطيعون مقاومة الجوع الشديد . وهذا سيوفر عليك مصاريف النشر فى الجـــازيت أو استئجار بعض الناس المتخصصين فى القبض على الزنوج الهاربين واعتقد انه ليس من أولئك الزنوج الهاربين المتوحشين الذين يجوبون المستنقعات والغابات فى هذه الايام ويقومون بقتل الماشية والخنازير بنفس السهولة التى يقتلون بها الارانب » .

فقال السيد وولر « آمل ذلك . ولكن مهما كان الامر فانه قد خرق القوانين التي وضعتها لانه غادر المزرعة بدون تصريح كتابى منى . ولذلك فسأبيعه بمجرد العثور عليه لكى يواجه مصيره المحتوم ويصدر للعمل في الجنوب » فاعتصرت قبضتا كونتا اللجام بعنف شديد حتى أن أظافره غاصت فى راحتى يديه . وقال الشريف : « وها أنت ذا الآن لديك مبلغ يتراوح من ١٢٠٠ و ١٥٠٠ دولار يجرى فى حرية من مكان لآخر بدون رقابة عليه » واستطرد « لقد كتبت لى أوصافه . وسأقوم بابلاغ أوصافه الى الدوريات على الطرق واذا أمسكنا به ـ أو سمعنا عن أى معلومات عنه ـ فسأبلغك على الفور »

وفى صباح يوم السبت عقب تناول طعام الافطار ، وبينما كان كونتا يمشط وينظف حصانه خارج الحظيرة ، خيل اليه انه سمع الصفارة التى يطلقها كاتوكلما شاهد شخصاغريبا قادما الى المزرعة وعندما أرهف السمع ترامى الى أذنه صوت الصفارة مرة أخرى ، فربط الحصان بسرعة فى عمود قريب وانطلق بسرعة عائدا الى كوخه ليرقب الطريق من النافذة الرئيسية . وادرك أن الصفارة قد نبهت أيضا كلا من بيل وكيزى الموجودتين فى المنزل الكبير فى تلك الآونة .

ثم رأى العربة وهى تتدحرج على الطريق الفرعى ورأى الشريف وهو يقود العربة بنفسه فتملكه الرعب الشديد .

رحمتك يا الهى : هل تم القبض على نوح ؟ وشاهد الشريف وهو ينزل من العربة بسرعة . وخطر على ذهنه أن يسارع بالخروج من الكوخ لكى يقوم برعاية حصان الشريف وتقديم العلف والماء له

علاوة على تدليله · الا أنه أحس كأنه مشلول الحركة فظل متجمدا في مكانه وشاهد الشريف وهو يصعـــد الدرج الرئيسي للمنزل الكبير بسرعة خاطفة ·

وبعد دقائق قليلة رأى بيل وهي تنطلق متعثرة من البـــاب الخلفي قادمة نحوه فتملكته أحاسيس الرعب حتى قبل أن تصل بيل الى كوخها وتندفع الى الداخل في عنف ·

وكان وجهها متهدلا ومنغمرا في الدموع وهي تصرخ قائلة : « الشريف والسيد يتحدثان الآن مع كيزى » · وذهل كونتا وظل محملقا في شرود دون أن يصدق أذنيه · ولكنه بعد لحظات أمسك بها وراح يهزها في عنف وقال « ماذايريد الشريف ؟ »

فأرتفع صوتها المخنوق المتهدج وقالت له انه بمجرد دخـــول الشريف الى المنزل صرخ السيد مناديا على كيزى وأمرها بترك تنظيف غرفته بالدور العلوى والحضور اليه فورا · « وعنـــدما سمعت صوته المدوى أثناء وجودى في المطبخ سارعت الى الذهاب الى منتصف غرفة الجلوس لكى أستمع الى ما يقال ولـــكنى لم أسمع الكلام بوضوح وكل ما أدركته أنه كان ثائرا الى حد الجنون » ثم شهقت بيل وابتعلت ريقها واستطردت « وبعدئذ سمعت صوت الجرس الذى يدقه السيد لاستدعائى فاسرعت عائدة الى المطبخ حتى يبدو الامر كأننى آتية من المطبخ ·· الا ان السيد كان واقفا في المدخل وممسكا بيد الاكرة خلفه · ونظر الى نظرات شرسة وأمرنى في برود شديد بالخروج من المنزل تماماً والبقاء بعيدا لحين استدعائى» ثم سارعت بيل نحو النافذة الصغيرة وحملقت نحو المنزل الكبير وهي لاتكاد تصدق ان ما قالته توا قد حدث بالفعل · وتســاءلت في جنون « يا الهى : ماذا يريد الشريف من ابنتى ؟ » ·

وكان كونتا يبحث في ذهنه بجنون عن الاجراء الذى ينبغى عليه أن يفعله · هل ينبغى عليه أن يندفع الى الحقول لينبه العبيد القائمين بالعمل هناك ؟ الا أنه أحس بغريزته أنه لامفر من المصير الذي سيحدق به ·

وذهبت بيل الى غرفة نومها حيث توجد صورة للسيد المسيح وراحت تتضرع اليه بأعلى صوتها · واراد كونتا أن يقول لها أنه حذرها مرارا على مدى أربعين سنة من أخلاق جميع التوبوب وانها ترى الان نتيجة ايمانها بطبيعة السيد وولر الذى ضللها وخدعها

طوال هذه السنين . ثم صرخ فيها فجأة « ارجعى الى المنزل الكبير » فانطلقت خارجة من الكوخ ، وراح كونتا يرقبها الى ان أختفت في داخل المطبخ . ماذا ستفعل هى ؟ وانطلق هو الآخر مهرولا وراءها وراح يحملق من خلال الباب ذى الاسلاك . فوجد المطبخ شاغرا فدخل من الباب فى هدوء وسار على أصابع قدمه عبر المطبخ . ووضع احدى يديه على الباب الداخلى واليد الاخرى على أذنه محاولا التقاط أى صوت ، الا أنه لم يسمع سوى أنفاسه اللاهثة .

وبعدئذ سمع صـــوت بيل وهى تنادى بصـــوت منخفض : « سيدى ؟ » ولم يسمع ردا على ندائها . فنادت مرة أخرى فى مزيد من الحدة والوضوح « سيدى ؟ » وبعدئذ سمع صوت فتح غرفة الجلوس .

« أين ابنتى كيزى يا سيدى ؟ »

فرد عليها فى قسوة « انها فى الحفظ والصون عندى . لأننا لن نسمح بهروبها هى الاخرى » .

فقالت بيل بصـــوت منخفض حتى أن كونتا لم يســـمعها الا بصعوبة : « اننى لا أفهم ما تقصد اليه يا سيدى . فهذه الطفلة لم يسبق لها أن ذهبت الى ما هو أبعد من فناء منزلك » . وبدأ السيد يقول شـــيئا ما .. الا أنه قطع كلامه . ثم قال « تحتمل ألا تكون لديك فكرة عما فعلته ابنتك . فالولد نوح قد تم القاء القبض عليه ولكنه قاتل فى شراسة بالغة اثنين من رجال البوليس وطعنهما طعنات قاتلة بالسكين لانهما قالا ان تصريح سفره مزور وبعد التغلب عليه بالقوة وتعذيبه اعترف اخيرا أن التصريح لم يتم كتابته بمعرفتى وانما بمعرفة ابنتك . وقـــد اعترفت ابنتك بذلك أمام الشريف » .

وساد الصمت للحظات طويلة كأنها سكرات الموت . ثم سمع كونتا صرخة تلتها وقع أقدام مهرولة . وخرجت بيل فى اندفاع شديد فجرى كونتا وراءها ولحق بها عند باب كوخها .

وصرخت بيل قائلة « سيبيع السيد كيزى » فأحس كونتا كأن شيئا ما انفجر فى داخله . واختنق صـــوته وهو يصرخ قائلا : « سيأخذها !! » وانطلق عائدا نحو مطبخ المنزل الكبير بأقصى سرعته وبيل تعدو وراءه على مسافة غير بعيدة . وفتح كونتا الباب الداخلى فى غضب جنونى وهجم نحو الطرقة المؤدية للصالة .

وأدار السيد والشريف وجهيهما فى ذهول وهما لا يكادان يصدقان ما يشاهدانه : حيث انفتح باب غرفة الجلوس فى عنف وتوقف كونتا هناك فجأة بينما الاجرام يشع من عينيه كاللهب.
وصرخت بيل الواقفة خلفه « أين ابنتنا ؟ لقد جئنا لنأخذها »

وشاهد كونتا يد الشريف تنزلق نحو جراب بندقيته بينما ماج السيد بالغضب وصرخ قائلا .. أخرجا من هنا » . وقال الشريف وهو يسحب مسدسه « ألا تسمعان أيها الزنجيان ؟ » وتهيأ كونتا للانقضاض على المسدس ولكنه سمع فى نفس اللحظة صوت بيل المرتجف خلفه « سيدى » وأحس بها وهى تجذب ذراعه فى استماتة للخلف ثم شعر بقدميه تتحركان للخلف الى أن خرج من الباب . وبعد أن خرج هو وبيل سمع صوت الباب يغلق بالمفتاح ..

وجلس كونتا القرفصاء فى الصالة غارقا فى عاره والى جواره جلست بيل . ثم ترامى الى سمعها نقاش حاد مكتوم بين السيد والشريف .. ثم سمعا أصوات أقدام تتحرك وتقاوم وتصارع فى ضعف .. ثم صراخ كيزى .. وصوت الباب الامامى الرئيسى لدى اغلاقه فى عنف ..

وصرخت بيل « كيزى . كيزى . كيزى . طفلتى . يا الهى ! أيها السيد المسيح ! لا تدعهم يبيعون كيزى ابنتى .. » وعندما اندفعت فى جنون خارجة من الباب الخلفى - وكونتا وراءها - مولولة بأعلى صوتها وصلت صرخاتها المدوية الى العبيد فى الحقول فهبوا عائدين بأقصى سرعة . ووصل كاتو فى الوقت المناسب وشاهد بيل وهى تصرخ وتقفز وتسقط على الأرض ويسقط معها كونتا .. وكان السيد وولر عندئذ يهبط الدرج ووراءه الشريف الذى كان يجر كيزى من سلسلة طويلة .. وكانت كيزى تبكى وتجذب نفسها للخلف . وراحت كيزى تصرخ فى جنون « آماه . آماه . آماه . آماه » .

قفز كل من بيل وكونتا من فوق الارض وانطلقا فى هياج جنونى نحو الشريف كأنهما أسدان يتحفزان للهجوم الوحشى . فسحب الشريف بندقيته وصوبها نحو بيل : فتوقفت فى مكانها . وحملقت فى ذهول فى كيزى وسألتها : « هل فعلت هذا الذى يقولونه ؟ » واخذ الجميع يرقبون لوعة كيزى الشديدة بينما عيناها الحمراوان الباكيتان تقدمان الاجابة الصامتة أثناء انتقال نظراتها فى توسل ما بين بيل وكونتا والشريف والسيد الا أنها لم تقل شيئا .

وعندئذ صرخت بيل ( يا الهى · يا الهى · رحمتك يا سيدى فهى لم تكن تعنى ذلك· انها لم تكن تعرف ماذا تفعل ! فالآنسة آن هى التى علمتها الكتابة ! ) · فقال السيد وولر فى برودة الثلج: القانون هو القانون · وهى قد خرقت قوانيني · لأنها ارتكبت اثما وكان من المحتمل أن تؤدى مساعدتها لنوح الى وقوع جريمة قتل · ولقد قيل لى ان أحد هذين الرجلين الابيضين يحتضر الآن بين الحياة والموت »

« انها ليست هى التى طعنت الرجل ، يا سيدى · انها قد عملت فى خدمتك منذ الصغر · وأنا قمت بالطبخ وتقديم الطعام لك فى اخلاص على مدى أربعين عاما » ثم أشارت الى كونتا وقالت فى تلعثم ·· وهو يقود عربتك فى كل مكان منذ أربعين عاما · أليس لكل هذه الأعمال قيمة تذكر ؟ أليست هذه الخدمات سببا كافيا يدفعك للعفو عن كيزى ؟ » ·

فقال السيد وولر وهو لا ينظر الى بيل نظرات مباشرة ، « لقد كنتم تؤدون عملكم · أما هى فسيتم بيعها ، وهذا هو كل ما فى الأمر » ·

فصاحت بيل « الناس البيض المنحطون السفلة المحتقرون هم فقط الذين يشتتون العائلات » واستطردت « وأنت لست مثل هؤلاء الناس »

فغضب السيد وولر ولوح الشريف بيده فبادر الى جذب كيزى فجأة وبعنف نحو العربة · فوقفت بيل ما بين الشريف وكيزى لتحول بينهما وقالت صارخة « اذن فليتم بيعي وبيع والدها معها · لا تفرقوا أسرتنا » · فصرخ الشريف بصوت كنباح الكلب « ابتعدى عنا » ودفع بيل جانبا ·

فزأر كونتا وقفز للامام كالفهد وهجم على الشريف بضربة قوية ألقته أرضا · فصرخت كيزى « أنقذنى يا والدى » فأمسكها من وسطها وبدأ يجذب سلاسلها فى جنون ·

ودوت رصاصة من مسدس الشريف بجوار أذن كونتا فأحس كونتا برأسه يكاد ينفجر وسقط على ركبتيه · فهجمت بيل على الشريف الا أنه لطمها بضربة قوية أفقدتها التوازن فوقعت على الارض ثم أمسك الشريف بكيزى وألقاها فى مؤخرة عربته وأغلق سلسلتها فى العربة بالقفل · ثم قفز فى خفة فوق مقعد القيادة وضرب الحصان بالسوط فى عنف فسارت العربة فى ترنح فأمسك كونتا بالعربة

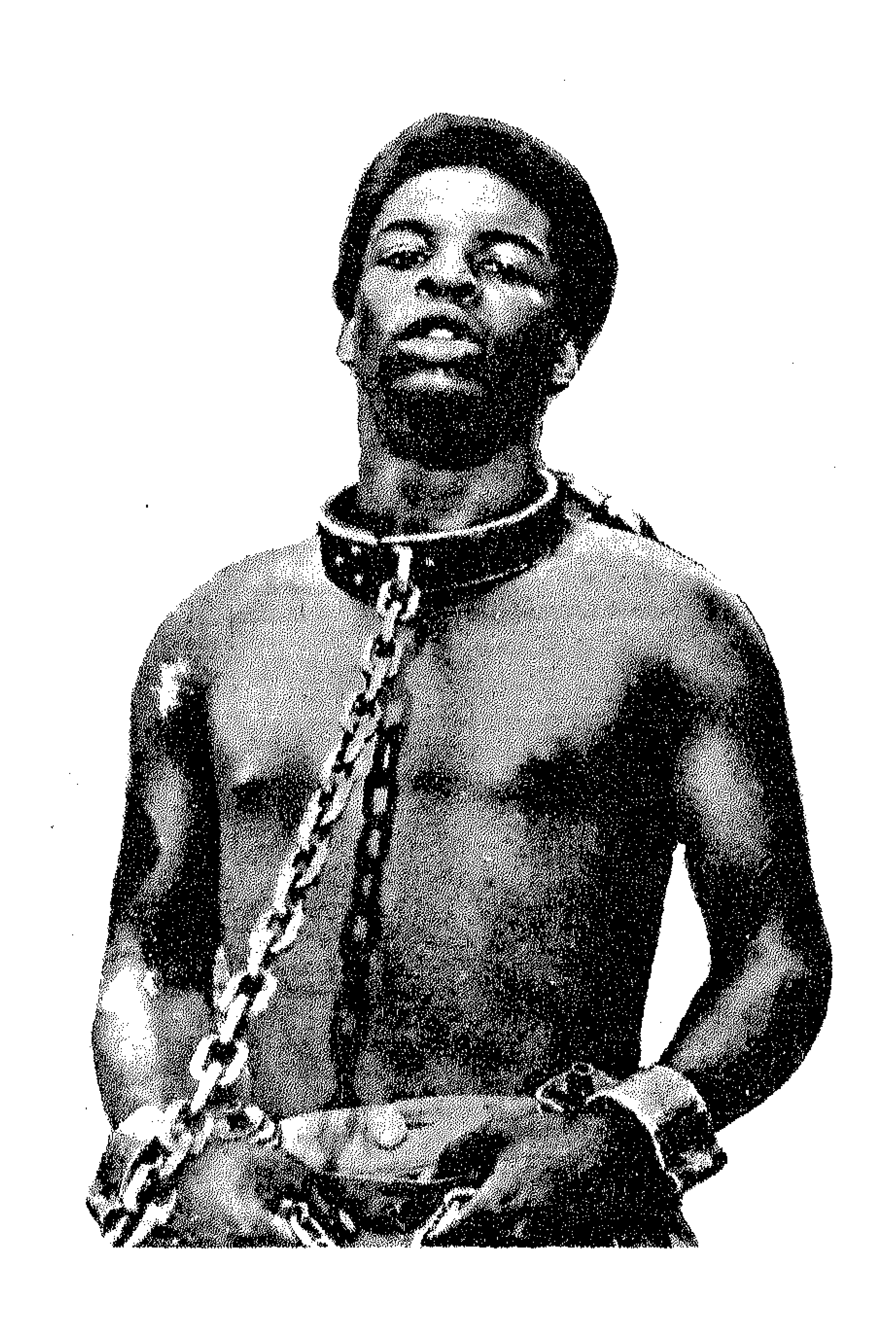
محاولا تسلقها وراح يجرى وراءها لمسافات طويلة وهو فى ذهول عميق ، الى أن أخذت العربة سرعتها فانطلقت بأقصى سرعة ٠

وكانت كيزى تصرخ بأعلى صوتها « صديقتى آن ٠٠ صديقتى آن ٠٠ صديقتى آن » وكانت صرخاتها تدوى فى تتابع مستمر وبدت الصرخات كأنها قد تعلقت فى الهـــواء خلف العربة المنطلقة بأقصى سرعة فوق الطريق الفرعى متجهة نحو الطريق الرئيسى ٠

وعندما بدأ كونتا يتعثر ويشهق فى أنفاس لاهثة كانت العربة قد ابتعدت عنه بمسافة نصف ميل ٠ وعندما توقف عن الجرى ظل فى مكانه لفترة طويلة يتابع العربة الى أن اختفت تماما واختفى معها التراب المثار حولها وأصبح الطريق خاليا تماما من أى أثر بقـدر ما تسمح عيناه من رؤية ٠

واستدار السيد وولر وأسرع عائدا الى منزله وهو منكس الرأس ومر أثناء سيره بجوار بيل التى كانت متكومة عنـد أسـفل الدرج الأمامى ومنخرطة فى البكاء ٠

وبينما كان كونتا يسير فى عرج عائدا فى بطء شديد على الطريق الفرعى كما لو كان يسير فى حلم ،وردت على ذهنه كالوميض خواطر افريقية فانحنى بالقرب من المساحة الموجودة أمام المنزل الكبير وراح يحملق على الارض فيما حوله ٠ وبعد أن حدد آثارأقدام كيزى الحافية فوق التراب قام بكشط التراب الذى يحمل آثار أقدامها وملأ يديه به وعاد الى الكوخ : فقد قال الأجداد القــدماء أن الاحتفـاظ بالتراب الغالى فى مكان أمين من شأنه أن يضمن عودة كيزى الى نفس المكان الذى انطبعت عليه آثار أقدامهما ٠ وراح يتفحص بعينيه جميع أرجاء الكوخ فوقع بصره على قرعته الجافة المليئة بالزلط والموجـودة فوق الرف ٠ فقفز نحو الرف وقبل أن يفتح يديه الممسكتين بالتراب لكى يسقطه فى القرعة الجافة هبطت عليه فجاة الحقيقة المروعة : لقد ذهبت معبودته كيزى للأبد وهى لن تعود ٠ ولن يتمكن من رؤيتهـا مرة أخرى ٠ فتهدل وجه كونتـا فى التـواء ٠ وألقى بالتراب نحو سقف الكوخ ٠ وانفجرت الدموع منعينيه مدرارا ٠٠ وجذب قرعته الجافة الثقيلة لأعلى فوق رأسه وفتح فمه فى صرخة لا صوت لها ثم ألقى بالقرعة الجافة على الارض بكل ما لديه من قوة ، فتحطمت على أرضية الكوخ الصلبة وتطايرت منها الـ ٦٦٢ زلطة التى تدل على أن عمره قد صار خمسة وخمسين عاما ٠



# قصـــة الرق والرقيق فى أمريكا

بقلم عبد الحميد الكاتب

● الفصل الاول ●

## أكبر تجارة رقيق فى العالم

أكبر تجارة رقيق عرفها التاريخ كانت بين أفريقيا وأمريكا، فقد بلغ حجم هذه التجارة ملايين وملايين من الصبية والبنات ، ومن الرجال والنســاء ، نقلتهم الســفن من قــرى افريقيا وادغالها ، الى شواطىء امريكا ومزارعها ، على مدى ثلاثة أو ما يقرب من أربعة قرون ·

وأكثر المؤرخين تحفظا قدروا عدد الرقيق الذين استجلبتهم امريكا من أفريقيا بخمسة ملايين ، ومنهم من قدروهم بعشرة ملايين ، ومنهم من قالوا انهم لا يقلون عن خمســة عشر مليــونا من البشر ·· هذا ما وصل الى الشواطىء الامريكية ، ويضاف اليهم اعداد ضخمة هلكت فى الطريق ، وألقيت جثثهم فى المحيط ·

وأكثر من اشتغل بتجارة الرقيق كانوا من الانجليز ، فقد كانت معظم الســفن التى حملت أفواج الــرقيق عبر المحيط تحمل العــلم الانجليزى ، وكان من الانجليز من تخصص وبرع فى شراء الزنوج من رؤساء القبائل مقابل كميات من المنسوجات والخمر والبنادق ، أو فى صيد الزنوج وخطفهم اذا كانوا صــغارا لا يفــرط فيهم آباؤهم وأمهاتهم ·

ولكن الانجليز لم يكونوا أول الاوربيين في تجارة الرقيق ، فقد سبقهم الى هذا البرتغاليون والاسبان والهولنديون ، عندما كانت بلادهم هي القوى البحرية الاولى فى أوربا ، وكانت سفنهم وبحارتهم يجوبون بحار العالم اكتشافا ، واستعمارا ، وتجارة بما فيها تجارة الرقيق .

وقد بدأت أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى تستوردان الرقيق من قبل ان تستورده امريكا الشمالية التى نعرفها الآن باسم الولايات المتحدة الامريكية .. هـذا لان الاوربيين اسـتعمروا وانتشروا فى الاجزاء الجنوبية من العالم الجديد أولا ، ثم استعمروا وانتشروا بعد هذا فى أجزائه الشمالية .. ولكن تجارة الرقيق مع أمريكا الجنوبية لم تبلغ الحجم الهائل الذى بلغته مع أمريكا الشمالية حيث كان النمو الاقتصادى أوسع وأسرع فكان أكثر حاجة الى اعداد ضخمة من الرقيق .

جاءت أول مجموعة من الرقيق الافريقيين الى أمريكا الشمالية على ظهر سفينة هولندية رست على ميناء فى الجنوب فى ولاية فرجينيا سنة ١٦١٩ . وكان قد نفد ما فيها من طعام خـلال الرحلة الطويلة التى اسـتغرقت أربعة شـهور فى المحيط ، ومازالت أمامها أيام واسابيع حتى تصل الى أرض الجنوب ، فاشترت ما يلزمها من الطعام ودفعت الثمن عشرين رجلا وامرأة ، من « حمولتها » من الرقيق .

كان هذا فى سنة ١٦١٩ .. أى قبل ان تصل السفينة المشهورة « ماى فلاور » الى امريكا بسنة واحدة ، تحمل مجموعة من الاوربيين يعرفون باسم « المتطهرين » .. لانهم طائفة من الرجال والنساء آلوا على أنفسهم أن يعيشوا متطهرين من الرذائل والدنايا ، وأن يسلكوا فى الحياة مسلك التدين وتقوى الله .. وأول التقوى أن يتقى الانسان ربه فى أخيه الانسان !

جاء هؤلاء « المتطهـرون » فى أفواج عديدة يحملون فى قلـوبهم مبادىء اخلاقية ، ودينيـة ، سـامية وشريفـة .. منهـا أن يعتمد الانسان على عمله الشريف بيديه اللتين تنتجان ما يأكل من طعام .. فأخذوا يزرعون الارض فى ولاية نيوانجلند ، حتى اذا جنوا اول محصول منها ، اتجهوا الى الله حامدين شاكرين ، وأخذوا يحتفلون كل عام .. ومازالت أمريكا كلها تحتفل كل عام .. فى موسم الخريف بيوم الشكر لله .

هؤلاء « المتطهرون » يرتلون آيات من الانجيل ويتلون الصلاة كلما جلسوا الى مائدة الطعام وكلما نهضوا منها .. انهم كانوا يفعلون هذا هم وزوجاتهم وأولادهم وبناتهم وكانوا يبدأون يومهم في الصباح الباكر بالصلاة ، ويختمون يومهم من العمل الجاهد بالصلاة ، ويتجهون الى الكنيسة يوم الاحد يستمعون المواعظ ويرتلون الاناشيد ويؤدون الصلاة ..

وكانوا في معاملاتهم مثلما كانوا في عباداتهم ، ناسا أمناء ، شرفاء ، رحماء ..

وهؤلاء المتطهرون هم الذين رسموا ، وأرسوا ، المبادىء الاخلاقية والدينية التى يريدون أن يسير عليها المجتمع الجديد ، في هذا العالم الجديد : أمريكا .

فكيف تحول هؤلاء المتدينون المتطهرون ، هؤلاء الاتقياء الورعون.. أو على الاصح كيف تحول أولادهم ، ومن هاجر في أعقابهم أولا الى ناس أسلبوا الهنود الحمر أرضهم ، ثم طاردوهم وحاربوهم حتى أوشكو على الفناء ، ثم اتجهوا الى السود فصاروا ملاك رقيق .. يسعون الى امتلاك جنس من البشر ، يسترقونه ويستذلونه ، ويسخرونه في العمل تسخيرا قاسيا ويسلبونه آدميته بكل وسيلة مهينة ، ويحولونه من انسان ولد في وطنه ليعيش حرا ، الى «شيء» يعبثون به وسلعة يتصرفون فيها .. كما يشاءون ؟

كيف امتلأت قلوب بعض هؤلاء الناس وليسوا جميعا ، فقد ظل فيهم الطيبون الرحماء بما امتلأت به من جشع ومن قسوة ، فكانوا يعاملون الرقيق اسوأ كثيرا مما يعاملون الحيوان البهيم .. ضربا بالسياط ، وكيا بالنار ، وبترا لقدم أو ساق !

وليس العبد أو الجارية ما اشترى هذا السيد الابيض من تاجر الرقيق ، وانما أيضا ماينسل هذا العبد أو هذه الجارية بعد هذا من أولاد وبنات ، هم ايضا عبيده ، يسخرهم كما يشاء ، ويبيعهم عندما يريد ، ويفصل بين الام وابنها ، وبين الاب وابنته . ويباع الاخوة والاخوات لعدد من ملاك الرقيق .. فينشأ الزنجي ويشب وهو لايعرف لنفسه أبا ولا أما ولا أخا .. ولا أحدا من الناس .

ويهرب العبيد .. فتتعقبهم « دوريات » من البيض ومعها الكلاب المدربة ، وتقتنصهم ، وتكبلهم بالحبال والسلاسل ، وتجرهم وراء

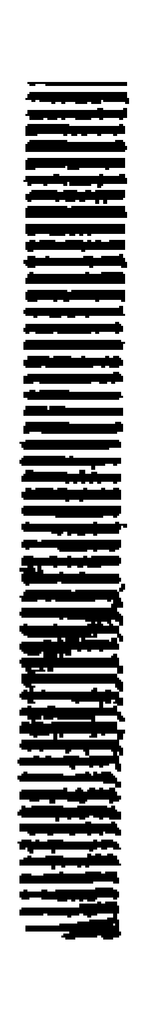
الخيول ، وتعود بهم الى ملاكهم ، فيوقعون عليهم العقاب ،وينزلون بهم العذاب •• مثلما قرأنا ورأينا في قصة « جذور » •

ويثور العبيد ، ويتمردون ويهيجون ، فيتصدى لهم الاسياد البيض بالبنادق ، بينما هم يحملون فروع الاشجار •• وتنتهي المعركة دائما بقتلى وجرحى من السود ، وغالبا ما تنصب المشانق ويعلق فيها « زعماء » المتمردين !

ويثور ضمير كثير من الامريكيين ، وتتجاوب ثورة الضمير مع مصالح اقتصادية كبيرة ، فينادون بالغاء الرق وتحريم تجارة الرقيق •• ثم تندلع حرب أهلية في أمريكا تدوم اربع سنوات ، وتتفكك الولايات المتحدة الامريكية الى « دويلات » صغيرة •• ثم تنتهي الحرب ، ويلغي الرق ، ويحرر الرقيق •• ويكون هذا كله مجرد « قوانين » •• أما الواقع فأن تجارة الرق تتحول الى تهريب ،وواقع الحياة يحول الرقيق الى عبيد مسخرين •• الى أن يظهر من بينهم رجال يقودون حركة التحرير كل بطريقته الخاصة •• ويظهر بين البيض مصلحون ومفكرون ، ورجال دين ورجال سياسة ،فيتصدون للدفاع عن الرقيق ، ويدعون البيض ان يقبلوا ان يعيش السود بينهم جنبا الى جنب •• ولو في الاتوبيس والقطار ، وفي الكنيسة والمدرسة •• وفي المناطق السكنية ايضا ! •• ويبدأ هؤلاء الزنوج في الانتقال من « العبودية » الى « الحرية » •• ولكنها حرية منقوصة الى أن تكون هناك مساواة بينهم وبين البيض في فرص التعلم ، وفرص العمل ، وفي الأجر المتساوى ، وفي شتى حقوق ( المواطنة ) الامريكية مثل المواطنين البيض سواء بسواء •

ان قصة الزنوج في امريكا قصة مروعة •• ولكنها قصة عظيمة •• فقد اثبت الزنوج قدرتهم على « البقاء » •• كما ان ضمير الرجل الابيض ، قد اختفي وراء المصلحة المادية ووراء الغرور البشرى فترة من الوقت ، ولكن لم يمت ، وظل حيا متيقظا ، حتى انتصر أخيرا ••

فلنقرأ القصة في ايجاز في الصفحات القليلة الاتية



● الفصل الثانى ●

# أول من استعمر العالم الجديد

كان الاسبان والبرتغاليون هم أول من استعمر العالم الجديد . وكانت المستعمرات الاولى فى المنطقة الوسطى بين ما يسمى الان بامريكا الشمالية وامريكا الجنوبية ، ربما لأن مناخها كان أقرب الى مناخ بلادهم .. وربما لان كريستوفر كولمبوس الذى أرسله ملك اسبانيا وملكتها احتفالا وابتهاجا بانتصارهم على المسلمين لم ترس سفينته الاولى على الساحل الشمالى لامريكا ، وانما رست على جزيرة دومنيكان فى البحر الكاريبى .. فلما جاء الاسبان بعد هذا سلكوا الطريق الذى سلكته قافلة كولمبوس ووصلوا الى أمريكا الوسطى وبدأوا يستوطنونها .

وكان سكان هذا العالم الجديد هم الهنود الحمر الذين بلغوا قدرا غير قليل من الحضارة ، وخاصة فى هذه المنطقة الوسطى وفى المكسيك وفيما وراء هذا جنوبا فى بلاد الاكوادور وبيرو وبوليفيا . ونشبت بين هؤلاء الاوربيين الغزاه وبين الهنود الحمر معارك كثيرة وطويلة اقترف فيها الغزاة من التقتيل والابادة ما تقرأ عنها صفحات مروعة فى كتاب « فتح المكسيك » والذى وضعه مؤرخ اسبانى قديم اسمه كورتيز وصار من اشهر كتب التاريخ .

قهر الاوربيون من الاسبان وممن جاء بعدهم من بلاد الانجليز والشمال ، الهنود الحمر ، وأجلوهم عن بلادهم وطاردوهم وأخذوا منهم جموعا من الاسرى سخروهم فى زراعة الارض ، وفى أعمال المناجم .. ولم تكن هذه مهنتهم ، فهلك منهم عدد كبير ، كما أهلكتهم أيضا الامراض الوافدة ، فلم تكن فى أجسامهم مناعة

ضد أمراض حملها الغزاة ، وتعودوا أن يشفوا منها اذا ألمت بهم ، أما الهنود الحمر فكانت تنتشر بينهم وتفتك بهم مثل الوباء ٠

ورأى الاسبان البرتغاليون أن يستبدلوا الهنود الحمر برقيق من افريقيا ، فقد عرفوا فى بلادهم هؤلاء الافريقيين الذين كانوا يأتون عبر الصحراء وبلاد المغرب ،وكانوا يعتمدون عليهم فىاعمال الزراعة فى منطقة الاندلس ٠٠

وبدأت السفن البرتغالية والاسبانية تنقل اعدادا من الافريقيين الى العالم الجديد ، وثبت لهم ان الافريقى الواحد يستطيع ان يعمل فى زراعة الارض قدر ما يعمل اربعة من الهنود الحمر

ولم يكن هؤلاء الافريقيون يخطفون من قراهم ، ومن بين اهلهم ، كما صار الأمر فيما بعد ، ولكنهم كانوا يباعون فى افريقيا فى اسواق النخاسة ، فقد كان الرق قائما وشائعا فى افريقيا ، وكان رؤساء القبائل يبيعون بعض ماعندهم من العبيد ، ويقبضون الثمن ملابس وحليا وخمرا ! ٠٠ وتنقل السفن هؤلاء العبيد الى مستعمرات اسبانيا والبرتغال فى العالم الجديد فيزرعون الارض ، ويعيشون مع صاحب الارض عيشة ليست اسوأ مما كانت فى افريقيا ٠٠ وقد ينال العبد شيئا من محصول الارض فضلا عن طعامه ، فيدخره ويشترى به حريته عندما يكبر ٠٠ وقد يصير بعد هذا مالكا لقطعة من الارض ، ومالكا ايضا لعبد اخر أو عدد من العبيد ، وصار منهم من له زراع وخدم من البيض ٠

ثم انحسر الاستعمار الاسبانى عن شمال امريكا ، وانحصر فى أمريكا الوسطى ومايليها من مناطق الجنوب ، وبدأ يحل محله استعمار جديد من أوربا الشمالية ، وعلى الاخص من بلاد الانجليز ، ومن هولندة ومن المانيا ٠٠ واخذ المستعمرون الجدد يستوطنون فى مناطق جديدة فى أرجاء القارة الفسيحة ٠٠ وأخذوا يجلون عن هذه المناطق اهلها من الهنود الحمر ، فى معارك مطاردة وقتال شهدنا الكثير منها فى افلام هوليود ٠٠ ثم اخذوا يستوطنون ويزرعون الارض ، فى مساحات صغيرة فى الشمال ومزارع كبيرة فى الجنوب ٠٠ وكان هذا عملا شاقا ، ففعلوا مثلما فعل الاسبان من قبل ، وبدأوا يستجلبون جماعات من الافريقيين ٠٠ فاستجلبت ولاية كارولينا مثلا فى سنة ١٥٢٦ مائة أفريقى ليعملوا فى مزارعها ٠

ومضى زهاء قرن بعد هذا وظل الاوربيون فى أمريكا ( فلم يكن يسمون امريكيين فى ذلك الوقت ) يستوردون الافريقيين ليعملوا

في زراعة الارض ، ولكنهم لم يكونوا رقيقا ، لان الرق لم يكن مباحا هناك ، بل كان محرما في امريكا مثلما كان محرما في انجلترا التي تحكم امريكا ·· أو على الاقل كان الرق ممنوعا بالقانون . ولكنه يمارس إلى حد ما في واقع الحياة ·

وظل هذا الوضع قائما حتى بداية القرن السابع عشر ، ثم بدأ الرق ·· الرق بمعناه الحقيقي في أمريكا ·

بدأت بعض مناطق الجنوب حينذاك ، تسن قوانين تنص على ان « الخادم الاسود » يجب ان يبقى مع سيده طوال حياته ، فاذا هرب كان من حق سيده أن يستعيده ويبقيه في حوزته ··

وزادت ولاية فرجينيا شيئا آخر ·· فقد اعتنق هؤلاء الافريقيون الديانة المسيحية ، والمفروض ان المسيحي لايستعبد مسيحيا مثله ·· فأصدرت حكومة تلك الولاية قانونا يجعل استرقاق المسيحي جائزا ومشروعا ·· وكان المفهوم طبعا ان المسيحي الذي يباح استرقاقه هو ذلك الافريقي الاسود ·

وبدأت الولايات الاخرى تصدر مثل هذه القوانين ،وتتوسع فيها، فصدرت في سنة ١٦٧٠ قوانين تجعل الرق وراثيا ، ينتقل من الاب والام الى الاولاد والبنات ··

وبدأ رجال الدين يدخلون الميدان ، ويجدون المبررات الدينية لهذا الاسترقاق ، فقالوا : ان المسيحيين المتدينين الاتقياء هم صفوة الناس عند الله ، وقد اصطفاهم الله لينشروا المسيحية بين الوثنيين الجهلاء ·· ومادمنا لانستطيع ان نصل اليهم في غاباتهم وادغالهم في افريقيا ، فمن الواجب علينا ان نحضرهم الى هنا لكي نجعلهم مسيحيين !

وهكذا أصبح الاسترقاق عملا دينيا يحض عليه رجال الدين ، وينال عليه مالك الرقيق ثوابا من الله ·

وأخذ رجال الكنيسة يؤولون الكتاب المقدس تأويلا يبررون به الرق والاستعباد ، فقالوا ان الجنس الاسود من نسل حام بن نوح، أما الجنس الابيض فمن نسل يافث بن نوح ··وقالوا انه جاء في سفر التكوين أن حاما أغضب أباه ذات مرة ، فلعن نوح نسله من حام ودعا عليهم أن يكونوا عبيدا لنسله البيض من يافث ·

وقالوا ان اليهود كانوا يمارسون الرق على نطاق واسع ، وكانوا

يسترقون اليهود أنفسهم ، رجالا ونساء ، ولكن بشروط مخففة ..
أما غير اليهود فكانوا يسترقونهم غير ملزمين بأن يعاملوهم بالرحمة والشفقة ، وكان هؤلاء الرقيق من غير اليهود لا يعتقون أبدا بل يظل نسلهم ملكا لاسيادهم ..

وقالوا أيضا انه لما جاءت المسيحية ظل الرق قائما ، وليس في الكتاب المقدس نص يحرم الرق ، فكان المسيحيون في أوربا يتخذون من أسرى الحروب رقيقا ، ثم كانوا يجلبون العبيد من أفريقيا ليتخذوهم رقيقا .. ولم تعترض الكنيسة في أوربا على شيء من هذا، فلماذا تعترض عليه الكنيسة في أمريكا ؟ .. بل لماذا لاتحبـــذه وتشجعه ؟

وبث رجال الدين فكرة عجيبة في عقول النـاس ، وهي ان الله يبارك لصاحب الارض في أرضه ، ويبارك في رزقه ، اذا قام بتحويل عدد من الوثنيين الى المسيحية .. انها « حيلة » تدفع ملاك الارض الى الاقبال على شراء الرقيق !.. وقد اعلن فعلا احد حكام المقاطعات الامريكية في الناس ان مقاطعتهم لن تزدهر ، الا اذا جلبنا اليهـا « كمية » من الافريقيين ، ونقلناهم من الوثنية الى المســيحية ، وكلفناهم بزراعة الارض .. وطبعا وافق اهل المقــاطعة على هذا المشروع ، وخاصة عندما قال لهم ان كل عشرين من هؤلاء السود لايتكلفون ما يتكلفه رجل واحد ابيض !

وبدأ كبار المزارعين يستوردون الافريقيين ، ولكن .. عندما جاء دور نقلهم من الوثنية الى المسيحية لم تكن هي المسيحية التي يعرفها الرجل الابيض وهو يقرأ في الانجيل ، أو يســمعها يوم الاحد في الكنيسة .. بل كانت مسيحية تتفق وتتناسب مع ماهو مطلــوب من الرجل الاسود .. فكان على القسيس الذي يعلمهم المسيحية ان يؤكد على طاعة العبد للسيد ، وعلى امانة العبد حتى لو كان جائعا .. فان العبد اذا كان مطيعا ، وكان امينا ، فان له ان يتطلع الى يوم سعيد سيكون فيه رفيقا للملائكة ، منعما في امجاد السماء .
وكان بعض القسس يذهب الى اكثر من هذا .. فيحـرمون على العبيد تعلم القراءة حتى لايقرأوا الانجيل .. لانهم لو قرأوه لما امكن السيطرة عليهم والتحكم فيهم بعد هذا !

وفيما كتب عن تاريخ الرق في أمريكا نماذج من بعض المواعظ الكنيسية التي كانت معدة خصيصا للزنوج ، منهــا ان عدم طاعة السيد ، وعدم طاعة ربة البيت ، هو عصيان صريح لله .. لان الله

قد « كلفهما » بان يكونوا اسيادا عليكم ، فاذا خالفتم اسيادكم أو اغضبتموهم ، خالفتم الله واغضبتموه ·· والله ينتظر منكم ان تعاملوهم مثلما تعاملون الله ·

وكان هناك كتاب أو كتيب طبع فى سنة ١٦٩٣ يتضمن القواعد التي يجب ان يسير عليها الوعاظ فى الكنائس المخصصة للزنوج ، والنقط التي يجب ان تدور عليها المواعظ الموجهة الى هؤلاء الزنوج ·· ولم يكن السود يصلون مع البيض فى كنيسة واحدة ، بل اقيمت لهم كنائسهم المتواضعة . وكان الزنجى لايجرؤ على أن يقترب من باب كنيسة مخصصة للبيض !

وقد يبدو عجيبا أن يصدق مسيحى يؤمن بدينه ويدرك مبادئه الله سبحانه وتعالى فرض هذا الوضع المهين ، الشائن ، على جنس من البشر لمجرد ان جلده اسود ، وشعره متجعد ، وشفتيه غليظتان مثلا !

ولكن الفكرة الشائعة بين عامة الاوربيين فى ذلك العصر أن « الوجود » هو هيكل مكون من عدة طبقات ، فالملائكة هم أعلى الطبقات ، والحيوانات هم ادنى الطبقات ، والبشر ( اى من كانت بشرتهم بيضاء ) هم دون الملائكة ·· اما السود فهم دون البشر ، وفوق الحيوانات ، ولكنهم على اتصال ببعض الحيوانات !

وقد صادف ان جاء الاتصال بين الاوبيين والافريقيين على نطاق واسع فى نفس الوقت الذى اكتشف فيه علماء أوربا « الشمبانزى الانسان » الذى يشبه الانسان ويقلده فى حركاته ·· وموطن هذا الشمبانزي هو غابات فى افريقيا ·· فارتبطت صورة الافريقى فى أذهان عامة الناس بهذا النوع المتقدم من القرود !

ومما يدل على أن هذه الفكرة كانت شائعة ، وكانت مقبولة ، ان عبدا فر من سيده فى ولاية كارولينا سنة ١٧٣٤ ،فنشر سيدة اعلانا يصف فيه هذا العبد بأنه « يشبه البابون القوى ـ احد انواع القرود الضخمة ـ وأنه تعلم السير واقفا على ساقيه الخلفيتين » ·

ولكن هذه الأفكار والخرافات وجدت من يسفهها ، ويستنكرها ، وينادى فى الناس بأنها تناقض المسيحية ، وتنافى الانسانية ، وحملت جماعة الكويكرز التى بدأت فى أواخر القرن السابع عشر لواء هذه كة الدينية التى تدعو الناس الى اعتبار هؤلاء السود بشرا مثلهم ،

وأن الله عز وجل لا يقبل ماينزله بهم بعض الناس من اذلال وتعذيب .. وراحت هذه الجماعة التي انتشرت فروعها في أمريكا تدعو الى الغاء الرق وتحاربه ، والى تحرير الرقيق ، وكان لها كنائسها ووعاظها ، الذين حملوا هذه الدعوة الدينية ، ولاقوا فيسبيلها كثيرا من المقاومة والأذى .

أما حكومات الولايات في الجنوب ، وهي مؤلفة من كبار الملاك وأصحاب الرقيق ، فقد مضت في اصدار القوانين التي تدعم حركة الرق .. فلا يستطيع العبد أن يخرج خارج مزرعة سيده الا اذا كان يحمل تصريحا ، فاذا عثر رجل أبيض على أسود غير مصرح له كان من حقه أن يضربه الى حد التشويه والاصابة ، حتى يقبض عليه ويسلمه لصاحبه ! .. أما اذا تكرر هروبه فان بتر طرف من أطراف جسمه ، قدما أو ساقا أو ذراعا ، كان أمرا يقره القانون .

بل ان احدى محاكم الجنوب حكمت بأن قتل الزنجي ، لا يعد جريمة قتل بالمعنى الحقيقي ..

وطبعا كان محرما على الزنجي تعلم القراءة والكتابة .. وكان محرما عليه أيضا ركوب الخيل ، أو ركوب عربة يجرها الخيل ، الا اذا كانت هذه مهنته التي كلفه بها سيده . وكانت قيادة عربة تجرها الخيول هي أعلى مرتبة يصل اليها العبد الرقيق .

◎❖◎

كما وجد ملاك الرقيق في أمريكا أن العبيد المجلوبين من أفريقيا للعمل في مزارعهم هم مصدر ثراء لهم ، فقد وجد تجار الرقيق في انجلترا أن تجارة الرقيق بين أفريقيا وأمريكا هي أروج تجارة وأكثرها ربحا .

ولم يكن الانجليز هم أول الاوربيين اتجارا في الرقيق ، بل كانت هذه التجارة محرمة أو ممنوعة في الوقت الذى ازدهرت فيه على أيدى البحارة الأسبان والبرتغاليين .. الذين جابوا شواطىء أفريقيا ، وأنشأوا على ساحلها الغربي ، أكبر ميناء افريقي .. وكان اسمه « المينا » .. كلمة عربية تعلمها البرتغاليون وأدخلوها في لغتهم ..

كانت « المينا » .. ميناء كبيرا عمل في بناء أرصفته ومخازنه ستمائة عامل مدرب جاءوا من البرتغال ، وكان أول الأمر مركزا للتجارة بين أفريقيا وأوربا .. ثم صار مركزا ومخزنا لجمع الرقيق ونقل أعداد قليلة منهم الى البرتغال وأسبانيا .. فلما بدأوا يستعمرون

أمريكا ويستوطنون فيها ، صارت « المينا » مركزا لتجميع أعداد ضخمة من الافريقيين وترحيلهم الى أمريكا ٠٠ وكذلك أقيمت على الشاطىء الافريقى على مسافة طولها ثلاثة آلاف ميل ، موانىء عديدة ترسو عليها السفن الأوربية ، وخاصة السفن الهولندية والانجليزية ، فتأخذ « حمولتها » من الافريقيين وتعبر بهم المحيط الى أمريكا ٠

ولكن تجارة الرقيق لم تزدهر ويتسع نطاقها الاعلى أيدى الانجليز ، فقد أقبل كثير من الناس فى انجلترا على المساهمة فى هذه التجارة اقبالا شديدا ، ولم تعد تجارة الرقيق مقصورة على أصحاب السفن التى تعبر المحيط بين أفريقيا وأمريكا ، ولا على أولئك التجار الانجليز الذين تمرسوا على مساومة رؤساء القبائل وعلى اختيار أجود « أصناف » الرقيق ، ولا على أولئك البحارة المغامرين الذين تدربوا على اخضاع الرقيق وإذلالهم طوال الرحلة الرهيبة فى المحيط ٠٠ لقد أخذ الناس من جميع الطبقات والمشارب يوظفون أموالهم فى تجارة الرقيق ، تماما مثلما يوظفونها اليوم فى الشركات المساهمة ٠ فالتاجر الصغير ، والمزارع العادى وربة البيت ، يقتصدون من دخلهم مايساهمون به مع كبار الأثرياء ، وأصحاب الصناعات ، وأصحاب الألقاب الرفيعة وحتى الملك شارل الثانى نفسه فيساهم الجميع فى شراء سفينة أو استئجارها ، وتزويدها بالبحارة والمؤن ، وارسالها الى أفريقيا لتنقل منها الرقيق حيث يباعون فى أمريكا ٠

لقد وجدوا أن رحلة واحدة تقوم بها سفينة تخرج من افريقيا محملة بالزنوج ثم تعود من أمريكا محملة بالسكر ، فتبيعه فى انجلترا وفى أوربا ، ثم تحمل من انجلترا الأقمشة ، والمصوغات ، والخمر ٠٠ وخاصة « الروم » الذى يستخرج من عصير القصب المخمر ٠٠ وأهم من هذا البنادق وذخيرتها من الرصاص ، فيبيعون هذه الأشياء للافريقيين ، وخاصة لرؤساء القبائل ، مقابل فوج من العبيد — ان مثل هذه الرحلة أجدى وأكثر ربحا من رحلة تطوف البحار القريبة لصيد السمك ، أو تعبر البحار والمحيطات الى آسيا لتجلب بعض مصنوعات الشرق أو كميات من توابل الطعام ، التى أقبل عليها الاوربيون حينذاك ، وصاروا لا يستسيغون طعاما الا محشوا بالتوابل !

وهكذا صارت هناك تجارة « مثلثة » ٠٠ الخمر والأقمشة والبنادق تنقل من انجلترا الى افريقيا ٠٠ والرقيق ينقلون من افريقيا الى أمريكا ٠٠ والسكر ينقل من أمريكا الى انجلترا ٠٠ وصار هناك خط

يحري منتظم لهذه التجارة يخترق المحيط الأطلنطي من وسطه فتعبره السفن المتجهة الى منطقة البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى ٠٠ وهناك خط آخر يخترق المحيط من شماله ، فتخرج السفن من الموانيء الجنوبية في أمريكا وتتجه شمالا حتى تصل الى انجلترا ٠

تجارة تذهب وتجيء عبر البحار ، رائجة مزدهرة ، فقد قدر المؤرخون أن انجلترا كانت ترسل الى افريقيا كل سنة مائة ألف بندقية ٠٠ وكميات كبيرة من الخمر ٠٠ وتأخذ منها مائة ألف انسان تبيعهم رقيقا في الموانيء الامريكية ٠

لقد إختلف المؤرخون في تقدير عدد الزنوج الذين استوردتهم أمريكا ٠٠ فمنهم من يقول أنها استوردت في القرن السادس عشر أقل من مليون ، وفي القرن التالي ثلاثة ملايين ، وبلغت التجارة أوجها في القرن الثامن عشر فبلغ عدد الرقيق زهاء سبعة ملايين ، واستمرت التجارة مزدهرة حتى أواخر القرن التاسع عشر فنقل أربعة ملايين ٠

وكانت مدينة ليفربول هي أكبر مركز لتمويل تجارة الرقيق ، وكان ميناؤها أكبر ميناء تخرج منه السفن متجهة الى افريقيا لتتزود بالرقيق ٠٠ ففي سجلات انجلترا ما يثبت أن السفن الانجليزية قامت في خلال عشر سنوات بتسعمائة رحلة الى افريقيا ، ومنها الى أمريكا ، وحملت في هذه الرحلات ثلاثمائة ألف أفريقي ٠٠ وأن ليفربول نهضت من قرية صغيرة فقيرة الى مدينة من المدن الكبرى والغنية في انجلترا « بفضل » تجارة الرقيق ٠٠ فان هذه المدينة وحدها هي التي مولت عمليات نقل ما يزيد على ثلاثة ملايين من الافريقيين الى أمريكا !

وقد أثري كثير من الانجليز الذين استثمروا أموالهم في تجارة الرقيق ثراء ضخما ، وبدأت الأموال تتكدس في انجلترا فبدأت تقوم المصارف المالية الكبرى ٠٠ وقد قام بنك باركليز ، الذي مايزال واحدا من أكبر البنوك في أوربا ، من الأموال التي تجمعت في أيدي الانجليز من تجارة الرقيق في تلك الايام ٠

بل ان دائرة المعارف البريطانية تقول أن الأموال التي استخدمت في اقامة الثورة الصناعية في انجلترا ، أى اقامة الحضارة المادية الحديثة ، كان أحد مصادرها الأساسية هو الارباح الطائلة والاموال التي تكدست في خزائن الانجليز الذين استثمروا أموالهم في تجارة الرقيق ٠

ويقول الاستاذ جون هوب فرانكلين ، رئيس قسم التاريخ في جامعة شيكاغو ومؤلف كتاب « من العبودية الى الحرية » وعدد آخر من الكتب عن قصة الزنوج في أمريكا ـ يقول أن الانجليز طوروا تجارة الرقيق وأدخلوا عليها من الوسائل والاساليب ما جعلها « مهنة » يتخصص فيها ويتفرغ لها فريق من التجار والوكلاء ٠

أقام هؤلاء التجار والوكلاء روابط المودة برؤساء القبائل من أهل البلاد فتولى هؤلاء حماية الطوابي والمراكز التجارية التي أقامها الاوربيون على الساحل الافريقي لتكون مراكز لتجميع الرقيق وبيعهم واعدادهم للنقل عبر المحيط ، وكان رؤساء القبائل يعينون الجنود والحراس المسلحين حول هذه المراكز لحمايتها من النهب ، وللدفاع عنها اذا أغارت عليها القبائل المعادية ٠

وكان الاجراء المعتاد أن يتوجه التاجر الانجليزى الى رئيس القبيلة ويتفق معه على تصريح بشراء الرقيق في المنطقة التي يرأسها ، ويحمل معه التاجر الهدايا من المنسوجات القطنية والاواني والخمور والبنادق وذخيرتها من الرصاص ، ويقوم أيضا بزيارة البارزين من رجال القبيلة ومعه الهدايا المناسبة لكل منهم ٠٠ وتبدأ عملية الاتجار ٠٠ فيعين رئيس القبيلة عددا من رجاله مهمتهم اختيار الاولاد والبنات الذين يريد بيعهم ، ومهمتهم أيضا المساومة على أثمانهم ٠

وكان من حق التاجر استشارة طبيب في الرقيق المعروض ، فيفحص أجسامهم ليتأكد من سلامتها وقوتها ٠٠ ويكشف عن أسنانهم للتأكد من أنهم في سن الصبا ٠٠ ثم يختار عادة أقواهم بنية وأكثرهم نشاطا ومن يظهر قدرة على الفهم ٠

وكانت بعض الصفقات تتم بالمقايضة مقابل ما يحمله التجار الانجليز من السلع ، ويتم بعضها نقدا ٠٠ وكان ثمن العبد القوى المتين لا يتجاوز عشرين دولارا ٠

ولم يكن جميع العبيد المعروضين للبيع من أبناء القبيلة ، بل كثير منهم كانوا يخطفون من قبائل أخرى ٠ وكان الافريقيون أنفسهم هم الذين يتولون عمليات الخطف ، وأحيانا يشترك معهم التجار الاوربيون ، وكانت المعارك مستمرة بين القبائل بسبب اختطاف الاولاد والبنات وبيعهم لتجار الرقيق ٠ وكانوا يستخدمون الرماح والسهام في الحرب ، ثم صاروا يستخدمون الاسلحة النارية التي يهديها ويبيعها لهم الاوربيون ٠

ويقول الاستاذ الامريكي في كتابه : ان تجارة أفريقيا أضعفت أمريكا وأنهكت قواها الى أقصى حد ، أولا لأن التجار الاوربيين أخذوا منها أعدادا هائلة من الشبان والصبيان ، وأخذوا منها أقوى عناصرها بدنا ، وأقدرها على العمل والانتاج . والواقع أن الاوربيين أقتطفوا زهرة شباب أفريقيا وتركوا فيها الشيوخ والعجائز .. وثانيا ، لان معظم الرقيق كانوا من منطقة غرب أفريقيا ، التى كانت أكثر مناطق تلك القارة تقدما .. وثالثا ، فقد نشبت المعارك والحروب المستمرة بين القبائل الافريقية بسبب اختطاف الرقيق ، واستخدمت فيها الاسلحة الاوربية ، فكانت أقرب الى عملية « تصفية جسدية » للافريقيين .. وهذا كله قد مهد الطريق وفتحه للاستعمار الاوربى لأفريقيا بعد هذا بقليل

***

رغم هذه الحقائق التاريخية فقد ظل النـــاس يقرؤون فى كتب التاريخ ، ويقرأ معهم المتعلمون من الافريقيين ، ان تجـارة الرقيق كانت تجارة « عربية » يحترفها التجار العـرب الذين يشـترون ويخطفون الاولاد والبنات ويصدرونهم الى الجزيرة العربية ليكونوا الرقيق والجوارى .

ولو سألت أى أفريقى مهما تكن درجة ثقـافته واطلاعه عمن هم المسئولون عن الرق الذى تعرض له الافريقيون عدة قرون ، وأدى الى افقار أفريقيا من أقوى وأحسن عناصرها ، ومهد هذا الافقـــار والاضعاف الى الاستعمار الاوربى الذى سيطر على افريقيا واستغلها وأنهكها قرونا أخرى ــ لو سألت أى أفريقى متعلم هذا السؤال ، لكانت الاجابة التى لايشـــك فى صـحتها أنهم هم العرب .. فهم تجـار الرقيق الذين كانوا يخطفون الافريقيين ويبيعونهم للانجليز والاوربين .

ولكن الواقع أن العرب ، وان كانوا قد مارسوا تجارة الرقيق ، الا أنهم لم يشتركوا فى تلك التجارة الواسعة الضخمة التى نقلت أفواج الرقيق من أفريقيا الى أمريكا ، فقد كانت هذه التجربة تجرى على الساحل الغربى لافريقيا وهى مناطق انتشر فيها الاسلام على مدى عدة قرون ، وقامت فيها مراكز مهمة للحضـــارات الاسلامية أشهرها تمبكتو ، وقامت فيها دول اسلامية منها امبراطورية غانا ، ثم امبراطورية مالى ، وكل منهما كانت دولة واسعة النفوذ ، مهيبة الجانب ، متقدمة فى الحضارة .. وفى خلال هذا العهد المزدهر لم

تكن هناك تجارة رقيق بين افريقيا وأوربا ، فقد كانت افريقيا أكثر غنى وأوفر رخاء من أوربا فى ذلك الزمان ٠٠ أما تجارة الرقيق هذه فقد بدأت فى القرن الخامس عشر ، أى فى نفس الوقت الذى ضعفت فيه الدول الاسلامية فى غرب افريقيا ، وتفككت ، وانكمشت وانكمش معها النفوذ العربى فى غرب افريقيا ٠٠ وصار العرب منذ ذلك الوقت منحصرين فى مناطق معينة ، وصاروا فى موضع دفاع عن أنفسهم، وليس فى موضع القوة والنفوذ ولا فى موضع استرقاق الزنوج والاتجار فى الرقيق ٠

ولكن العرب مارسوا الرق فى شرق أفريقيا ، ومن هنا كانوا يصدرون الرقيق الى الجزيرة العربية وما يليها من بلاد عربية واسلامية ، ولكنها لم تكن تجارة على نطاق واسع ، لان هذه البلاد لم تكن فى حاجة الى أن تستورد الايدى العاملة ، وانما كانت تكتفى بجماعات قليلة من الصبيان يدربونهم ليكونوا خدما وحراسا،ومن البنات اللاتى يصلحن أن يصرن جاريات فى خدمة البيوت ولمتعة الرجال ٠

ولهذا كان وضع الرقيق فى البلاد العربية والاسلامية مختلفا عن وضعهم فى مزارع أمريكا ، فعندما كانوا يعملون فى البيوت خدما وجاريات، وعندما كانوا يعملون حراسا وجنودا ، فان كثيرا منهم كان فى مكان قريب من سيده ، أو سيدته ، وقد يصير قريبا من الحاكم، ومقربا اليه وموضع ثقته واطمئنانه ٠٠ وكان هؤلاء الرقيق جميعا يعتنقون الاسلام فيحميهم هذا من كثير من العسف والاذلال٠٠ كان سادتهم يعرفون أن الاسلام يحرم تعذيب العبد ، ويأمر بمعاملته معاملة رحيمة ، ويحض على أن يأكل العبد مما يأكل السيد ،ويترك للعبد أن يتصرف فى أموره الخاصة ، مثل الزواج ، تصرف الحر ٠٠ ويعرف هؤلاء السادة أيضا أن الاسلام يحض على عتق العبيد وتحريره، كفارة عن ذنب أو التماسا للثواب ٠٠ وهذا وضع يختلف من الناحية الانسانية اختلافا كبيرا عن وضع الرقيق فى أمريكا حيث لقوا صنوفا وضروبا من العذاب ٠٠ رأينا صورا منها فى قصة « جذور» ٠٠ ونرى صورا مثلها قسوة وعنفا فى كتب التاريخ الصحيح ، لا فى التاريخ المزيف الذى أخفى الحقيقة ، وضلل النـــاس ، بما فيهم الافريقيون والامريكيون أيضا ، فترة من الزمان !



● الفصل الثالث ●

# أول شهيد فى حرب الاستقلال الأمريكية .. كان زنجيا

ساهم عدد من الزنوج فى حرب الاستقلال الامريكية ، بل يقال أن أول « أمريكى » سقط قتيلا فى حركة الاستقلال كان زنجيا ، وكان أحد خمسة رجال قتلوا فى معركة تعرف باسم « مذبحة بوسطون » فى سنة ١٧٥٠ ويعدها المؤرخون بداية الصراع المسلح بين الامريكيين والانجليز فى سبيل الاستقلال .. ويفتخر الزنوج بهذا « الشهيد الأول » ويغيظهم أن يقول المؤرخون البيض أن هذا الزنجى لم يكن الا مشاغبا أفاقا !

على أن الواقع التاريخى هو أنه عندما بدأت حرب الاستقلال فعلا ، ساهم فيها عدد من الزنوج ، كلهم من الهاربين من الجنوب . وكانت كلمة ( الحرية ) تثير هؤلاء الزنوج حتى أن عددا منهم كان يتخذ هذه الكلمة اسما له ، فيسمى نفسه ( ريتشاردحرية ) أو ( بيترحرية ) !

ولعلهم كانوا يتصورون أنهم ما داموا يحاربون فى سبيل حرية بلادهم ، فلا بد أن هذه الحرية ستشملهم مثلما تشمل البيض ، ولكنهم كانوا مخطئين فقد ظل الرق قائما بعدالاستقلال عهدا طويلا .

وكان من بين الزنوج الذين ساهموا فى حرب الاستقلال عدة مئات أرسلتهم فرنسا من جزر البحر الكاريبى التىكانت تستعمرها فرنسا . وكانت فرنسا تناوىء انجلترا وتعمل على اضعافها ، فأيدت حركة الاستقلال الامريكية لتقضى على تلك الامبراطورية البريطانية « الأولى » فلما انهارت اتجهت بريطانيا الى الشرق لتبنى

امبراطوريتها فى آسيا وفى افريقيا ٠٠ وهى تلك الامبراطورية البريطانية التى عرفها العالم ، بعد أن نسى الامبراطورية الأولى التى أقامتها على أرض أمريكا ٠

ساعدت فرنسا حركة الاستقلال الامريكية ، وتطوع فيها جنود جاءوا من فرنسا بزعامة لافييت ٠٠ كما أرسلت جنودا أفريقيين من جزر الكاريبى ، كان من بينهم جندى باسل من هايتى اسمه هنرى كريستوف ، عاد بعد حرب الاستقلال الى بلاده مملوء القلب بحب الحرية ، فحارب مرة أخرى فى سبيل استقلال هايتى ، وأعلن نفسه ملكا عليها ٠

على أن فريقا من زنوج أمريكا قد حارب مع الانجليز ٠٠ والواقع أن فريقا من البيض أيضا كان ضد حرب الاستقلال ، وكان يرى فى الخروج على « التاج البريطانى » خيانة ٠ أما الزنوج الذين حاربوا مع الانجليز فكان لسبب آخر ، وهو أنهم انتهزوا فرصة حرب الاستقلال لمجرد الهروب من الجنوب الى الشمال ، حيث تلقف الانجليز كثيرا منهم وضموهم الى صفوفهم ٠

وقد إتسع نطاق عمليات الهروب هذه عندما بدأت حركة الاستقلال، ففى غمار الفوضى التى صاحبت قيام الشعب الامريكى ضد الحكم الانجليزى ، ومقاطعة السلطات الانجليزية ، والامتناع عن دفع الضرائب التى فرضتها إنجلترا على رعاياها فى أمريكا ـ فى وسط هذا كله أخذت جموع كبيرة من الزنوج من مزارع الجنوب ، تهيم على وجهها فى أنحاء أمريكا ٠

قدروا أن زهاء مائة ألف زنجى هربوا فى تلك الفترة من الجنوب الى الشمال ، وأقفرت بعض مزارع الجنوب من جميع الأرقاء ٠

وساعد على هذا أن الانجليز كانوا يغرون هؤلاء الارقاء الهاربين بأنهم اذا انضموا اليهم فسوف يحررونهم ٠٠ وفعلا انضم اليهم آلاف من الزنوج ، فلما انتهت الحرب بانسحاب الانجليز كان عندهم أربعة عشر ألفا من الزنوج ٠٠ ورفض الانجليز تسليمهم للامريكيين، ونقلوهم إلى مستعمرتهم فى كندا ، فكان هذا أول فوج من الزنوج فى كندا ، حيث كانوا وظلوا أحرارا ، لأن كندا ، مثل انجلترا ، لم تمارس الرق داخل بلادها ٠

★★★

وانتهت حرب الإستقلال ، ونال الشعب الامريكى حريته ، ولكن الزنوج ظلوا عبيدا أرقاء ٠

لقد وضع توماس جيفرسون مسودة الدستور الامريكي ، ووضع فيها نصوصا يصف فيها تجارة الرق بما ينبغي أن توصف به وهي أنها « جريمة ضد الجنس البشري ، هذا ما كتبه جيفرسون بقلمه رغم أنه كان من كبار المزارعين وكبار ملاك الرقيق ، ولكنه كان مفكرا وفيلسوفا ، وكان من دعاة حقوق الانسان ، وكان له دوره الكبير في صياغة الدستور الامريكي، ثم في صياغة الوثيقة الامريكية لحقوق الانسان .

وعرضت مسودة الدستور على ممثلي الشعب الذين اجتمعوا في « قاعة الاستقلال » في مدينة فيلادلفيا .. وعرضت النصوص الخاصة بالغاء الرق .. فثار ممثلو المناطق الجنوبية .. فحذفت هذه النصوص ، ووافق واضعو الدستور الامريكي على تأجيل الغاء الرق .. عشرين سنة !

لقد صدر الدستور الامريكي بهذه العبارة الرائعة « خلق جميع الناس متساوين » .. ورغم هذا المبدأ الصحيح الا أن الدستور الامريكي الذي صدر في سنة ١٧٨٧ نص على ابقاء الرق حتى سنة ١٨٠٨

أجلوا الغاء الرق لأنهم قدروا أنه من الضروري أن يستمر الرق قائما عشرين سنة أخرى حتى تبني أمريكا اقتصادها بسواعد الرقيق .

ونلاحظ هنا أن قصة « جذور » بدأت عندما كانت حرب الاستقلال على أشدها ، فلقد وصلت السفينة التي نقل عليها الصبي كينتا الى الشاطىء الامريكي في سبتمبر ١٧٧٦ .. السنة التي أعلن فيها استقلال أمريكا .. وقد ظلت السفن تنقل الآلاف والآلاف من الافريقيين الى أمريكا بعد هذا بأكثر من قرن طويل من الزمان ، بل ان تجارة الرقيق لم تتوقف الا عندما أوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء .

★★★

وكان جورج واشنطون زعيم حركة الاستقلال وقائدها من كبار ملاك الرقيق ، ورثهم عن أبيه واشترى مزيدا عليهم .. ولكنه عندما بدأ ينشد الحرية لبلاده أخذ يؤمن بأن الحرية هبة من الله للناس جميعا مهما اختلفت ألوانهم ، فقرر ألا يشترى عبدا بعد هذا .. وقرر

أيضا ألا يرث أولاده ما يترك من عبيـد ·· وأوصى بتحريرهم بعد وفاته ·· وكتب فى مذكراته يقول : ما من أحد يسبقنى فى الرغبة الى وضع خطة تؤدى الى الغاء الرقيق ·

وكان مثله كثير من زعماء حركة الاستقلال ، ولكن الرق ظل قائما ، بل أخذ ينتشر ، فقد اتسعت المساحات المزروعة بالتبغ ، والأرز ، والذرة ، والقمح ، ثم جاء القطن فبلغت عملية شراء الرقيق ذروتها ·

لم يكن القطن محصولا رئيسيا فى أمريكا ، وكان معظم المحصول يغزل وينسج فى أمريكا ، الى أن اخترعت آلة لحلج القطن تفصل البذور من شعر القطن ·· ثم اخترع أحد الانجليز آلة أحدثت ثورة فى صناعة القطن ·· آلة تغزل القطن وتنسجه بعد أن كان الغزل والنسج يتم بالايدى على المغزل والمنوال ·· وسرعان ما زاد اقبال انجلترا على شراء القطن من أمريكا زيادة كبيرة ، وسرعان ما صـار القطن هو المحصول الرئيسى وانتشرت زراعته فى كثير من الولايات ·· فكان لابد من مزيد كبير من الرقيق للعمـل فى هـذه المزارع الجديدة الفسيحة ·

ونشطت حركة نقل الرقيق من افريقيا الى درجة لم يسـبق لها مثيل ·· وأخذت ولايات الجنوب تصدر القوانين التى « تقنن » بها تجارة الرقيق وتشجعها ·· فأصدرت ولاية كارولينا فى سنة ١٨٠٣ — أى قبل السنة المحددة لالغاء الرق بخمس سنوات — قانونا يعلن أن تجارة الرق مباحة ، ويعلن فتح أبواب الولاية لأفواج الرقيق ·· وأصيب الجنوب كله بما يسميه المؤرخون « حمى الرق » التى جعلت الناس أغنياء وفقراء يتهافتون على شراء الرقيق : هذا يشترى عبدا واحدا وهذا يشترى مائة أو مئات من العبيد جملة واحدة !

وجاء القـرن التاسع عشر وقد بلغ الرق أقصى درجات الازدهار فى أمريكا ·· فالدستور لم ينص على الغائه ، وأبقاه قائما فترة من الوقت ، وولايات الجنوب تصدر القوانين التى تشجع امتلاك الرقيق ، والنمو الاقتصادى فى البلاد صار حافزا قويا للاقبـال على اقتنـاء العبيد ! ·· وعندئذ أحنت مبادىء الحرية والعدالة رأسها ·· وأحنى رأسه المبدأ الذى يقول فى صدر الدسـتور « خلق جميع الناس متساوين » ·· أحنوا رؤوسهم جميعا لمطالب الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية فى هذه البلاد الناشئة النامية ·

وقام فى أمريكا ما يعرف باسم « مملكة القطن » ، فقد صـار

هو مصدر الثروة الزراعية الاولى ، وكانت المحرك الأول لاستمرار واتساع تجارة الرقيق ٠٠ وعرف الرقيق في مملكة القطن هذه أسوأ وأفظع ضروب التسخير ، ففي ظلها صار للرق « فلسفة » اجتماعية وأخلاقية نتمثل في قول أحد كتاب الجنوب حينذاك : ان السود قد ولدوا وعلى ظهورهم السروج ٠٠ والبيض قد ولدوا ليجلسوا فوق السروج ويهمزوا الجياد ٠٠ وهم بهذا يعبرون عن اهتمامهم بالخيول التي يركبونها » ٠

ولم يعد الرق حاجة اقتصادية فحسب ، أي لايعد شراء الرقيق مقصورا على ملاك المزارع وحدهم ، بل صار امتلاك العبد رمزا للمكانة الاجتماعية ، فصار كل واحد في الجنوب يسعى الى شراء عبد أو جارية !

وهنا طبعا عامل سيكلوجي ٠٠ فان أدنى الناس أجرا ومكانة يحس أن مكانه ليس في قاع المجتمع مادامت هناك طبقة أخرى من الرقيق هي التي تعيش في هذا القاع ٠٠ بينما هو يعيش فوقها، مرتفعا عليها ، ولو بقليل !

وصار هذا هو نمط الحياة في مناطق الجنوب ، فكانت هناك ثلاثة آلاف أسرة تملك كل منها مائة عبد أو أكثر ٠٠ أما المزارع المتوسط في مزرعته الصغيرة فكان يملك عادة عشرين عبدا ٠٠ وكانت ملكية أغلب المزارعين الصغار في حدود أربعة أو خمسة من العبيد ، وكان صاحب الحقل الصغير يعمل بيديه في الارض مع رقيقه جنبا الى جنب ٠٠ ولكن كثيرا جدا من الامريكيين الذين انحدروا من هؤلاء المزارعين الصغار ما زالوا يتحدثون ، مباهين ، بأن أجدادهم كانوا يملكون المزارع الشاسعة ويملكون مئات العبيد !

وبدأت الصناعة الحديثة تغزو أرجاء أمريكا وتتطلب انشاء شبكة من الطرق ، ومد السكك الحديدية ، فمن الذي يقوم بهذا العمل الشاق ، ويقوم به بأبخس الأجر وأقل التكاليف ، سوى الزنوج ٠٠ ومن الثابت أن الزنوج هم الذين مدوا بأيديهم شبكة المواصلات والقطارات التي تغطي أمريكا من أقصاها الى أقصاها ٠

وازدادت عندئذ هجرة العمال الأرقاء أو هروبهم من مزارع القطن والتبغ والذرة ، وانتقلوا الى المدن الصغيرة يتكدسون في غرف البيوت ، ويدخلون ميدان الصناعة ليقوموا فيه بالاعمال الشاقة ،

في عنابر الفحم وفى المصانع وفي السفن، وفى مناجم الفحم والحديد وفى قطع الاشجار ونقلها من الغابات الى المصانع ٠

وكان أصحاب الصناعات في ولايات الشمال يسهلون للزنوج عمليات الهروب والهجرة ٠٠ حتى كان هناك ما يسمى « بالخط الحديدى السرى » بين الشمال والجنوب تعبيرا عن العمليات المستمرة التى انتقل فيها مئات الالاف من الزنوج سرا هاربين من مزارع الجنوب الى مدن الشمال ٠

وكانت حياة الزنوج في مدن الشمال لا تقل سوءا ٠٠ بل كانت أسوأ من حيث المسكن والمأكل من حياة الرقيق في المزارع ٠٠ ولكنها على كل حال قد خلت من الضرب بالسياط ، والكي بالنار ، وبيع البنين والبنات ٠

ولعل حياة أطفال العبيد فى تلك المدن تصور الحالة التى عاشها الزنوج حينذاك ، فقد كتب أحد العبيد فيما بعد يصف أيام طفولته فقال : « لم يكن الواحد منا يمتلك حذاء ولا جوربا ولا جاكتة ولا بنطلونا ٠٠ كان أغلبنا يغطى جسمه كله بالقميص ، ولا يملك سوى قميصين ٠٠فاذا بليا، ظل عاريا أو شبه عار ٠٠ حتى يستطيع أهله أن يحصلوا له على قميص ٠٠ وكنا عند النوم نتوزع على الاركان المحيطة بالمدفأة التى تطبخ عليها امهاتنا ، وندفن اقدامنا فى رماد المدفأة لنحس بشيء من الدفء ٠٠ ولم تكن عندنا اطباق أو آنية للطعام ، فكان الطعام يوضع على الارض مثلما يوضع أمام الخنازير ٠٠ وتنادينا امهاتنا لتناول الطعام فنجرى ، تماما مثلما تجرى الكلاب ، لنلتهم الطعام القليل الملقى على الارض ٠٠ وكان بعضنا يحتفظ « بمحارة » يستعملها مثلما يستعمل البيض الملاعق ! ٠٠ وكان أسرعنا فى الاكل هو الذى يستطيع أن يأكل أكثر ٠٠ وكان أقوانا بنية يزيح الضعيف جانبا ويستولى على نصيبه » ٠

وكان الطعام قليلا ورديئا ولا يشبع البطون الجائعة ، فكانوا يسرقون ما تصل اليه أيديهم ٠٠ ولم يكن الزنجي يشعر بانه يسرق لانه كما قال هذا الكاتب الزنجي فى مذكراته : أن هذه ليست سرقة ٠٠ لأنها لا تؤثر فى ملكية الرجل الابيض للطعام ٠٠ ان هذا السيد الابيض يملك الطعام عندما يكون مخزونا فى بيته ، وهو مازال يملكه وهو فى معدتى ٠٠ لاننى ، ومعدتى ، وما فيها ، كله ملك له !

كانت هذه هي الحالة التعيسة التي تسود حياة الزنوج في الشمال ، وهي ليست باقل سوءا من حالتهم في الجنوب ٠

ولم يكن هناك شيء اسمه «عائلة زنجية» ٠٠ عائلة مكونة من زوج وزوجة واولاد ٠٠ ان هذا النظام الذي يعرفه البشر جميعا منذ بدء الخليقة كان غير معروف للزنوج ، وكان محرما في بعض ولايات الجنوب بحكم القانون فقد قضت المحكمة بأن « الزواج نظام غير قائم بالنسبة للزنوج ٠٠ وذلك لانه من الحقوق المقررة للسيد حقه في أن يفصل بين الرجل والمرأة اللذين يعيشان معا ٠٠ ومن حقه أن يفصل عنهما الذرية التي جاءت نتيجة معيشتهما معا ٠٠ يتم هذا حسب رغبته ومشيئته ٠٠ ولهذا فلا يجوز اعتبار الزواج قائما بالنسبة للزنوج » !

وقضت محكمة أخرى بأن « الأب » لايمكن الاعتراف به في حالة الزنوج ٠٠ ولهذا يجب أن تنسب الذرية الى الام لانه يمكن التأكد من هذه الناحية ٠٠ أما الاب فيمكن أن يكون أي حد من الناس !

وقد اثبت احصاء أجري في سنة ١٨٦٠ ان المحكمة كانت على « صواب » فيما قضت به وان عددا ضخما من الزنوج ولد سفاحا من آباء بيض ٠ واظهر هذا الاحصاء انه يوجد في مناطق الجنوب حوالي نصف مليون ، لاهم زنوج ولا هم بيض ، وانما خليط لونه ( بني ) تقريبا ٠٠ مثل لون جورج في قصة جذور !

ويعرف هؤلاء باسم « الملاتو » ٠٠ كلمة اسبانية معناها «خليط» ٠٠ ومازال أولاد هؤلاء وبناتهم منتشرين في امريكا ، وفي امريكا الجنوبية بالذات ، فقد كانت الفتيات الزنجيات ، وحتى المتزوجات لنهن ، عرضا مباحا للاسياد البيض ٠

ومع ان المحاكم قضت بان الابن والابنة ينسبان الى الام ، الا انه عند التطبيق لم يكن هناك أي شعور بهذه « الامومة » فمثلا مات أحد الاسياد عن غير وريث فبيع عبيده في المزاد ٠٠ وكانوا أما وعددا من الصبية والبنات بيعوا لعدد من المشترين ٠٠ ثم بيعت الام ٠٠ فتعلقت بأحد اطفالها ، وانكفأت على قدم الرجل الذي اشتراها ، تتوسل اليه أن يشتري طفلها أيضا ٠٠ ليبقى معها طفل واحد من اطفالها ٠٠ وتوسلت ٠٠ وبكت وانتحبت ٠٠ فازاحها الرجل بقدمه في قسوة وعنف قائلا : لا أريد ان أشتري اطفالا ٠٠ أريد « عبدة » فقط !

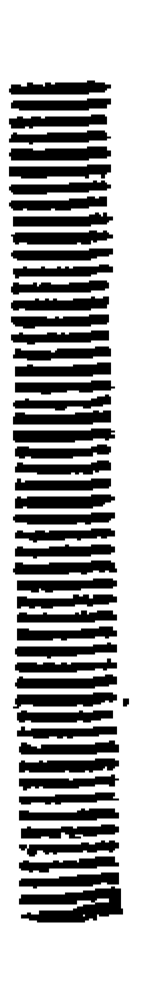
صورة بشعة ·· تجرد فيها الانسان من كل ما يليق بالانسان !

ولكن من المؤكد ، ان كثيرا من الاسياد البيض كانوا يعاملون رقيقهم معاملة فيها شيء من الرحمة والرأفة ·· وكثيرا ما كانت تنشأ بين أطفال السيد وأطفال العبيد محبة وصداقة · ولكن الاباء والامهات كانوا يحرصون على الا تستمر هـذه العلاقة بعد طور الطفولة ، حتى لا تؤثر هذه العلاقات الطيبة فى إستمرار النظـام الاجتمـاعى والاقتصـادى ·· والنفسى ·· الذى قام على الـرق والاسترقاق ·· والمشهد الذى تقدمه قصة « جذور » ·· عن بنت السيد الابيض وصديقتها كيزى أيام الطفولة ثم فى سن الكهولة هو صورة حقيقية للواقع الذى كان مألوفا فى تلك الايام ·

⊙❖⊙

هل استسلم الزنوج لهذه الحياة القاسية التعيسة ، أم هل قاوموا ·· وثاروا ·· وحاولوا الفكاك والخلاص ؟





**الفصل الرابع**

# .. وبدأت تظهر زعامات زنجية

لا .. لم يستسلم الزنوج الى المصير التعس الذى قرره لهم ملاك الرقيق ، ولم يمت فيهم الامل في أن يعيشوا يوما من الايام ، هم أو أولادهم اواحفادهم ، أحرارا لا يباعون ويشترون ، ولا يسخرون ويعذبون ، وفي ان تعود اليهم كرامتهم الادمية ، فلا يكون الواحد أو الواحدة منهم مجرد سلعة ، يملكها الرجل الابيض ، ويتصرف فيها وفيما تنتج من ذرية كما يشاء .

والواقع أنه كان من بينهم دائما متمردون ثائرون .

فكثير منهم ، بلغ في وقت ما مئات الالاف ، فروا من مزارع الجنوب الى مدن الشمال ، لينتقل من مستوى العبد الرقيق الى مستوى حمال يحمل على ظهره وفوق كتفيه الاثقال ، او خادم تساعد ربة البيت ، او الى مستوى اعلى من هذا فيكون عاملا فى مد خطوط السكك الحديدية ، او فى مناجم الفحم والحديد ، او فى مهنة من المهن اليدوية يتدرب عليها ويحترفها .

وكانوا يتعرضون من خلال هذا الهروب الى خطر شديد ، فدوريات الحراس ، ومعها الكلاب المدربة ، تجوس خلال الفيافى الشاسعة تبحث عن هؤلاء الهاربين ، وتعود بهم مكبلين بالحبال والسلاسل ، فيجرونهم وراء خيولهم حتى يلقوا بهم فى مزارع الاسياد ، ثم توقع عليهم العقوبة المناسبة ، من جلد بالسياط الى بتر طرف من اطراف الجسم .

ولم يتوقف هروب الزنوج الى حد الهجرة من الجنوب الى الشمال بل نشأت حركة تدعو الى العودة الى افريقيا ، وقامت فعلا في سنة

١٨١٦ منظمة للاستيطان في افريقيا، وكان لهذه المنظمة فروع كثيرة ومؤيدون كثيرون ، أغلبهم من البيض المستثمرين الذين كانوا لا يرون حلا للمشكلة التي لاتواجه السود وحدهم، بل تواجه البيض أيضا ، وتكاد تهدد بانشطار أمريكا شطرين متعاديين ، الا أن يعود السود الى حيث جاءوا •

أنشأت تلك المنظمة مستوطنة فيغرب افريقيا وأسمتها «ليبيريا» ـ اسما مشتقا من كلمة « الحرية » ـ واستطاعت أن تهجر اليها خمسة عشرة الفا من الزنوج •• وكان مستوى هؤلاء المهاجرين أعلى من مستوى اهل تلك البلاد حينذاك ، فتكونت منهم الطبقة الحاكمة والطبقة المتعلمة التي تسود ليبيريا حتى الأن •• ومايزال نسل هؤلاء المهاجرين يعرفون بين عامة الناس بالامريكيين !

والى جانب عمليات الهجرة والهروب علىهذا النطاق الواسع كانت هناك سلسلة طويلة من المصادمات والمعارك بين جماعات من السود ومن حولهم من البيض •• وكان يحدث مرارا أن يهب السود يصخبون ، ويصيحون ، فينهال عليهم البيض ضربا وردعا ، ثم ينقلب العراك الى معركة يحمل فيها البيض بنادقهم ، ويحمل السود فروع الاشجار ، وتنتهي كل معركة بسقوط عدد من السود قتلى وجرحى ، ثم يؤخذ الباقون فيحاكمون ارهابا وتحذيرا •

⊙❖⊙

وظلت هذه الحالة سنين طويلة ، ظلت منذ بدأت تجارة الرقيق في أوائل القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أي عندما بدأت أصوات كثيرة ترتفع فيالمناطق الشمالية وتندد بالرق وتندد بملاك الرقيق ، وتطالب بتحرير الرقيق •

وبدأت هذه الاصوات تصل سرا الى مناطق الجنوب ، فتثير شيئا من الامل في السود وكثيرا من الغيظ والسخط في البيض •

ولكن بعض ملاك الرقيق في الجنوب كان قد بدأوا يعتقون عددا من عبيدهم ، فكان هناك نصف مليون من الرجال والنساء خرجوا من ربقة الرق قبل أن تقوم الحرب الاهلية الامريكية ( ١٨٦١ ـ ١٨٦٥ ) لتحرير الرقيق ، وكان نصف هؤلاء المعتوقين من فئة الملاتو ، أمهاتهم زنجيات ، وأباؤهم أسياد بيض ، مما يدل الى أي مدى كانوا يستبيحون الفتيات والنساء الزنجيات •

الا أن أغلب ملاك الرقيق ، ومعهم أيضا سكان الجنوب بأجمعهم، كان يستنكرون تلك الدعوة « الشريرة » الى تحرير العبيد •• فهم

يدركون تماما انه لو أطلق سراحهم لتركوا المزارع وهاجروا جميعا الى الشمال حيث بدأت تتوافر فرص العمل والكسب فى المصانع التى أخذت تقوم فى أمريكا مثلما قامت فى انجلترا وفى أوربا ٠٠ فقد عبرت الثورة الصناعية المحيط من اوربا الى امريكا ، وبدأت تعمر الحياة فى المناطق الشمالية على نحو لايعرفه الجنوب ٠٠ فبدأت تأتى الالات وتقوم المصانع ، وتقوم من حولها المدن الكبيرة ، كما أن السفن كانت تغدو وتروح بين موانى انجلترا واوربا وبين موانى الشمال فى أمريكا ، تحمل الالات ٠٠ وتحمل ايضا مهاجرين على قسط من الخبرة والمران على الحرف الصناعية ٠٠ وعلى قدر من ادراك للافكار الاوربية المتقدمة عن الحرية والعدالة والاخاء بين الناس ٠٠ وهى أفكار لم يسمع بها سكان الجنوب ، ولا يريدون أن يسمعوا عنها شيئا ، لانها أفكار ثورية وفاسدة ومخربة ٠

أما أهل الشمال فانهم يريدون تحرير الرقيق ، فهذا ما تدعو اليه المبادىء الانسانية ، وما تدعو اليه المسيحية ، وما تدعو اليه أيضا المبادىء المتقدمة التى تجىء اليهم من أوربا ٠٠ وايضا ، وهذا هو الاهم ، لان المصانع التى بدأت تقوم وتنتشر فى الشمال فى حاجة الى الايدى العاملة ، وليس هناك أوفر ، ولا أرخص ، من الايدى العاملة السوداء فلماذا يحتكرها أصحاب المزارع فى الجنوب ، ولماذا لايطلق سراحهم لينتقلوا الى الشمال حيث تنتظرهم المصانع ، والمناجم ، وسفن النقل ، وشتى مجالات الصناعة الحديثة ٠

صحيح أن أبواب الهجرة من أوربا الى أمريكا فتحت أبوابها ، وأن أفواجا وأفواجا أخذت تهاجر من انجلترا وايرلندة ومن ألمانيا وهولنده ٠٠ وحتى من ايطاليا وفرنسا ، ومن روسيا وبولنده ورومانيا وبلاد البلقان ٠ وقد بدأ هؤلاء المهاجرون يملأون المصانع ، ويزحمون المدن ، وأخذوا يغيرون وجه الحياة وطريقة التفكير فى « الشعب الامريكى » الذى كان حتى ذلك الوقت شعبا صغيرا تكون من أعداد قليلة من الناس تركوا أوطانهم فى انجلترا وأوربا الشمالية فرارا من الاضطهاد الدينى ، أو الاضطهاد السياسى، والتماسا لحياة جديدة قد لا تكون أقل مشقة من حياتهم فى أوربا ، ولكنها حياة تتوافر فيها فرص العمل والتقدم والثراء ٠

وقد بدأ هؤلاء المهاجرون الجدد يهبطون أرض أمريكا بالالاف ، ويفضل أكثرهم الاستيطان فى مناطق الشمال ٠٠ ولكن أمريكا تنمو سريعا ، ومصانعها تقام على عجل ، والآلات تركب وتدور ، والانتاج

يخرج وفيرا فتحمله السفن عبر البحار ، وتحمله القطارات الى انحاء أمريكا .. فلابد من مزيد من العمال ، وليس هناك أوفر وأرخص من رقيق الجنوب .

ومن الطبيعي أن يكون السود الذين سبق أن هاجروا الى الشمال هم أيضا من دعاة تحرير الرقيق في الجنوب ، فبدأت تظهر بينهم زعامات زنجية كانت بداية صف طويل من الزعامات التى عرفهـا المسرح السياسى فى أمريكا بعد هذا قرنا طويلا من الزمان، والتى مازالت تعمل حتى الآن على المسرح السـياسى ولها وزن ودور فى معارك الانتخابات وفى التأثير على أعضاء الكونجرس ، وعلى البيت الابيض أحيانا .. وقد خرجت هذه الزعامات الاولى من بين الزنوج الذين أتيح لهم أن يصلوا فى دراستهم الى المرحلة الجامعية ، فأول زنجى تخرج فى أحدى الكليات أتجه فورا الى انشاء صحيفة سماها « جريدة الحرية » وقال فى عددها الاولى الذى صدر سنة ١٨٢٧ : لقد آن الاوان لكى نتكلم نحن السود عن أنفسنا .. بعد أن تركنا غيرنا يتكلم عنا ويدافع عنا فترة طويلة .. ولكن هذا الشاب لم يطق الحياة فى أمريكا فهاجر الى ليبيريا وأصبح مفتشا على المدارس التى أنشأها المهاجرون السود هناك ثم قام شاب زنجى فأصدر جريدة أخرى أسمها « الحقوق للجميع » .. وهكذا بدأ يظهر من الزنوج زعماء يكرسون أنفسهم لقضية تحرير العبيد ، وكانت هذه الزعامات تتسم عادة بالحدة والتطرف والدعوة الى الكفاح العنيف .. فمثلا ظهر قسيس كانت تدور مواعظه فى كنيسته السوداء حول دعوة الزنوج إلى حمل السلاح ، وكان يقول لهم : لا أمل لكم فى الخلاص الا اذا أرقتم الدماء .. وسالت منكم الدماء .. واذا كان لابد أن تدمى أجسادنا يوما ما ، فلماذا لايكون هذا الآن .. انه خير لكم أن تموتوا أحرارا من أن تعيشوا عبيدا .

وقد ظل الامريكيون زهاء عشرين سنة أو أكثر ، من قبل وبعد منتصف القرن التاسع عشر ، تسيطر عليهم جميعا مشكلة الرقيق وماذا يصنعون بها .. وفى خلال هذه الفترة أنقســمت الولايات المتحدة الى قسمين متساويين تقريبا ، فقد كان عدد الولايات عشرين ثم زاد الى اثنتين وعشرين ، وكان الرق مسموحا به قانونا فى نصف الولايات ، بينما كان محرما فى النصف الآخر .. وعندما كانت أحدى الولايات الجديدة ، مثل تكساس وكليفورنيا ونيومكسيكو ، تنضم الى الولايات المتحدة كانت تجرى مفاوضات بين الولاية وبين الحكومة المركزية فى واشنطون، ليتم الاتفاق على ما اذا كانت ستنضم كولاية

تبيح الرق ، أو كولاية تحرم الرق ٠٠ وكانت الولاية تدفع أحيانا بضعة ملايين من الدولارات ليسمح لها بممارسة الرق قانونا ٠

ولا يتسع المجال هنا لسرد هذا التاريخ الطويل الذى بلغت فيه مشكلة الرق ذروتها عندما جاءت معركة الانتخابات للرئاسة فى سنة ١٨٦٠ ، وكان محورها بطبيعة الحال هو هذه المشكلة التى صارت تسيطر على عقول البيض والسود جميعا ٠ وتقدم الى انتخابات الرئاسة المحامى الشاب ابراهام لنكولن الذى كان أسمه يتردد على ألسنة الناس منذ عدة سنوات أمضاها يخطب ويكتب داعيا الى الغاء الرق وتحرير الرقيق ٠٠ وكانت دعوته تقوم أساسا على أن مشكلة الرق ، فضلا عن انها تنافى الانسانية ، فانها قد قسمت الشعب الامريكى قسمين متعاديين ، وصارت تهدد وحدة الامة الامريكية وهى مازالت فى بداية حياتها ٠

وانتخب ابراهام لنكولن رئيسا ، وتولى الرئاسة فى مارس سنة ١٨٦٠ ، وألقى خطبته التي قال فيها : أن بيتا منقسما على نفسه لا يمكن أن يبقى قائما ٠٠ وأن أمريكا لا يمكن أن تستمر طويلا اذا ظل نصفها حرا ، ونصفها عبدا ٠٠

وأعتبرت ولايات الجنوب انتخاب لنكولن للرئاسة تحديا وتهديدا لها ، فردت على التحدى والتهديد ردا عمليا : أعلنت انفصالها عن الولايات المتحدة الامريكية ، وأخذت كل ولاية تقيم لنفسها حكومة مستقلة ، ثم كونت فيما بينها تحالفا وسمت هذه المجموعة « الولايات الامريكية المتحالفة » !

وأنزل العلم الامريكى من فوق تلك الولايات ، ورفع مكانه علم الدولة المتحالفة ، وأشرفت أمريكا على حرب أهلية سرعان ما نشبت بين الشمال والجنوب واستمرت أربع سنوات طوالا ٠٠

وأعلن ابراهام لنكولن ، وسط هذه الحرب الاهلية ، الغاء الرق ابتداء من يوم أول يناير سنة ١٨٦٣ ٠٠ وعرض القرار على الكونجرس فظل أعضاؤه يتجادلون ويراوغون ثلاث سنوات ، حتى صدر قانون الغاء الرق فى ديسمبر سنة ١٨٦٥ ، وهو ما يعرف بالتعديل الثالث عشر للدستور الامريكى ٠

وانتقل الزنوج ، بحكم الدستور ، من العبودية الى الحرية ٠ ولكن الغاء الرق وتحرير الرقيق ترك مرارة وحقدا فى نفوس أهل الجنوب جميعا ٠

فاغتيل ابراهام لنكولن بعد هذا بقليل .. وبعد أن ألقى خطبته المشهورة عن الحرية .. التي يحفظها التلاميـــذ في مدارسهم ، ويستشهد بها الكتاب فيما يكتبون عن الحرية .

وكثير ممن كانوا يحاربون في صفوف جيش الجنوب الذى انهزم، لم يطيقوا الحياة في أمريكا التي لم يعد فيها عبيد أرقاء .. فرحلوا عن بلادهم يلتمسون العمل والرزق في بلاد أجنبية .. وقد خصنا نحن في مصر من هؤلاء مجموعة من الضـــباط استقدمها الخديو اسماعيل لتنظيم الجيش المصرى على الطرق الحديثة .. وكان على رأسهم الجنرال ستون ، الذى عرف في تاريخنا باسم ستون باشا ، وكان رئيسا لاركان حرب الجيش المصرى !

وتقرأ في مذكرات أحمد عرابى نقدا شـــديدا لهذه المجموعة من الضباط الامريكيين وتعاليهم على كل من يعمل معهم .. ويتهمهم أيضا بأنهم كانوا سببا في فشل حملة الجيش المصرى على الحبشة وأنهم كانوا على اتصال بالمبشرين الذين كانوا يريدون حماية الحبشة من الجيش المصرى ... ونقرأ أيضا في مذكرات تركها بعض هؤلاء الضباط أنهم فشلوا في مهمتهم في تنظيم الجيش المصرى ورفع مستوى ضباطه وجنوده بسبب الموظفين والكتبة المصريين في وزارة الحربية ، فقد كانوا يقفون في وجه كل اقتراح ، ويعقدون كل مسألة ، فكان الامريكيون يلجأون الى الخديو نفسه .. فيصدر أوامره .. ولكنها تتحطم بسبب الروتين .. الذى وضعه الكتبة في وزارة الحربية .. وهكذا أثبتوا صحة مايقال من أنه ما من أحد استطاع أن يغلب الحاكم المصرى سوى الباشكاتب المصرى .

ونعود الى أمريكا .. فنجد جماعات من البيض راحت تقاوم حركة تحرير الرقيق بكل عنف وبكل الوسائل ، بما فيها القتل والحرق والتدمير .. فكانت هذه فترة حالكة في تاريخ أمريكا بما جرى فيها من صراع عنيف بين البيض والسود ، وكانت جماعة كلوكلوكس كلان أحد مظاهر هذا الصراع الدامى .

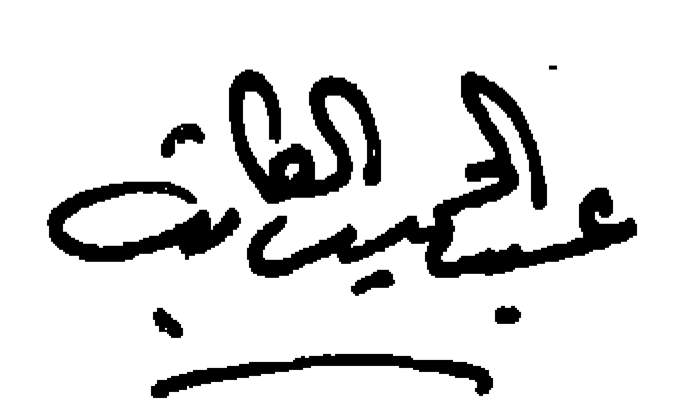
كانت هذه الجماعات التى تغطى رؤوسها ووجوهها بأقنعة بيضاء، وتخرج في الليل جماعات جماعات على ظهور الخيل ، فتغير على القرى وتحرق البيوت والمحاصيل .. وتقتحم أكواخ الزنوج وتهوى عليهم ضربا وتعذيبا .. وتخطف أحيانا شابا أو رجلا سمعوا أنه يتحدث صراحة عن الحرية وعن مستقبل الزنوج ، ويعذبونه بطريقتهم البشعة

.. فيعقدون له محاكمة صورية تقضى باعدامه .. فيصلبونه على جذع شجرة وينهالون عليه بالسياط حتى يموت !

وقد حدث مرارا أن تجمع آلاف من البيض يشاهدون عملية قتل الزنجى بهذه الطريقة وهم يصيحون فرحا .. بل حدث فى احدى المرات أن ظلوا يضربون الزنجى حتى تمزق جسمه أربا أربا .. ثم أسرعوا يتخاطفون قطع العظام للذكرى والتاريخ !

ولكن حركة تحرير الرقيق مضت فى طريقها .. وظهر من بين الزنوج قادة عديدون تزعموا الحركة ودفعوها الى الامام .. وظهر أيضا من بين البيض عديد من رجال الدين ، ومن الكتاب والاساتذة ، ومن رجال السياسة ، من أيد هذه الحركة ورعاها وحولها الى قوانين تدعم تحرير الرقيق .. ثم انتقلت الحركة الى حملات واسعة للحقوق المدنية تهدف الى مساواة السود والبيض فى حقوق المواطنة الامريكية .. ورغم ما تخلل هذه الحركة من نكسات ، ومن صراعات ، وأحيانا من أحداث دامية .. الا أنهـــا نجحت فى أن تحيل هؤلاء السود الذين كانوا عبيدا مستذلين منذ قرن مضى ، الى مواطنين أمريكيين يتمتعون بالحرية الكاملة ، ولهم ما للبيض من حقوق ، ويتطلعون دائما لان يكون لهم ما للبيض من فرص متكافئة فى العمل ، وفى الاجر ، وفى المناصب القيادية .

وبقدر ما كتبت تجارة الرقيق صفحة سوداء فى تاريخ أمريكا ، فقد كتبت حركة الحقوق المدنية صفحة مشرفة فى تاريخ أمريكا .



# محتويات الكتاب



رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القـومية ٨٢٠٤/٧٩

الترقيم الدولى ـ ٩٥ ـ ٧٠٤١ ـ ٩٧٧ ـ ISBN


منتجات
جولدستار العالمية
للسادة تجار
الأجهزة الكهربائية
ولأول مرة في جمهورية مصر
GOLD STAR
GS
كبرى الشركات العالمية المتخصصة في الالكترونيات
تليفزيونات ١٢ و ١٤ و ١٧ و ٢٠ بوصة
راديوهات ٢ موجة
راديو ٢ موجة مزود بموقت وساعة كوارتز
بأسعار تتحدى كل الأسعار
مركز خدمة مجهز
١٤٥ ش شبرا ت ٩٤٢٤٠٥
IRRADIO
VOLUME
FM — AM
TUNING
الوكيل الوحيد
الشركة المصرية للأجهزة الكهربائية
١٥٩ شارع شبرا - تليفون ٩٤٢٤٠٥


SANYO SANYO SANYO
سانيو
من أجل
سعادة أسرتك
أشرطة سانيو بالغة الحساسية
دقة متناهية في التسجيل
تمتاز باحتفاظها بهذه الخصائص لعمر طويل
متوفرة بالمحلات الكبرى
أزمنة ٦٠ د، ٩٠ د، ١٢٠ د
SANYO
Compact Cassette Tape
C-120LN
C-90LN
C-60LN
LOW-NOISE
الوكيل شركة حول العالم
المنطقة الحرة العامة ببور سعيد
SANYO سانيو



٤٠ قرشا